إريش كيستنر

فابيان الأخلاقي

مكتبة

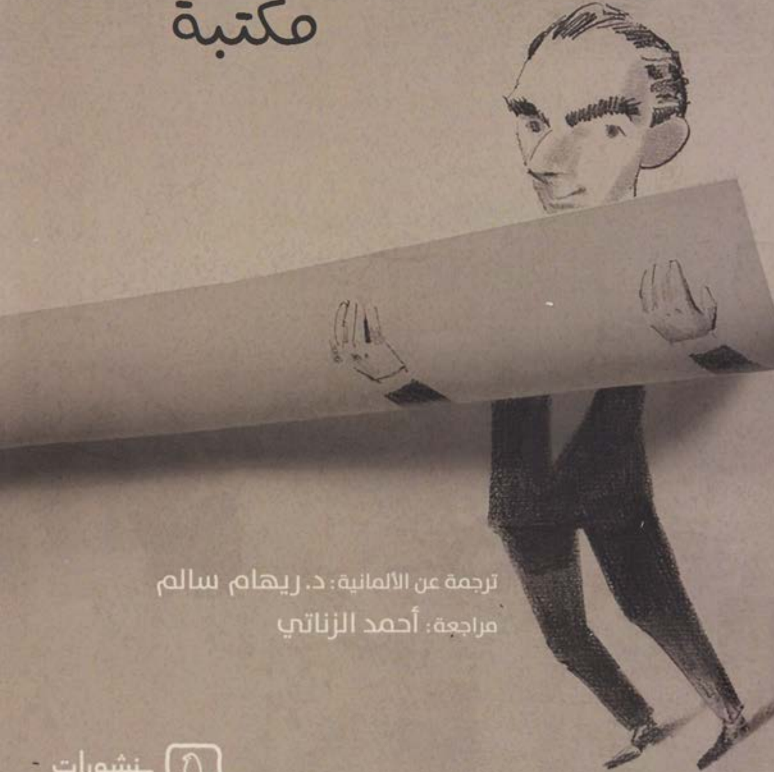

ترجمة عن الألمانية: د. ريهام سالم

مراجعة: أحمد الزناتي

منشورات حياة

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

فابيان
الأخلاقي

الكتاب: فابيان الأخلاقي

العنوان الأصلي: Fabian. Die Geschichte eines Moralisten

المؤلف: إريش كيستنر

الترجمة عن الألمانية: د. ريهام سالم

المراجعة: أحمد الزناتي

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

تصميم الغلاف عبد الفتاح بوشندوقة

مكتبة
t.me/soramnqraa

عدد الصفحات: 368

الترقيم الدولي: 978-1-998800-36-0

الطبعة الأولى: 2025

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حياة

يمكن شراء إصداراتنا من المتجر الإلكتروني:

hayat-publishing.com

فابيان الأخلاقي

إريش كيستنر

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمة عن الألمانية

د. ريهام سالم

مراجعة

أحمد الزناتي

هذا الكتاب

فابْيَان ياكوب، رجل في الثانية والثلاثين، لا يملك وظيفة ثابتة؛ ويعمل الآن في مجال الدِّعاية والإعلان، وهو مقيم في المنزل رقم 17 في شارع شابر. حسنًا.. هل تريدون أن تعرفوا مزيدًا عنه؟

يتناول إريش كيستنر في هذه الرواية مسألة اضمحلال جمهورية فايمار وسقوط ما تمثِّله من مُثُل عليا على الصعيدين السياسي والاجتماعيٍ، وهو يتناول القضية بنبرة لاذعة لا تعرف رِفقًا ولا هوادة، مسلطًا الضوء على تلك القضية من خلال بطل الرواية فابْيَان ياكوب، الاختصاصي في اللغة الألمانية وآدابها، والعاطل عن العمل!

وسط عالم انقلبت معاييره رأسًا على عقب وانعدمت فيه قوّة الأخلاق النبيلة وسلطانها وتناحرت فيه الطوائف السياسية المتطرفة، في خِضَمّ تلك الفوضى يقف فابْيَان، المتمسك بالأخلاق، فيرصد مظاهر الَحياة ويدرسها: الغُرف المفروشة، والبطالة، وأصنافًا معينة من النساء والأنشطة «المشبوهة» التي يُدِرْنَها، والحانات، والقَوَّادين، فضلًا على الحب والنفاق البشري، إلخ. على أن فابْيَان -في نهاية المطاف- يهوي من علياء عالمه الأخلاقي إلى الحضيض، وتهوي معه ديموقراطية حقبة الثلاثينيات.

في تصدير الطبعة الأخيرة من الرواية يقول كيستنر عن روايته «حكاية رجل أخلاقي»: «... إنه لا يضعُ مرآة مصقولة أمام تلك الحقبة، بل ينصِبُ مرآة مُشَوّهة، فيمضي إلى الحدود القصوى متوسلًا بالصورة الكاريكاتورية الساخرة، بوصفها وسيلةً فنية مشروعة. فإن لم تُجْدِ أيضًا هذه الوسيلة نفعًا، فلا خير في شيء البتة!».

تصدير المؤلف للطبعة الجديدة

على مدار الوقت شاعت أحكام متضاربة وآراء متناقضة حول هذه الرواية التي صدرت قبل ربع قرن تقريبًا، وكانت عُرضةً لسوء الفهم على يد بعض مَنْ أشادوا بذكرها. ونحن نتساءل الآن: هل في مقدور الناس اليوم فهم الرواية فهمًا أفضل عن ذي قبل؟ بالطبع لا.

ما السبب إذًا؟

أحسب أن السبب هو إفساد ذائقة السواد الأعظم من الناس إبان فترة الرايخ الثالث[1] والتأثير على ما يصدرونه من أحكام بسبب تأميم الذائقة الشخصية، وطبعها بطابع الدولة، وتصديرها للشعب حبيسةَ عباراتٍ محدَّدةٍ وقوالبَ مؤدلجةٍ، يحفظها الناس عن ظهر قلب، ومن ثم يكررونها مليون مرة!

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) المقصود فترة حكم الحزب النازي في النصف الأخير من ثلاثينيات القرن الماضي حتى سقوط النازية سنة 1945م. (المحرر)

أما اليوم، وحتى قبل أن تحاول تجديد دمائها، تحاول القوى الجديدة، أو لو تحرَّينا الدقة.. تحاول القوى المتعصبة القديمة حَقْنَ الجماهير بآراء ومعتقدات مقولبة جامدة، لا تختلف كثيرًا عن سابقتها.

يجهل كثيرون حقيقةَ كونهم قادرين على إصدار أحكام خاصة بهم، وعاجزين عن إدراك ذلك، أو أن عليهم -بالفعل- أن يفعلوا ذلك، وستظلُّ طريقة الوصول إلى نقطة البداية غائبة عن الأذهان، على الأخص حين يُمَهَّد بالفعل حاليًا لقوانين فرض الرقابة على الفنون والأدب بدعوى حماية الشباب، لذا نرى عودة كلمة «تدمير القيم» لتحتلَّ مكان الصدارة في قاموس مفردات القوى الرجعية.

ومن تبعات ما ذكرناه آنفًا أن نفرًا قليلًا من الناس -أقل من ذي قبل- هم القادرون على فهم أن رواية فابْيان ليست رواية متجرِّدة من الأخلاق بحال من الأحوال، بل على العكس من ذلك تمامًا؛ إنها بالفعل رواية أخلاقية. كان العنوان الأصلي لهذا العمل: «السير أمام الكلاب»، وهو ما رفضه الناشر الأول، ومن ثم لزِمَتْ الإشارة إلى هدف الرواية على صفحة الغلاف؛ وهو أن تدق ناقوس الخطر، وأن تُحذِّر من الهاوية التي توشك ألمانيا -ومعها القارة الأوروبية برمتها- على السقوط فيها قريبًا. في وسعنا أن نقول إن هدف الرواية هو دفعُ القارئ دفعًا -وبشتى الطرائق والوسائل- إلى شحذِ الإدراك، والحضِّ على التدبُّر، حتى لو كان هذا الإدراك في اللحظات الأخيرة!

كان تزايد نسبة البطالة، وشيوع حالة الإحباط الروحي التي جاءت نتيجة تردِّي الأحوال الاقتصادية، وإقبال الناس على الانغماس في ما يُخدِّرهم ويُذهب حواسَّهم، ناهيك بالممارسات الرعناء للأحزاب السياسية، كل ذلك كان بمثابة العاصفة التي تنذر بوقوع الأزمة، عاصفة مسبوقة بهدوء مخيف يشبه شللًا وبائيًا، أو يشبه قصورًا ذاتيًّا في عضلة القلب. وهو ما دفع بعض الناس إلى الوقوف في وجه العاصفة وفي وجه الهدوء الذي يسبق تلك العاصفة، فوجدوا أنفسهم يُهمَّشون ويزاحون إلى الظلِّ.

فآثَرَ الناس السير في ركاب المُهلِّلين والطبَّالين ونداءات الباعة في الأسواق وهم يُدَلِّلون على مبيعاتٍ من قَبيل لاصقات الخردل الطبية، ومحاليل سامَّة غير معروفة، وانساقوا وراء التقليد الأعمى حتى وصلنا إلى القاع الذي نحن فيه الآن، صرنا موتى أكثر من كوننا أحياء! ونحن - رغم ذلك- نحاول أنْ نتغافل متجاهلين ما نحن فيه، وندفن رؤوسنا في الرمال كما لو أنَّ شيئًا لم يحدث.

يرسم هذا العمل صورةً لأحوال المجتمع في المدينة الكبيرة في تلك الحقبة؛ وهو ليس كتابًا شعريًّا أو ألبوم صور، وإنما هو عمل أدبي ساخر. وهو لا يصوِّر ما كانت عليه الأوضاع وقتذاك، وإنما يرسم صورة قوامها التضخيم والمبالغة.

من المعتاد أن يُقال ألا أمل في شيء، أما غير المعتاد حقًّا فهو أن تثبِّط تلك الطريقة (الساخرة) همَّة البطل الأخلاقي، ذلك البطل الذي لا يجد مكانه التقليدي إلا في الدفاع عن القضايا الخاسرة، وهو لا يألو جهدًا في سبيل أداء تلك المهمة.

هو بطل يرفع شعارًا واحدًا في الحاضر كما رفعه في الماضي: اِمْضِ قدمًا رغم كل شيء!

ميونيخ، مايو 1950

إريش كيستنر

الفصل الأول

النادل العرَّاف

الرجل الآخر يقرر الذهاب إلى هناك رغمًا عن كل شيء

معهد التقارب الثقافي[1]

جلس فابْيَان في مقهى شبالتنهولتس، ومرّتْ عيناه على عناوين الصحف المسائية: «انفجار سفينة فضاء إنجليزية فوق بلدة بوفيه الفرنسية».. «تخزين مادة «الإستكرنين» القلوية عالية السُّمِّية بجانب حبوب العدس».. «سقوط فتاة تبلغ تسع سنوات من الشرفة».. «للمرة الثانية على التوالي.. فشل انتخاب رئيس الولاية ووزرائها».. «الموت في محمية حيوانات «لاينس» النمساوية».. «فضيحة مدوية تهزّ مكتب المشتريات في البلدية»...

(1) يصدِّر المؤلف بكلمات مفتاحية مقتضبة لاستهلال كل فصل. وقد آثرنا الإبقاء عليها من باب المحافظة على نقل الأسلوب الأصلي للمؤلف. (المحرر)

مضى الوقت، وتناهت دقات ساعته صاعدةً من جيب الصَّدار، وهو يتابع: «تراجُعُ مبيعات الفحم في منطقة الرُّوْر».. «هدايا لمدير سكك حديد الرايخ السيد نويمان».. «أفيال تمشي فوق رصيف المشاة».. «التوتُّر يضرب أسواق القهوة».. «فضيحة حول الممثلة الأميركية كلارا بو».. توقُّعات بإضراب نحو مئة وأربعين ألفًا من عمال صناعة المعادن».. «دراما الجريمة في ولاية شيكاغو».. «مفاوضات في موسكو بشأن إغراق الأسواق بالأخشاب».. «تمرُّد صيَّادي عائلات شتارهمبرج»... إنها أعباء كل يوم، ولا جديد تحت الشمس.

ارتجفت أوصاله بعد رشفة طويلة من قهوته المُسكَّرة، طعم السكر يملأ حلقه بشكل غير معتاد بعدما أقلع منذ عشر سنوات عن أكل الحلوى، واستعاض عنها بوجبة من المعكرونة مع كعك الزاخير[1] يتناولها ثلاث مرات أسبوعيًّا، سرعان ما أشعل سيجارةً واستدعى النادل الذي سأله:

- ماذا تريد؟

- تفضل به!

- هل ينبغي عليَّ أن أذهب الآن؟

- إلى أين؟

---

(1) كعكة زاخير (بالألمانية: Sachertorte) هي كعك شوكولاتة صنعه الخباز النمساوي الشهير فرانز زاخا للأمير كليمنس فون مترنيش في فيينا بالنمسا عام 1832. وهي واحدة من أشهر ما يختص به المطبخ الفييني. (المترجمة)

- عليك ألَّا ترد على سؤالي بسؤال، فقط أجِب، هل يجب أن أمضي أم أظل هنا؟

عبثت يد النادل وراء أذنيه متظاهرًا بالتفكير، ثم وقف على قدم واحدة، وسرعان ما استبدل بها الأخرى، ثم قال في لهجة الحائرً المضطرب:

- أريد إجابةً منكَ عن سؤالي...

- من الأفضل ألَّا تذهب يا سيدي؛ البقاء هنا سيجعلك في مأمن.

أومأ فابْيَان برأسه، ثم قال:

- حسنًا.. سأنصرف من هنا، كم حسابك؟

- لكني نصحتك ألَّا تذهب، أليس كذلك؟

- بلى. ولذلك سأذهب! من فضلك كم الحساب؟

- أتُراكَ كنت ستبقى إذًا لو أنني نصحتك بالذهاب؟

- كنت سأذهب على أي حال، حتى لو...، من فضلك كم الحساب؟

غضب النادل ثم هَمهَم:

- لستُ أفهم شيئًا! لِمَ سألتني إذًا في البداية وطلبتَ مشورتي؟

- لو كنت أعرف لأجبتكَ!

أبدى النادل انزعاجه ثم قال بصوت عالٍ:

- فنجانَ قهوة.. خبزًا بالزبد؛ سيكون حسابك خمسين.. بالإضافة إلى ثلاثين؛ الحساب ثمانون. سيكون مجموع ذلك كله تسعين بْفِينْجًا، يعني: ماركًا إلا عشرة بْفِينْجات.

وضع له فابْيَان ماركًا كاملًا على الطاولة ومضى.

مضى إلى حيث تقوده قدماه لا يلوي على شيء، أين هو الآن؟ لقد عَبَرَ ميدان فيتنبرج، ثم صعد إلى حافلة رقم 1، وسرعان ما نزل إلى جوار جسر بوتسدام، وإذا به يُلقي نفسه في عربة التِرام من دون أن يقرأ رقمه، ولم يكد يُمْضِي عشرين دقيقةً في رحلته حتى اقتحمت العربة سيدة تشبه فريدريش الأكبر[1] ومضت نحوه فجأةً، فغادر الترام على الفور، كل تلك الأحداث قمينةٌ ألا تجعله يعرف أين يكون حقًّا!

تعلقت عيناه بثلاثة عمال يمشون مِشيةً عسكريةً سريعةً، وظل يتابعهم حتى تعثرت قدماه في ألواح خشبية متناثرة في أحد مواقع البناء؛ ولاحت لعينيه وهو ينهض من كَبْوته جدران الغرف الرمادية التي تُؤَجَّر بالساعة، طالعها وقد امتدت بطول الشارع حتى محطة يانوفتسبروكه التي استقل منها القطار ليواصل رحلته من جديد، وعندما استقر على مقعده في القطار أخرج من جيبه ورقةً كتبها له السيد بيرتوخ رئيسه في المكتب، وراح يطالع العنوان المكتوب فيها: (شارع شلوتر منزل رقم 23، السيِدة زُومِر).

(1) ملك مملكة بروسيا في القرن الثامن عشر. (المحرر)

غادر القطار عند حديقة الحيوان، وتابع السير وصولًا إلى شارع يوآخيمتالر، وهناك اعترضته امرأة ترتجف ساقاها النحيفتان وهي تسأله إن كان يرغب في قضاء وقت لطيف معها، لكنه استاء نافرًا من عرضها، وفرَّ منها وهو يلوح لها بإصبعه السبابة مهدِّدًا.

كانت المدينة تشبه ميدان رومل، وقد اصطخبت الأنوار الملونة على واجهات المنازل كأنما أخجلتْ أنوارُها بريق النجوم! ثم مَرَقت طائرة تطوي السماء من فوق أسطح المنازل، فتساقطت أمطار من العملات المعدنيَّة فوق رؤوس المارة الذين تطلعوا إلى السماء ضاحكين مستبشرين، ثم انحنت رؤوسهم صوب الأرض ليلتقطوا تلك العملات، تداعت إلى ذاكرة فابْيَان واقعة أخرى تشبه هذا الواقعة، إذ رأى فيها فتاة ترفع رأس كلبها الصغير نحو السماء كي يلتقط الكلب -بدوره- بعض العملات الساقطة.

أسقط فابْيَان بيده إحدى تلك العملات المتناثرة عن حافة قبعة أحد المارِّين، وقد كان مكتوبًا عليها: «زوروا حانة العجائب، رقم: 3 بميدان نولندورف، ستجدون النساء الجميلات، و التماثيل المثيرة العارية، وبنسيون كوندور في نفس المبنى»؛ تخيَّل فابْيَان نفسه فجأةً وهو يحلق في واحدة من تلك الطائرات الهائمة في السماء، ويلقي نظرة منها على شاب يتسكع في شارع يوآخيمتالر الذي يعجُّ بالزحام، ويتلاحم فيه المارة، وتنعكس فيه أضواء المصابيح اللامعة على واجهات العرض الزجاجية للمحلات. في ليلة ماجنة محمومة، كان يرى نفسه العالية وقد تقمَّصتْ روح ذلك الشاب الماجن!

عَبَر فابْيَان جسر كورفوتسن وعيناه تتطلعان إلى شاب تركيّ يتحرك تحت حائط بيت مسقوف بالقرميد، وكانت عينا الشابِّ التركيّ تومضان كأنما ينعكس منهما ضوء كهربائي، وفي نفس اللحظة شعر فابْيَان بشيء يصطدم بكعب حذائه، فالتفت مستنكرًا ما حدث، وتبين له أنها صدمة خلفيَّة من الترام، تبعها سباب مُحَصِّل التذاكر، وعندها تدخل الشرطي قائلًا له:

- انتبه!

فأجابه فابْيَان وهو يسحب قبّعته ليعيدها إلى وضعها الطبيعي:

- سأحاول جاهدًا.

وصل فابْيَان إلى مقصده في شارع شلوتر، وهناك استقبله قزمٌ يرتدي ثوبًا أخضر، ما يعتبرونه زيًّا رسميًّا مخصصًا للخدم في الفنادق. تابع فابْيَان الصعود مع القزم على سُلَّم أنيقٍ، ومن ثَمّ بدأ القزم يساعد الزائر على تعليق معطفه، ثم اختفى، وبمجرد اختفائه سمع فابْيَان صوتَ أقدام سيدةٍ ممتلئة الجسد. إنها -قطعًا- السيدة زُومِر، قالت السيدة:

- أستأذنك أن تأتي معي إلى مكتبي.

تبعها فابْيَان. قلَّبت السيدة صفحات دفترها، ثم أومأت برأسها قائلةً:

- بيتروخ، فريدريش جيورج، مدير المكتب، أربعون عامًا، متوسط الطول، لون الشعر بني، مقيم في المنزل رقم (9)

بشارع كارل، يعشق الموسيقا، ويفضِّل الشقراوات الرشيقات، ويفضل ألَّا تزيد سِنُّهنَّ على خمسة وعشرين عامًا؟

- أجل، إنه هو.

- يتعامل معي السيِّد بيتروخ منذ شهر أكتوبر، وقد زارنا في هذه الفترة خمس مرات.

- هذا يدل على كفاءة المؤسسة التي تديرينها.

- تبلغ تكاليف التسجيل هنا عشرين ماركًا، على أنه من الممكن -حينما تأتينا بصفة مستمرة- أن نخفِّض لك المبلغ، ليكون عشرة ماركات فقط.

- هاكِ ثلاثين ماركًا...

وضع فابْيان النقود على مكتبها، فأخذت السيِّدة زُومِر الورقات المالية، ثم زجَّت بها في درج مكتبها وقالت:

- بياناتك الشخصية؟

- اسمي يعقوب فابْيَان، سِنِّي اثنان وثلاثون عامًا، الوظيفة غير ثابتة، أعمل في الوقت الحالي متخصصًا في الإعلانات والدعاية، أقيم في المنزل رقم 17 في شارع شابر، وأنا مريض بالقلب، لون شعري بُنِّي.. هل تودين التعرُّف على شيء آخر يتعلق بي؟

- نعم.. هل لديك رغبات معينة بخصوص النساء؟

- لا أريد أنْ أتقيَّد بشيءٍ محدد، أنا أميل إلى الشقراوات، لكن خبرتي بهنَّ ليست جيدةً، كما أني أفضل كبيرات السن، مع أنَّ الرغبة قد لا تكون متجانسةً بين الطرفين. أقول لكِ.. اتركي هذه الخانة فارغة، من فضلكِ.

سُمع صوت الجرامافون يدور في المكان، أحنت السيِّدة زُومِر نصفها العلوي إلى الأمام تجاه فابْيَان، وقالت له في لهجة جادَّة وحازمة:

- قبل أنْ ندلف إلى الداخل معًا، يجب عليَّ أنْ أُطلعك على أهم اللوائح التي تُنظِّم عمل مؤسستنا، بطبيعة الحال لن يُستَنْكَرَ ما قد يكون من التقارب والألفة بين الأعضاء، هذا أمر متوقَّع جدًّا، فالنساء يستمتعن هنا بنفس حقوق الرجال، على أن مؤسستنا مجهولة؛ إذ لا نُخطر أحدًا بعنوانها إلا أولئك الجديرين بالثقة، وحفاظًا على الهدف النبيل لمؤسستنا يجب سداد تكاليف الاستهلاك لكل فرد على الفور، وعلى جانب آخر.. لا تُحتَرمُ العلاقة الزوجيَّة في الغرف الداخلية، والأزواج الذين يرون في هذا إزعاجًا يُطلب إليهِم مغادرة المكان على الفور، فهذه المؤسسة تهدف إلى تمهيد الطريق للعلاقة لا إقامة العلاقة نفسها. أمَّا الأعضاء الذين أتيح لهم لقاءٌ عابرٌ من أجل مصلحة متبادلة، فنحن نرجوهم أنْ يتناسوا ذلك سريعًا، لأن هذه هي الطريقة التي نتجنب بها أيَّ تعقيدات في العلاقات. هل فهمت ما ذكرتُه لك يا سيد فابْيَان؟

- أجل.. تمامًا.

- إذًا، فلتتبعني من فضلك!

دلف فابْيَان معها إلى الغرفة الأولى، وكانت مكتظةً بالناس، كانوا ما بين ثلاثين وأربعين، بعضهم يلعب القمار، وبعضهم يرقص. أومأت السيِّدة زُومِر للعضو الجديد فابْيَان كي يجلس إلى إحدى الطاولات الفارغة، وقالت له:

- بالتأكيد سيأتي أحدهم في أيِّ وقت ويتحدث إليك.

ثم مضت وحدها وتركته جالسًا. سألَ فابْيَان النادلَ كأس كونياك وراح يمسح المكان بناظريه، قائلًا لنفسه: «ما هذا الجمع؟ هل دُعيت إلى حفل عيد ميلاد؟».

اقتربت منه فتاة شعرها أسود، ثم جلست بالقرب منه، وقالت له:

- الناس يبدون هنا أكثر براءةً وطيبةً مما هم عليه في الحقيقة!

عرض عليها فابْيَان أنْ تدخِن معه، فقالت:

- أنت لطيف، هل أنت من مواليد شهر ديسمبر؟

- بل فبراير.

- أنت من مواليد برج الحوت إذًا، وفيك من خصال برج الدَّلو، أصحاب هذه الأبراج لهم طبيعة باردة. هل أتيت إلى هنا بدافع الفضول؟

- يزعم علماء الذرة أنَّ أصغر الجُسيمات للمادة يتكون من جزيئات مشحونة بالكهرباء. تدور في مسارات دائرية. هل

تعتقدين أن رأيهم هذا مجرد افتراض؟ أم أنه رأي يطابق الحقيقة؟

- أنت مُرهف الحسّ أيضًا! غير أن هذا كله عديم القيمة، فأنت قد جئت إلى هنا كي تبحث عن امرأة.

هزَّ كتفيهِ وقال:

- هل هذا عرض رسمي؟

- كلام فارغ! لقد تزوجت مرتين، وهذا كافٍ لي، في الواقع الزواج ليس هو الحل الأمثل بالنسبة إليَّ، ولهذا يثيرني الرجال أنفسهم لا الزواج بهم، فأنا أتخيل كل رجل أراه ويعجبني كأنه زوجي.

- لعلك تجدين في شخصي ما تبحثين عنه.

ضحكت ووضعت يدها على ركبته، ومضت تقول:

- هل تمنيتَ ذلك حقًّا؟ يزعمون أني أشطح كثيرًا في خيالي، على أنني -مع مرور الوقت- إذا وجدتُ رغبةً فيكَ سأدعوك حتمًا لزيارة «بيتي»، شقتي صغيرة مثلي، لكن لا تقلق، إنه بيت متين!

أزاح يدها عن ركبته، كانت يدًا غريبةً مرتبِكةَ الحركة، ثم أردف:

- كل شيء ممكن. والآن أريد معاينةَ هذا المكان.

لم يكد فابْيَان يبرح مكانه متلفتًا حتى وجد أمامه امرأةً سمينةً تقول له:

- سنبدأ الرقص حالًا.

كانت المرأة واقفةً أمامه، وقد بدت شقراء فارعة الطول، إنها أطول منه، أما تلك النحيفة ذات الشعر الأسود فقد غادرت المكان. أدار النادل الجرامافون فهبَّ الجميع واقفين، وبدؤوا الرقص.

تفحَّص فابْيَان المرأة الشقراء بعناية، لها وجه طفولي شاحب، وقد بدت متحفِّظةً وهي ترقص. مرت لحظات صامتة لم يعبأ بها فابْيَان، وما هي إلا دقائق قليلة حتى تبدَّل هذا الصمت إلى حديث عديم الجدوى، وبالفعل.. ما كادت قدمه تطأ قدمها وهما يرقصان حتى بدأت الحديث معه، أخبرته أن السيدتين اللتين تصافعتا منذ قليل ومزقت كل واحدة منهما ملابس صاحبتها- إنما كان شجارهما تنازعًا على أحد الرجال، واسترسلت تقول:

- إن السيدة زُومِر على عَلاقة بذلك القزم ذي الزي الأخضر، أما أنا فلا أجرؤ على أنْ أتخيَّل نفسي في مثل هذه العَلاقة الغرامية الغريبة! هل تريد البقاء هنا؟

همَّت بالذهاب فتبعها ومضى معها، أشارت إلى تاكسي يمر إلى جوار جسر كورفورستن، ووضَّحت له وجهتها، ثم أرغمت فابْيَان على الجلوس إلى جوارها، قال فابْيَان:

- لا أملك إلا ماركين فقط!

أجابته:

- لا مشكلة!

ثم صاحت في سائق التاكسي قائلةً: أطفئ النور!

مضى التاكسي إلى وجهته مُرتَجًّا في حركته السريعة، وقد عمَّهُ ظلام دامس، وعند أول منعطف ألقت بنفسها عليه وعضته من شفته السفلى، فارتطم صدغه بمفصل الباب، ورفع رأسه قائلًا:

- آهٍ! يا لها من بداية جيدة!

- كـن رابطًا الجأش قليلًا!

أمَرَتْه بالثبات، وأغدقت عليه حنانها، وباغتته بعطفها ودلالها، ثم فجأةً أُصيب فابْيَان بدوارٍ في رأسه ولم يستوعب كل ما يدور حوله، تأوَّه من ألم رأسه وقال لها:

- لقد أردتُ أن أكتب خطابًا قبل أنْ تَنْقضِي عليَّ.

لَكَمَتْهُ في عظمة الترقوة، وضحكت في جمود من دون أنْ تتغير قسمات وجهها، وكانت نبرات صوتها تتراوح ما بين علوٍّ وهبوط. حاول أن يتملَّص منها بلا جدوى، كانت ردود أفعالها عكس ما يتمناه تمامًا، ومع كل منعطف في الطريق تورط فابْيَان في مزيد من الملامسات معها، فمضى يتوسل -بلا جدوى- إلى الأقدار بألَّا تنعطف السيارة من جديد!

وأخيرًا توقفت السيارة، فأغرقتْ المرأة وجهها بمساحيق التجميل، ثم دفعت الأجرة لسائق التاكسي، وقالت لفابْيَان وهما على باب البيت:

- ابتداءً.. وجهكَ ملطَّخ بحُمرة طلاء الشفاه. وأخيرًا.. لا بد أن تأتي معي لنشرب الشاي معًا.

مسح أحمر الشفاه عن وجنتيه، وقال:

- يشرّفني عرضُكِ؛ لكن يتحتم عليَّ أن أكون موجودًا في المكتب غدًا من الصباح الباكر.

- لا تُـثِر غضبي، سوف تبيت الليلة معي، وفي صباح غدٍ سوف توقظك الخادمة.

- لكني لن أستيقظ! كما أنه يجب عليَّ أنْ أنام في شقتي، فأنا أنتظر برقية مهمة ستصلني في الساعة السابعة تمامًا صباح الغد، سوف تأتيني بها صاحبة البيت، وهي معتادة أن تهز جسدي بقوة حتى أفيق من نومي.

- ماذا؟! علمتَ الآن فقط أنك تنتظر تلك البرقية؟

- أنا أعلم ذلك من قبل، أعلم حتى فحوى تلك البرقية.

- وما فحواها إذًا؟

- سيكون مكتوبًا فيها «انهض من سريرك، صديقك المخلص.. فابْيَان. فابْيَان. إنه أنا».

غمرت فابْيَان فرحة عارمة وهو يختلس بطرفي عينيه نظراتٍ تمتد نحو أوراق الأشجار التي يتسلل من بينها ضوء أصفر شاحب ترسله المصابيح، وقد عمَّ السكون الشارع بأكمله، حتى القطة كانت تتمشى في هدوء تام من دون صوت. فتمنى لو كان في وسعه أن يمضي -هو الآخر- في هدوء عبر تلك المنازل الرمادية.

- قصة تلك البرقية التي تذكُرُها هي قصة زائفة، أليس كذلك؟

- بل صحيحة، غير أن حديثي عنها كان محض مصادفة.

مضت به إلى داخل البيت، ثم سألته مستنكرةً سلوكه الغريب:

- لماذا تأتي إذًا إلى النادي وأنت لا تقبل نتائج ذهابك إليه؟

- أعطاني أحدهم العنوان، وقد حداني فضولٌ عارم إلى معرفة ما في المكان.

- إذًا هيا! فهنا لا حدود للفضول.

قالتها، وقد أغلقت باب المصعد خلفهما.

الفصل الثاني

نساء في غاية التطفُّل

ليس عند المحامي أي مانع

التسول مَفْسَدة للطِّباع

تطلَّع فابْيَان في مرآة المصعد الكبيرة، ثم أخرج من جيبه منديلًا ومسح اللُّطَخ الحمراء المتناثرة على وجهه، وقال لها وقد لاحت رابطة عنقه المعوجَّة لناظريه في المرآة:

- هل تعلمين مَن ميجارا؟[1]

طوَّقته بذراعها وقالت:

- نعم أعلم، ولكني أجمل منها.

فتحت الخادمة باب الشقة، وقد لاحظ فابْيَان أن على الباب لافتةً صغيرةً مكتوبًا عليها «مول»، وما إن دلفا إلى داخل الشقة حتى قالت السيدة للخادمة:

- أحضري لنا الشاي.

---

(1) شخصية أدبية أسطورية وردت في الأدب الإغريقي القديم، كانت ابنة الملك كريون من طيبة. قدمها للزواج بهرقل امتنانًا لمساعدته في استعادة مملكة كريون من المينيين. (المترجمة)

- الشاي جاهز في غرفة حضرتك.

- حسنًا، لتمضِي أنتِ إلى فراشِكِ إذًا.

انصرفت الخادمة واختفت في الرَّدهة، وقد تبع فابْيَان المرأة الشقراء إلى غرفة النوم مباشرةً، وعندها قدمت له الشاي ووضعت أمامه الكونياك والسجائر قائلةً:

- تفضل!

- يا إلهي، إنكِ سريعة جدًّا! هل اسمك «مول»؟

- أجل، اسمي إيرينه مول؛ لا بأس.. كي يجد الحاصلون على شهادة إتمام المرحلة الثانوية شيئًا يسخرون منه[1]. اجلس، سوف أعود إليك سريعًا.

أمسك يديها محاولًا استبقاءها معه، ثم لثمها، لكنها مضت مسرعةً وهي تقول:

- قلت لكَ.. سيحدث كل شيء على مهل، أليس كذلك؟

ارتشف فابْيَان رشفات من فنجان الشاي، ثم نحَّاهُ منتقلًا إلى كأس الكونياك، وكان يجرعه وهو يتأمل أرجاء الغرفة، كان السرير منخفضًا وواسعًا، وضوء المصباح ينساب خافتًا، وكانت الجدران مكسوّةً بالمَرَائي. أعقب الكأس الأولى بكأس جديدة من الكونياك، ثم دلف إلى نافذة الغرفة التي لم تكن مطوَّقةً بحاجز حديدي شبكيٍّ

---

(1) Moll: من معاني الكلمة في الألمانية الشعبية «الفتاة المكتنزة». (المحرر)

كالمعتاد، وراح يقول لنفسه: «تُرى ما الذي تنوي تلك المرأة فعله معي؟».

كان فابْيَان في الثانية والثلاثين من عمره، وأنفق ليالي عمره الفائت في التجوال ليلًا، وها هي ذي الفرصة السانحة قد بدأت تداعب خياله وتثيره. شرب كأس الكونياك الثالثة، وفرك يديه بعضهما في بعض. كانت تراوده مشاعر مختلطة منذ فترة طويلة وكان يتعامل مع هذه المشاعر من البرّ دون الإيغال عميقًا. ولكن مَن أراد تجربة هذه الأشياء مِن كثب، فعليه أن يملكها بين يديه. لأنكَ لن تستطيع تجرِبتها من دون أن تكون ممتلكًا إياها بين يديكَ. فكان فابْيَان في هذه التجربة مثل طبيب جراح يُقْدِم على شقِّ روحِهِ.

- والآنَ.. حان موعد ذبحك أيها الشاب!

انساب إليه صوت المرأة الشقراء، وقد أقبلت عليه وهي ترتدي قميص نوم مصنوعًا من الدانتيل الأسود الشفاف. تراجع خطوة إلى الوراء، لكنَّها نادتهُ:

- مرحى!

ثم انقضَّت على رقبته تمطره بقبلات متتابعة بلا توقُّف، حتى اختلَّ توازنه وسقطا معًا على الأرض، وعندها سمع فابْيَان صوتًا غريبًا يأتيه من نفس الحجرة قائلًا:

- إنها امرأة بشعة، أليس كذلك؟

استدار فابْيَان نحو مصدر الصوت مدهوشًا، فطالعَ رجلًا نحيفًا، ضخم الأنف، يرتدي سترةَ النوم، وهو يقف متكئًا على باب الغرفة ويتثاءب، فسأله فابْيَان:

- ماذا تفعل هنا؟

- عفوًا سيِّدي.. لم أعلم أنك دلفت إلى الغرفة بالفعل مع زوجتي.

- مع زوجتك؟

تمادى الرجل في تثاؤبه، وأومأ إلى زوجته معاتبًا إياها في يأسٍ وقنوط:

- إيرينه.. أهكذا على السجادة؟! أيصحُّ أن تتركي الرجل مطروحًا على الأرض بهذه الطريقة؟ هذا لا يليق أبدًا، لقد كنتُ نائمًا في راحةٍ وهدوءٍ حتى جئتِ به وأيقظتِني، ثم.. ثم.. ألم يكن من الأليق -اجتماعيًّا على الأقل- أن تُطلعيني على (بضاعتك الجديدة)؟! قدميني إليه.. عرفيني به! اسمي مول يا سيدي، وأعمل محاميًا، فضلًا على كوني زوجًا لتلك السيدة التي تعتليك!

أزاح فابْيَان المرأة الشقراء من فوقه، وهبَّ واقفًا، ثم صفَّف شعره بيديه وهو يقول:

- هل تحتفظ زوجتك في حرملك للرجال؟ اسمي فابْيَان.

توجَّه الزوج مول إلى فابْيَان، ومد إليه يده مصافحًا وهو يقول:

- سعيد أني تعرفت إلى شابٍّ لطيف مثلك، سِيَّان عندي أن تكون المناسبة التي تقابلنا فيها عاديةً أو غريبة. هذه وجهة نظري. ولكي تهدِّئ من روعكَ، ولكي تهدأ تمامًا أودُّ أنْ أخبرك بكوني قد اعتدت هذا الوضع. من فضلك.. اجلسْ.

ألقى فابْيَان جسده على الكرسي، وقد جلست إيرينه مول إلى جواره مستندةً إلى ذراع الكرسي، وطفقت تداعب فابْيَان وتتحسَّس جسده وهي تقول لزوجها:

- ألا يعجبك؟ إذا لم يعجبك فسوف أقطع صلتي به فورًا.

أجابها الزوجُ المحامي:

- بلى، إنه يعجبني.

كان فابْيَان مصعوقًا مما يدور حوله، فقال:

- إنكما تتحدثان عني كما لو كنت قطعة كعك، أو زلَّاجة سباق.

ضمَّت الشقراء رأسه إلى صدرها المحجوب وراء قماش الدانتيل الأسود، ضمَّته إلى صدرها بقوة وهي تقول:

- أجل يا صغيري أنت زلَّاجة.

صاح فابْيَان قائلًا:

- يا لَلْهول! اتركيني وشأني!

تدخَّل زوجها قائلًا:

- عزيزتي إيرينه، يجب ألَّا تُغضبي الزائر، سوف آخذه معي إلى غرفة المكتب، وأفسِّر له كل ما ينبغي له أنْ يعلمه، لا تنسَي يا عزيزتي أنَّ هذا الأمر برمته غريب عليه، سأرسله إليكِ بمجرد أن أفرغ من محاورته. تصبحين على خير.

ثم مدَّ المحامي يده إلى زوجته مصافحًا إياها، ومن ثمَّ صعدت إلى سريرها المنخفض، واستلقت عليه حزينةً، ثم أجابت زوجها وهي تتقلب بين الوسائد:

- تصبح على خير يا مول. أتمنى لكَ أحلامًا سعيدةً، لكن من فضلك لا تُطل الحديث معه، ما زلتُ أحتاج إليه بشدة هذه الليلة.

- أجل أجل.. لا تقلقي.

مضى الزوجُ المحامي مول بالزائر إلى غرفة المكتب، ثم أشعل سيجارةً وقد ارتعد جسده، فألقى فوق ركبتيه غطاءً مصنوعًا من جلد الجمل، وراح يُقلِّب أوراقًا تضمَّنها ملف مطروح بين يديه، فبدأ فابْيَان الكلام قائلًا:

- الأمر برمته لا يهمني البتَّة، على أن ذلك الذي تقدمه عن طريق زوجتك إنما هو أمر لا يُحتمل، هل اعتدت دائمًا أن تنهض من سريرك كي تُحصِل النقود من عُشاقها؟

- يحدث ذلك بالفعل في أحيانٍ كثيرة يا سيدي، ولقد سمحت لنفسي بمعاينة الرجال الذين يضاجعون زوجتي وتقييمهم، لا تنزعج.. إنه حق من حقوقي المضمونة التي نصَّ عليها عقد أبرمناه بعد مرور السنة الأولى من زواجنا، فقد اتفقنا في الفقرة الرابعة منه على الآتي: «تتعهد السيدة مول -الطرف الثاني في العقد- بإحضار كل رجل توَدُّ أن تقيم معه علاقة حميمية إلى الطرف الأول زوجها السيِّد الدكتور فليكس مول، وفي حال عدم موافقته على الرجل المُرادة إقامة العَلاقة معه يتوجَب -إذًا- على السيّدة مول في الحال التخلي عن هذه العلاقة، وفي حال مخالفتها لنص هذا العقد تكون العقوبة «تقليص المصروف الشهري للمنزل إلى النصف»».

ثم أخرج السيد مول من درج المكتب ورقةً وقال:

- نص هذا العقد شائق جدًّا، هل تودُّ أن أقرأه لك بالتفصيل؟

- لا داعي إلى ذلك، لا تُتعِب نفسك، فقط كل ما أريد معرفته هو.. ما الذي دعاك إلى كتابة مثل هذا العَقْد؟

- راوَدَتْ زوجتي أحلامٌ مفزعة.

- ماذا؟

- كانت تحلُم. حلمَتْ بأضغاث أحلام. كان من الواضح أنَّ احتياجاتها الجنسية تتزايد طرديًا مع طول فترة الزواج، وهكذا تنامت رغباتها الغريبة التي ليس في وسعك يا سيدي

أن تتصورها؛ لقد تركتُ لها الحبلَ على الغارب، فما كان منها إلا أن كدَّست غرفةَ نومها تارةً بالصينيين، وتارةً أخرى بالمـُصارعين، فضلًا على الراقصات! وماذا في وسعي أن أفعل بعد أن كان منها هذا كله؟ لم يكن مِن خلاص إلا بإبرام هذا العقد بيننا.

سأله فابْيَان وهو لا يطيق صبرًا على الانتظار:

- ألا ترى أنه كان من الأفضل إبرام أيِّ اتفاق آخر أنجح وأنسب لك من هذا العقد؟

اعتدل المحامي في جِلسته، وتساءل قائلًا:

- أعطني مثالًا لذلك الذي تراه يا سيدي!

ثم أردف صائحًا في ثورة جامحة:

- إيرينه امرأة جامحة قوية للغاية يا سيدي، أنت عاجز تمامًا عن تصوُّر ذلك.

أعقب مول ثورته الجامحة بانتكاسة حزينةٍ أحنت رأسه، فما كان من فابْيَان إلا أن تناول قرنفلةً بيضاء من الزَّهرية التي على المكتب وغرزها في عروة المعطف، ثم هبَّ واقفًا، وراح فقط يجول في أنحاء الغرفة وهو يطالع الصور المعلّقة على الجدران، ويعدّل المعوجَّ منها لتكون جميعها في وضع مستقيم، قال فابْيَان لنفسه.. «من يدري، لعل لحظاتٍ غابرةً من السعادة كانت قد مرت على هذا الكهل النحيف حينما كانت زوجته تُجلِسه في السابق على ركبتيها».

ثم صوَّب فابْيَان وجهه نحو الكهل قائلًا:

- أريد أن أذهب من هنا، أعطني مفتاح البيت.

سأله مول متوجسًا:

- حقًّا؟ هل هذا ما تريد؟ ولكنها تنتظرك! من فضلك ابق هنا! سوف تفقد السيطرة على نفسها حينما تعلم أنك ذهبت من هنا من دون مضاجعتها، سوف تظن أنني أنا الذي طردتك من هنا، ابق من فضلك! لقد سُرِرتُ جدًّا لوجودكَ معها هنا، اقتنص إذًا لحظات السعادة معها واستمتع بها!

هبَّ المحامي من مكانه وأمسك فابْيَان قائلًا:

- ابقَ من فضلك! لن تندم وستأتي إلى هنا مرةً أخرى حتى تصير صديقًا لنا، فأنا أعلم أنك ستحافظ على إيرينه، وأنك شخص مؤتمن. اصنع لي هذا المعروف من فضلك.

- هل في وسعك أن تضمن لي دخلًا شهريًا إذا ما استجبتُ لمطلبك؟

- دعنا نتشاور حول هذا الأمر يا سيدي، فليس لديَّ مانع.

- بل أعطني مفتاح البيت، فأنا لا أريد أن أتفق معك بشأن هذا المنصب.

زفر الدكتور مول زفرةً حزينةً، ثم انحنى على المكتب والتقط المفتاح، وأعطاه لفابْيَان وهو يقول:

- خسارة! لقد كان انطباعي عنك منذ الوهلة الأولى أنك إنسان رقيق الطباع، احتفِظ بالمفتاح لعدة أيام، وفكِر في الأمر؛ لعلّك تعود إلى صوابك، سأسعد لرؤيتك مرةً أخرى على كل حال.

همهم فابْيَان بصوتٍ منخفض:

- تصبح على خير.

مضى بهدوء إلى الردهة، والتقط معطفه وقبعته، ومن ثمَّ فتح الباب، ثم أغلقه من الخارج بحذرٍ شديد، وعندها راح يقفز على درجات السلم مسرعًا، وعندما وطئت قدماه أرض الشارع تنفس الصعداء، وهزَّ رأسه في ارتياح. ها هم المارَّة يتنزهون في الشوارع من دون أن يجول في خاطرهم شيء ممَّا يدور في ذلك العالم المجنون الذي تحجبه عنهم جدران البيوت وأسوارها، أي نعمة هائلة تلك التي ينالها المرء حين يكتفي بموقع المراقب الخارجي لما يحدث وراء تلك الجدران من دون أن يتورَّط في مكابدة كونه فاعلًا لبعض ما يجري وراءها من أحداث فظيعة!

ألم يقل فابْيَان لتلك السيدة الشقراء «إني فضوليٌّ للغاية» ؟ لماذا -إذًا- يفر منها عوضًا عن إشباع ذلك الفضول بقضاء الليلة مع السيّد مول وزوجته؟ لقد أنفق في سبيل إشباع ذلك الفضول ثلاثين ماركًا، لم يبق منها الآن سوى اثنين فقط في جيبه، حتى طعام العشاء لم يتناول منه شيئًا!

مضى فابْيَان في طريقه مُطلقًا من بين شفتيه صفيرًا عابثًا، وقادته خطواته إلى طرق طويلة ممتدة لا يعرف لها اسمًا، طرق تحفُّها أشجار متشابكة الأغصان من كل الجوانب، فتطويها في ظلمات كثيفة! وهكذا ساقته قدماه أخيرًا أمام محطة قطار هيرشتراسه، ركب حتى حديقة الحيوان، ثم غيَّر الطريق هناك وركب المترو حتى وصل إلى فتتينبرجبلاتس، ومن هناك استطاع أن يصل إلى شبشرنشتراسه، ها قد تحرر تمامًا من تلك القيعان الدنسة.

ذهب إلى مقهاهُ المعتاد، فلم يجد صديقه الدكتور لَابُوْدَه، إذ إن لَابُوْدَه قد انصرف بعد أن امتد انتظاره حتى الساعة الحادية عشرة، وهكذا وجد فابْيَان نفسه وحيدًا على مقهاه. طلب قهوةً وأشعل سيجارةً.

سأله صاحبِ المقهى السيّد كوفالسكي عن حاله، فأجابه فابْيَان بأن شيئًا مضحكًا قد حدث هذا المساء، فضحك كوفالسكي حتى شوهد بريق طاقم أسنانه الصناعية، وقال:

- لقد لاحظ هذا الأمر النادل نَيتِنفور؛ فهناك إلى تلك المائدة المستديرة جلس رجل وزوجته، كانا يتحدثان معًا بطريقة رائعة ومهذبة للغاية، وكانت يدا المرأة الجميلة تداعبان يد زوجها، وأشعلت له سيجارةً، وكانا في حالة هُيام لم نعتد لها مثيلًا هنا.

- هذا أمرٌ ليس مضحكًا.

- انتظِر يا سيد فابْيَان! لم أكمل لك الحكاية، لقد غازلَتِ السيِّدة الجميلة - في الوقت ذاته- الرجل الذي كان يجلس إلى الطاولة المجاورة، و يا لها من طريقة! ناداني نَيتِنفور كي أرى ذلك بنفسي، وانتهى الأمر عندما أعطاها ورقةً قرأتها وأومأت إليه برأسها، ثم كتبت هي الأخرى ورقةً صغيرةً ورمتها على طاولته، لقد حدث هذا كله وهي تتحدث مع زوجها الذي يجلس معها على نفس الطاولة، كانت تخونه وهو سعيد للغاية بحكايات تُسَامِره بها! لقد رأيت في حياتي نساءً بارعات كثيرات، ولكن هذه المرأة فاقت الجميع وتغلّبت عليهنَّ!

- ولماذا لم يعترض على فعلتها وتركها تغازل الآخر؟

- لحظةً من فضلك يا سيد فابْيَان، سأوضح لك النكتة في الموقف حالًا، لقد تعجبنا نحن أيضًا من موقفه تجاهَ ما يحدث على طاولته، لماذا يسمح بذلك كله؟! لماذا يجلس سعيدًا هادئًا بجوارها وهو يربت بيديه على كتفيها فيما هي تومئ برأسها إلى الرجل الآخر، وتتبادل معه الإشارات والهمسات؟ لقد اقترب منهما نَيتِنفور لأنهما أرادا دفع الحساب...

رفع السيِّد كوالفسكي رأسه الضخمَ واستأنفَ الحديثَ ضاحكًا بصوتٍ عالٍ:

- هل تعلم سر سعادة جليسها.. ذلك الرجل المخدوع؟ لقد كان جليسها أعمى!

انحنى صاحب المقهى ومضى وهو يضحك بصوتٍ عالٍ، ورمقه فابْيَان متعجِّبًا؛ فقد بدا له جليًّا إلى أيِّ منحًى تتطور البشرية.

سُمعت ضجةٌ، وتداعى صوتٌ عالٍ عند الباب؛ حيث انشغل نَيتِنفور ومساعده بطرد رجلٍ رثِّ الثياب، صرخ نَيتِنفور:

- اذهب من هنا على الفور، إنه لشيءٌ مقزز حقًّا أن يتكالب علينا المتسولون هنا طول النهار.

جرَّ النادلُ المساعدُ لنَيتِنفور الرجل الذي بدا شاحبًا ولم يتفوَّه بأيِّ كلمة، فيما انتفض فابْيَان وهب من مكانه واقفًا، ثم أسرع إلى النادِلين وصاح فيهما:

- اتركا الرجل!

أطاعه النادلان على الفور من دون أدنى اعتراض، فما كان من فابْيَان إلا أن مد يده مصافحًا ذلك المتسول وهو يقول له:

- مكانك هنا في الداخل، أنا آسف جدًّا لإهانتك بهذا الشكل هنا، في وسعك أنْ تجلس معي على طاولتي.

اصطحب فابْيَان الرجل المدهوش من تصرفه إلى داخل المقهى وطلب أنْ يجلس ثم سأله:

- ماذا تريد أنْ تأكل؟ هل تريد كأسًا من الجعة؟

ردَّ عليه الشَّحَّاذ قائلًا:

- أنت لطيف جدًّا.

- أنا لن أُوذيك. هذه قائمة الطعام. اختر منها شيئًا من فضلك!

- لا.. لا.. لن يُسمح لي بذلك، سوف يجرُّونني عن الطاولة ويطردونني إلى الخارج.

- لن يستطيع أحد أنْ يفعل ذلك. تماسك وثق بنفسك! اعتدل واجلس على الكرسي بكل أريحية، ليس من المعقول أبدًا ألَّا يُسمحَ لك بالجلوس هنا وتناول الطعام لمجرد كون معطفك مُرقَّعًا، ولكوننا نسمع قرقرةَ معدتك الجائعة، أنت الجاني على نفسك لأنك سمحت لهم بطردك!

- عندما تظلَ عاطلًا طوال عامين كاملين سترى الأمر بصورة مختلفة، ذلك ما لا شك فيه. هل تعلم أنني أنام في النُزُل المخصص لأمثالي، وتدفع لي الشؤون الاجتماعية عشرة ماركات فقط! ولذا فمعدتي الجائعة تؤلمني دائمًا.

- ماذا كنتَ تعمل؟

- كنت موظفًا في البنك، لو تذكَّرت بشكلٍ صحيح، كما أني أيضًا حُبست فترةً في السجن، الشيء الوحيد الذي لم أجرِّبه هو الانتحار، ولكن هذا أمر ممكن التنفيذ على أي حال!

كان الرجل قد أفضى إلى فابْيَان بأوجاعه وهو جالس على حافة الكرسيّ، وكانت يداه المتسختانِ ترتعدان خجلًا وهو يحاول أن يحجب بهما منظر القميص القذر البالي الذي يتراءى من فتحة معطفه. لم يعرف فابْيَان ما يمكن أن يقال لمواساة مثل هذا الرجل، حاول صوغ عدة جملٍ في رأسه قبل أنْ يتفوَّه بها، ولكنه لم يفلح في

ذلك، تفلّتت منه الكلمات، وتلاشت الحروف؛ لكنه انتفض فجأةً وهو يقول لجليسه:

- لحظة من فضلك، النادل غير موجود الآن، إنه مشغول بمهمة أخرى.

ذهب فابْيَان إلى البوفيه، وطلب الحديث مع رئيس قسم الخدمة، أمسكه من ذراعه وسحبه نحو المقهى، فيما خرج الشحّاذ من المقهى واختفى.

- اسمع ما أقوله لك.. سوف أدفع غدًا.

أنهى فابْيَان مفاوضته، ثم اتجه إلى خارج المقهى ليبحث عن الشحّاذ؛ لكنه كان قد اختفى تمامًا، سأله رجل يقف هناك:

- عمّن تبحث؟

نظر فابْيَان إليه وقال:

- مُونتْسَر؟! أنتَ المحرر مُونتْسَر؟

أغلق مُونتْسَر أزرار معطفه ثم أشعل سيجارة وقال:

- هراء! كان عليَّ أنْ أكسب اللعبة بسهولة، لقد لعب شمالناور مثل رينوزيروس؛ لكن يجب أن أذهب لفترة الخدمة المسائية، الشعب الألماني يريد أنْ يعرف غدًا كم عدد الحرائق التي تحدث بسبب دعامات السقف والناس نيام...

وتساءل فابْيَان:

- هل حضرتك محرر سياسي؟

تابع مُونتْسَر حديثه:

- حرائق السقف موجودة في كل مكان، خاصةً في جُنح الظلام، من المؤكد أن السبب في ذلك هو طريقة تركيب دعائم السقف بلا دقة وإتقان، تعال معي وانظر بنفسك إلى السيرك الذي نعمل فيه.

اصطحب المحرر مُونتْسَر فابْيَان معه، وأجلسه إلى جواره في سيارته الصغيرة، تساءل فابْيَان:

- منذ متى تمتلك سيارة؟

- اشتريتها من محرر الأخبار الاقتصادية، لقد استغنى عنها عندما صارت تكاليفها باهظة بالنسبة إليه، كان يعتبرها سيارة ثمينة، وكم كان يغضب إذا سُمح لي بركوبها والجلوس فيها إلى جواره! بالمناسبة.. هل تعلم أنك معي في السيارة الآن على مسؤوليتك الشخصية؟ إذا ما حدث حادث وأصابك مكروه فسيكون عليك دفع تكاليف العلاج.

ثم انطلقا معًا يجوبان الشارع بالسيارة.

الفصل الثالث

أربعةَ عشرَ قتيلًا في مدينة كالكوتّا

من الصحيح أن تقترف خطأً
الحلزونات تزحف في دوائر

كانت الردهة فارغةً، وفي غرفة محرر الأخبار الاقتصادية الضوء مشتعل والباب مفتوح، ولم يكن أحدٌ فيها. قال مُونتْسَر مُتجهِّمًا:

- خسارة أنَّ مَالْمِي لا يزال في البيت، لم ير سيارته مجددًا. لحظةً.. فلتصغ معي إلى ما يحدث في تاريخ العالم.

فتح مُونتْسَر الباب على مصراعيه، فتعالت أصوات النقر على أزرار مَكِنات الآلات الكتابة، وتسلَّلت في أنحاء الغرفة أصوات متداعية من كبائن التليفون المُصطفَّة بعضها بجانب بعض على أحد جدران الغرفة، كأنها آتية من فضاءٍ بعيدٍ. صاح مُونتْسَر متسائلًا وسط كل هذا الضجيج:

- هل يوجد شيء مهم؟

أجابته إحدى السيدات:

- إنها كلمة مستشار الرايخ.

- أجل. أحضر لي أيها الشاب الصفحة الأولى كاملةً بكل التفاصيل فوق هذه الكومة، هل عندكم النص كاملًا؟

- لا.. لكن السطر الثاني يضمُّ الثلث الثاني منها.

- إذًا أحضره إليَّ على الفور من حجرة الآلة الكاتبة!

أعطى المحرر مُونتْسَر أوامره، ثم أغلق الباب، ورافق فابْيَان إلى غرف التحرير السياسي، ثم أشار إلى المكتب قائلًا له:

- هل ترى هذه المفاجأة؟ إنه زلزال من الورق.

نبش في كومة التقارير الواردة، قصَّ بعضها بمقصٍّ ووضعه جانبًا، ثم رمى الباقي في سلة المهملات وهو يهمهم:

- والآن إلى سلة المهملات سريعًا.

قرع مُونتْسَر الجرس، فمثل بين يديه أحد السُعاة، سألَهُ إحضارَ زجاجة نبيذ من نوع موزل وكأسين، ثم دفع له الحساب، وعند خروج الساعي من باب الغرفة اصطدم بشابٍ مضطرب أراد أنْ يدلف إلى الغرفة سريعًا، قال الشاب وهو يجتهد في كتم أنفاسه المتلاحقة:

- لقد اتصل بي المُدير حالًا، وقد أصدر تعليماته بأن أحذف خمسة أسطر من الكلمة الافتتاحية، من المفترض أن تحل محلها آخر الأنباء، بعد أن أمرتُهم بحذف تلك الأسطر الخمسة.

أجابه مُونتْسَر:

- يا لك من ماهر! كأنما أنت صاحب سبع صنائع! أودُّ أنْ أوضح لك أيضًا يا سيد فابْيَان أنني أتنبأ للدكتور إرجانْج بمستقبلٍ

باهر، أمّا اسم إرجانْج -الذي أدعوه به الآن- فهو اسم غير حقيقي يا سيّد فابْيان.

قاطعه السيّد إرجانْج قائلًا:

- أمّا الآن فيوجد في العمود مكانٌ يتسع لخمسة أسطر أُخَر.

سأله مُونتْسَر:

- ماذا الذي يتوجّب علينا فعله إذًا في مثل هذه الحالة الاستثنائية؟

- بالطبع يتحتّم ملء فراغ العمود.

أومأ مُونتْسَر برأسه وهو ينبش في كومة المُسوَّدات بين يديه، ثم قال ساخرًا:

- ألا يوجد شيء جاهز؟ هذا وقتٌ كاسد خامل، نفدت فيه العناوين الصحفية المثيرة اللافتة.

ومضى مُونتْسَر يتابع البحث في ما حوله من تقارير وضعت إلى جانب المكتب، وهو يهزُّ رأسه نافيًا وجود شيء جديد، فقال الشاب:

- لعل أخبارًا جديدةً تأتينا فننتفعَ بها.

أجابه مُونتْسَر:

- حري بالمرء أنْ يكون قديسًا عموديًا[1]، أو مُتحَفَّظًا عليه قيد الحبس الاحتياطي، أو حتى إنسانًا يملك متسعًا من الوقت

---

(1) نوع من الزهد المسيحي شاع في القرون الأولى. كان الراهب يرتقي عمودًا شاهق الارتفاع ويعيش فوقه طوال حياته، مبتعدًا عن مخالطة البشر وناظرًا إليهم من بعيد. (المحرر)

دومًا. على أي حالٍ عندما يحتاج المرء إلى أخبار ولا يجد شيئًا فعليه اختلاق الأخبار.

جلس مُونتْسَر وكتب في عجالةٍ بعض الأسطر بدون أنْ يفكر، وأعطى الورقة للشاب قائلًا:

- هاكَ الخبر، اذهب فورًا يا مَن تملأ الأعمدة الصحفية، وإنْ لم تكفِكم هذه الأسطر فلتضاعف المساحة الفارغة بين الأسطر.

قرأ السيّد إِرجانْج ما كتبه مُونتْسَر وقال في هدوء:

- يا إلهنا القدير!

وسقط جالسًا على أريكةٍ تتناثر فوقها أكوام من المجلات الأجنبية، تداعى جسده فوق الأريكة فجأةً كأنما ألمت به وعكة، وعندئذٍ انحنى فابْيَان نحو الورقة التي كانت ترتعد بين يدي إِرجانْج، وراح يقرأ ما تضمنته: «اندلاع قتال عنيف في شوارع كالكوتّا بين المسلمين والهندوس، وقد سقط خلال هذه المجزرة أربعة عشر قتيلًا، وأصيب فيها اثنان وعشرون مصابًا؛ على أنَّ الشرطة كانت قد تدخلت سريعًا، وفرضت سيطرتها على الموقف، وسرعان ما عمَّ الهدوء مجددًا في الشارع».

دلف إلى الغرفة عجوز متثاقل الخطى يجرُّ قدميه في خُفٍّ منزلي، وضع عدة أوراق أمام مُونتْسَر، ثم همْهَمَ:

- خطاب المستشار ما زال مستمرًّا، والنهاية ستصل إلى حضرتك خلال عشر دقائق.

غادر العجوز المكان منسحبًا، فيما ألصق مُونتْسَر الورقات الست التي سُجِّلت عليها كلمة المستشار بعضهن ببعض، فبدت الأوراق في هيئتها الجديدة كأنما هي لوحة نصيّة أثرية قادمة من العصور الوسطى، ومن ثم شرع في تحرير وتعديل النص، ورمق إرجانْج بنظرة من جانب عينيه قائلًا:

- أسرع يا جيني.

أجابه إرجانْج باشمئزار:

- ولكن لم تَجْرِ مصادمات في كالكوتا!

ثم نكّس رأسه إلى أسفل وتمتم مذهولًا:

- أربعة عشر قتيلًا!

سأله مُونتْسَر بنبرة مستاءةٍ:

- لم تكن مصادمات هناك؟ هل تريد أولًا أنْ تبرهن لي على وجودها؟ توجد دائمًا أعمال شغب في كالكوتا، هل ينبغي مثلًا أنْ ننشر خبرًا مُفاده أنَّ ثُعبان البحر ظهر مجددًا في المحيط الهادئ؟ ضع في اعتبارك دومًا أنَّ الأخبار التي يَثْبُت زيْفها وبطلانها إنما تغدو بعد أسابيع قليلة أخبارًا حقيقيةً، والآن امض من هنا بسرعة البرق؛ وإلا سآمرهم بتمزيقك إرْبًا وتوزيعكَ مع الطبعة الخاصة ببرلين!

خرج الشاب من الغرفة واختفى عن أنظار الجميع، وبقي مُونتْسَر متذمِّرًا مما قاله هذا الشاب: هتف قائلًا:

- مثل هذا وأمثاله يريدون أنْ يصبحوا صحفيين؟!

ثم تابع شطب الكلمات والأحرف بقلمه الأزرق من خطاب مستشار الرايخ وهو يزفر بضيق:

- يحتاج هذا الشاب إلى مُدرس خاص يعلمه صوغ الأخبار اليومية، يا للأسف ليس لدينا هذه الإمكانية!

وتساءل فابْيَان قائلًا:

- هل تريد إذًا أن تقول إنَّ أربعة عشر هنديًّا قد لقوا حتفهم، وإنَّ اثنين وعشرين مصابًا قد نُقلوا إلى المستشفى الحكومي في كالكوتا؟ تريد أن تقول هذا الأمر هكذا بكل سهولة، وبدون أن تواجه أي صعوبات؟

واصل مُونتْسَر حذف بعض الكلمات وتعديل البعض الآخر في خطاب مستشار الرايخ، ثم أردف قائلًا:

- ماذا تريدني أن أفعل؟ لا تقلق، فهؤلاء الأشخاص الستة وثلاثون الذين ذكرناهم في الخبر جميعهم أحياء يُرزقون وأصحاء. صدقني يا عزيزي.. ما نضيفه نحن إلى الخبر ليس دائمًا سيئًا، وإنما السيئ بالفعل هو ما نحذفه من الأخبار.

ثم واصل تعديل خطاب مستشار الرايخ، وحذف نصف صفحة كاملة من النص الأصلي، وأردف يقول:

- يُعتبر التقرير الإخباري أكثر فاعليةً للتأثير في الرأي العام من الخطاب نفسه، بَيْدَ أنَّ الطريقة المُثلى هي ألَا تذكر لا التقرير

ولا المقال؛ الأكثر راحةً وسهولةً للرأي العام هو انعدام الرأي العام نفسه.

ردَّ فابْيَان قائلًا:

- لتتوقَّفْ إذًا عن إصدار الجريدة!

فأجابه مُونتْسَر:

- أتوقَّف عن إصدار الجريدة؟ ومن أين نعيش إذًا؟ ماذا كان يجب علينا فعله غير ذلك؟

ثم دلف الساعي إلى الغرفة مرتديًا زيَّه الرسمي، وحاملًا زجاجة النبيذ والكأسين، صبَّ مُونتْسَر النبيذ ثم رفع هو كأسه وصاح:

- فليبقَ الأربعة عشر قتيلًا على قيد الحياة.

أخذ رشفةً من كأسه، وأكبَّ على خطاب المستشار يتابع عمله، وهو يقول لفابْيَان:

- يا له من هُراء يتفوه به من جديد رئيس دولتنا المبُجَّل! إن ما أقرؤه الآن ليس إلا موضوع تعبير كتبه تلميذ صغير! يقول فيه «ستسقط ألمانيا في قاع المحيط»؛ لو كتب هذا المقال طالبٌ في مرحلة الإعدادية فلن يحصل مني إلا على ثلاث درجات!

ثم التفت نحو فابْيَان وسأله:

- أيَّ عنوان يمكن أنْ نختاره لهذا المقال الفُكاهي؟

وجاءه جواب فابْيَان في لهجة الساخر المُستنكر:

- أُفضِّل أنْ أعرف ما ستكتبه أنت تحت هذا المقال؟

رشف مُونتْسَر رشفة جديدةً من كأس النبيذ، احتفظ ببعضها في فمه، تلمَّظها بين شدقيه للحظات قليلة، ثم ابتلعها في جوفه، وعندها أجاب فابْيَان:

- ولا مقطع، ولا حتى كلمة واحدة، إن لدينا تعليمات مُشدَّدة بألا نطعن الحكومة في ظهرها، فلو كتبنا يومًا ما شيئًا ضدها فهذا سيكون في المقام الأول ضدنا نحن، وإذا اتَّبعنا سياسة الصمت فسيكون هذا مفيدًا للحكومة، ولنا.

هتف فابْيَان:

- لديَّ اقتراحٌ، ما رأيك لو كتبتَ لصالح الحكومة إذًا؟

- كلا، نحن نحترم أنفسنا.

وقف على عتبة الباب رجلٌ أنيقٌ نحيفٌ، أومأ برأسه، ثم دلف إلى داخل الغرفة، فأجابه مُونتْسَر:

- أهلًا مَالْمِي.

شَخَصَ المحرر التجاري مَالْمِي ببصره تجاه فابْيَان، وخاطبه قائلًا:

- يجب ألَّا تستاء مما يفعله؛ فهو يعمل صحفيًّا منذ عشرين عامًا، ويصدِّق بالفعل كل ما يختلقه من أكاذيب، لقد مات

ضميره، وفوق هذا الضمير الميت ينام السيِّد مُونتْسَر نفسه، إنه نوم الظالم.

أحضر الساعي العجوز مرةً أخرى كومة أوراق مكتوبة على الآلة الكاتبة، ومن ثمَّ تابع مُونتْسَر لصق الأوراق الجديدة بالغراء في ما سبقها مكملًا اللوحة المكتوب عليها «خطاب مستشار الرايخ»، ثم واصل تحرير النص وإعادة صوغه؛ فيما تطلع فابْيَان إلى المحرر مَالْمِي قائلًا:

- أنت ترفض وتُدين إذًا هذه اللا مبالاة من زميلك؟ فما الذي كنت ستفعله أنت -إذًا- إن لم تفعل الشيء ذاته؟

ابتسم محرر الأخبار الاقتصادية وأردف:

- سأكذب أنا أيضًا؛ ولكني أعلم أن هذا النظام خاطئ، وهذا أمرٌ يراه الأعمى في قسم الشؤون الاقتصادية؛ إلا أني أخدم هذا النظام الفاسد بكل ولاء وخضوع، وأنا أصنع ذلك لأن هذا النظام الفاشل الذي جعلتُ موهبتي المتواضعة خاضعةً إلى سطوته إنما يرى هذه الإجراءات الخاطئة سليمةً، وهذا أمرٌ طبيعي، أمّا الإجراءات الصحيحة التي يجب أنْ تُتخَذ فهي -من وجهة نظره- خاطئة بطبيعة الحال. أنا من مؤيدي المثابرة الحديدية، وعلاوة على ذلك فأنا...

رمى مُونتْسَر الورقة من دون أنْ يقرأ ما فيها، ورفع مَالْمِي كتفيه وقال:

- أردت أنْ أقول.. أقول. أنا جبان، هذا هو الوصف الدقيق، لم تتطور شخصيتي بأيِّ حال لتتلاءم مع مستواي العقلي، يؤسفني ذلك جدًّا، ولكني لنْ أفعل شيئًا تجاه هذا الوضع.

دخل الدكتور الشاب إرجانْج، وتحاور مع مُونتْسَر حول الأخبار التي يجب حذفها من الصحيفة، وما سوف يُستَبقى منها للنشر في النسخة المحلية:

- لقد نشب في الحقيقة حريقان فقط في سَقْفَيْ بيتين لا غير، وعلى جانب آخر.. اختفى بعض الكلمات المبهمة التي تستخدمها الأقلية الألمانية في بولندا، إضافةً إلى ذلك فقد شهدت اختبارات مديري وكالة المُشتريات الاتحادية تحوُّلًا جذريًّا...

قاطعه مُونتْسَر متسائلًا:

- أيَّ عنوان سنضعه لخطاب المستشار؟ هيا أيها السادة، سوف أصرف (عشرة بْفِينْجات) لكل عنوان جيد؛ ولكن يجب أن يُصاغ العنوان في جملة واحدة. هيا يا سادة؛ لو تأخرنا في صياغة العمود فسوف يتشاجر معنا كاتبو الآلة الكاتبة.

أمعن الشاب إرجانْج في التفكير، وأعمل عقله جاهدًا حتى تصبَّب عرقًا، ثم اقترح عنوانه:

- «المستشار يطلب تجديد الثقة».

أجابه مُونتْسَر:

- عنوان معقول، لتأخذ لنفسك -إذًا- كأسًا، ولتكن لك وحدك أول رشفة تُرتَشف من هذا النبيذ.

التقط الشاب كأسًا، ونفَّذ ما قاله مُونتْسَر؛ كأنما هو أمر رسميٌّ موجَّهٌ إليه، وفي هذه اللحظة قال مَالْمِي:

- هاك عنوانًا آخرَ.. «إما ألمانيا.. وإما أزمة قلبية»، ما رأيك؟

بادره المحرر السياسي مُونتْسَر قائلًا في غضب:

- لا تتفوه مرة ثانية بهذا الهُراء!

ثم تناول مُونتْسَر قلمًا أزرقَ، وكتب بالخط الكبير عنوانًا في أول سطر من المخطوط، وجمع نقوده من فوق المكتب قائلًا:

- أنا مَن وضع العنوان، إذًا فهذه الأموال تخصني وحدي.

سأله فابْيَان:

- ما الذي كتبته إذًا؟

ضغط مُونتْسَر على زر الجرس ثم قال بنبرة مثيرة للشفقة:

- كتبتُ «التفاؤل واجب، هكذا يقول المستشار!».

أحضر الساعي أوراقًا جديدةً، في اللحظة نفسها قلَّب المحرر التجاري مالمي في حقيبته بحثًا عن مال، ثم أخرج منها عشرة بْفِينْجات، ووضعها على المكتب من دون أنْ يهمس همسةً واحدةً؛ فرمقه زميله مدهوشًا مما صنع، فإذا بمالي يقول:

- سوف أبدأ معكم هذه اللعبة التي لا غنى عنها.

- أي لعبة تلك؟

- تلك اللعبة التي تلعبونها معي لكي تسددوا ما عليكم من ديون.

ضحك إِرجانْج المحرر المتَدَرِّب في القسم السياسي على استحياء، وعلا صوت رنين الهاتف، فرفع مالمي سماعة الهاتف إلى أذنيه، وأومأ برأسه في صمت وهو يُهَمهم، ثم كتم سماعةَ الهاتف بإحدى يديه، وقال:

- أحد المشتركين يستفسر عن شيءٍ ما، إنهم يجلسون إلى مائدة سمر، ويتراهنون فيما بينهم على ما إذا كان النطق الصحيح للكلمة الواردة في الصحيفة هو (باب) أم (أبواب).

التقط مُونتْسَر السمَّاعة من يد مالمي، ومضى بها بعيدًا، ثم رفعها إلى أذنيه قائلًا:

- لحظةً من فضلك، سوف نعطي حضرتك حالًا الإجابة الصحيحة، سنحيلكم إلى مسؤول صفحة الأدب والفن.

أومأ مُونتْسَر برأسه مشيرًا إلى إِرجانْج، وهمس في أذنه بكلمات، فالتقط المتُدرب الشاب السماعة منه، ثم هزَّ كتفيه قائلًا:

- لقد علمت حالًا أنَّ الكلمة الصحيحة هي (باب)، تحت أمرك، طاب مساؤكَ.

وضع مُونتْسَر سماعة التليفون، وهزَّ رأسه، ثم دسَّ بعض العملات في جيب مَالْمِي، وإثر ذلك انطلقوا جميعًا إلى إحدى الحانات القريبة من مبنى الجريدة، وهناك أراد أحد الجالسين العودة لإحضار شيء من الدار، فسأَلَهُ مُونتْسَر إحضارَ نسخة من الجريدة كي يرى بنفسه إذا ما كان كل شيء على ما يُرام، وعندما طالع الجريدة انزعج بسبب خطأين طباعيين؛ لكنه سُرَّ جدًّا عندما رأى العنوان الذي اختاره وقد علا الصفحة الأولى من الجريدة. بعد برهة انضم إلى طاولتهم الناقدُ المسرحيَ شْتْرُوم، شرعوا جميعهم في شرب الخمر بِنَهَمٍ، وكان الشاب إرجانْج ثملًا خَدِرًا.

في ثنايا الحديث استرسل الناقد المسرحيُّ شْتْرُوم في حديثه مقارِنًا بعض المخرجين المشهورين بمُصمِّمي ديكور واجهات المحلات، فصرَّح بأنَّ المسرح المعاصر إنما يُعبر عن أعراض انحطاط الرأسمالية وانهيارها، ولما ادَّعى أحد الجالسين عدم وجود مؤلفين مسرحيين دحض شْتْرُوم هذا الرأي بذكر أسماء بعض المؤلفين المسرحيين؛ فعلق مُونتْسَر بلسانٍ ثملٍ متثاقل:

- إنك لم تعد واعيًا لما تقول!

انطلقت ضحكات شْتْرُوم بدون داعٍ، وفي تلك الأثناء استمع فانْيَان على مضض إلى حديث المحرِّر الاقتصادي مَالْمِي عن القروض قصيرة الأجل، وكان يقول:

- في بادئ الأمر ستُفرض الهيمنة الأجنبية على اقتصاد الرايخ (الإمبراطورية الألمانية)، وتتمادى إلى حدٍ كبير. ولن يحتاج

بيتُنا الكبير -ساعَتَئِذٍ- إلى أزيد من شرخ واحد حتى يتداعى منهارًا كله فوق رؤوسنا، على الأخص إذا ما تم سحب المال فجأةً بكميات كبيرة، سيكون من تبعات ذلك هلاكنا جميعًا: البنوك، والمدن، والشركات، والرايخ نفسه.

قال إرجانْج:

- لكنك -بالطبع- لن تكتب شيئًا عن ذلك في الصحيفة.

- سأبذل قصارى جهدي من أجل حدوث النتيجة العكسية، يمكن للمرء أنْ يُبهَر بكل ما هو ضخم وعملاق.. حتى الغباء.

حملق مَالْمِي إلى الشاب ثم قال:

- اخرُج من هنا سريعًا، فالخطر يُحدِق بك.

وضع إرجانْج رأسه على الطاولة، فخاطبه مَالْمِي قائلًا:

- من الممكن أنْ تصير المحرر الرياضي؛ هذا المنصب لا يتطلب قدرات خاصة، كما أنه يتلاءم مع طبيعتك الهادئة.

توجَّه إرجانْج نحو الباب الخلفي للغرفة، عَبَر الباب إلى الخارج بلا مقدمات مختفيًا عن الأنظار، فيما استرخى مُونتْسَر على الأريكة، وشرع فجأةً في البكاء مُهَمْهِمًا:

- أنا خنزير!

كان شْتْرُوم متأثرًا للغاية بما يحدث من حوله، وقال وهو يربت بيديه على صلعة المحرر السياسي المنخرط في البكاء:

- يا لها من أجواء روسية بامتياز؛ مشروبات كحولية، وجَلْد للذات، ودموع تنهمر من أعين البالغين!

ابتسم مَالْمِي لفابْيَان، واستطرد في حديثه السابق:

- تدعم الدولة حيازة الممتلكات التي لا تدرُّ ربحًا كما تدعم تربية الخنازير، وتُصدِّر منتجاتها إلى الخارج بثمن بخس، مع أنها تبيع السلع ذاتها داخل حدودنا بسعر يفوق مستوى السوق العالمية. صارت المواد الخام باهظة الثمن، وغَدَا أصحاب المصانع يخفضون المرتبات، تُسرِّع الدولة تقليص القوة الشرائية من خلال الضرائب التي لا تجرؤ على تحصيلها من أصحاب رؤوس المال، فضلًا على تهريب الأموال بالمليارات عبر الحدود! أتساءل ما نتيجة كل هذه الأمور التي يسيل لها لعاب الأكثرين!

تمادى مُونتْسَر في بكائه مادًّا شفته السفلى إلى الأمام؛ حتى تساقطت عليها دموعه، ومضى يقول:

- أجل.. أنا خنزير!

أردف محرر الأخبار الاقتصادية مَالْمِي ساخرًا:

- أنت تُبالغ في رفع قدرك أيها المحترم.

واصل مُونتْسَر البكاء؛ لكنه زمَّ شفتيه باستياءٍ إلى الأمام، من المؤكد أنه يشعر بالإهانة. الظاهر أنه تكلم كثيرًا وهو ثمل بالخمر، لدرجة أن نُدَمَاءَه حاولوا إسكاته أكثر من مرة، بَيْدَ أن مَالْمِي تابع حديثه في سعادة. ومضى يشرح رؤيته للوضع الاقتصادي:

- تُضاعِف وسائل التقنية الحديثة الإنتاج، ولكنها تقلِّص آلاف العُمَّال، اليد العُليا في الاستهلاك من نصيب القوة الشرائية للجماهير. تخيَّلوا أنهم في أمريكا يحرقون حبوب القهوة والقمح، لكي لا تصبح أثمان شرائهما زهيدة للغاية! وكذلك في فرنسا يتذمَّر زارعو العنب الذي يُصنع منه النبيذ، وينتحبون حزنًا بسبب جودة المحصول! هل تستطيع تخيُّل هذا! هؤلاء القوم مستاؤون ومنزعجون؛ لأن الأرض ما زال بها مزيد من الخيرات، يتضجَّرون من كثرة المحاصيل والحبوب عندهم، فيما لا يجد غيرهم ما يأكلونه في بقاعٍ أخرى في العالم!

وقف مَالْمِي وترنَّح قليلًا، ومضى ينقر بأصابعه فوق كأسه، فحَدَجه الجالسون حوله بأنظارهم، ثم قال:

- أيها السادة، أودُّ أنْ أُلقي خطابًا الآن، من لا يريد منكم سماعي فليقف إذًا.

وقف مُونتْسَر متثاقلًا، فصاح مَالْمِي:

- مَن يقف يغادر الحانة فورًا.

جلس مُونتْسَر مرةً أخرى؛ فضحك شْتْرُوم؛ وتصايح مَالْمِي ملقيًا خطابه الحماسي:

- الواقع إن الكرة الأرضية برُمَّتها تعاني معاناةً شديدة، وحينما يُبتلى شخص ما بمثل ما تعانيه كرتنا الأرضية العزيزة يقول الناس «إنه أمر هيِّن»، مع أنه في واقع الأمر ليس إلا الشلَلَ!

ومن المؤكد أنكم جميعًا تعلمون أنَّ الوضع السيئ الذي نعانيه جميعًا ليس هيِّنًا أبدًا؛ إنها مسألة حياة أو موت، وهو وضع لا تُجدي معه المُسكِّنات، إذ لا يمكن مجاوزة أخطاره إلا إذا عالجناه. حسنًا.. ماذا يفعل الإنسان مع أمراض كرتنا الأرضية؟ إنهم يعالجونها بشاي البابونج، ومع أن الجميع يعلم أنَّ هذا المشروب صحيٌّ ونافع بالفعل، لكنه لا يعالج جذور المشكلة؛ إنه -في الواقع- لا يؤذي أحدًا، كما أنه لا يُسبب أيَّ أعراض جانبية مؤلمة. «من الأفضل الانتظار وشرب شاي البابونج».. هكذا يعتقد كثيرون، وهم بذلك إنما يواصلون تكبير أدمغتهم وتغاضيهم عن جوهر المشكلة، وهذا التغاضي يريحهم كثيرًا! أعلم أنكم ستقولون لي: «تجنَّب هذه المقارنات الطبية، فنحن لن نسقط في الهاوية لأن بعض معاصرينا أخِسَّاء، وبعضهم حمقى، إننا لن نهلك -بطبيعة الحال- لأن هؤلاء الأخِسَّاء والحمقى يحكمون الكرة الأرضية»، أَصْدُقُكم القول.. نحن نُدمِّر طمأنينة جميع المتورطين في الحياة على هذا الكوكب، نحن نأمل أن يتغير هذا الكوكب من دون أنْ نحاول تغيير أنفسنا، هؤلاء القوم يتظاهرون بأنهم يفكرون في مصيرنا وما ستؤول إليه أمور حياتنا، لكنهم يفعلون ذلك وهم جالسون في استرخاء تامّ على الكرسي الهزّاز، ويحولون الأموال من هنا (حيث المالُ الشحيح) إلى هناك (حيث المال الوفير)، ولن تنتهي عمليات تحويل الأموال ودفع الفوائد البنكية، وليس مِن أمل في بداية التغيير إلى حالٍ أفضل.

رفع مُونتْسَر كأسه إلى أعلى، وأبقاها مرفوعة أمام فمه من دون أن يشرب منها، وهمهم قائلًا:

- أنا خنزير.

على أن مَالْمِي تابع حديثه قائلًا:

- الدورة الدموية مسمَّمة، ونحن نكتفي بلصق اللاصقة الطبية على الموضع المجروح الملتهب، هل يمكن علاج التسمم في الدم بهذه الطريقة؟ ليس من الممكن طبعًا! وحياة المريض ستنتهي شيئًا فشيئًا مع وجود هذه اللاصقة.

مسح الناقد المسرحيُّ العرق الذي يتفَصَّد من جبينه رامقًا المتحدث بنظرة تفيض بالأسى، فيما هَمْهَمَ مُونتْسَر مجددًا وهو يرفع الكأس أمام فمه بدون أن يشرب منها:

- لن أذكر مثل هذه المقارنات الطبية مرةً أخرى؛ مع أننا نُدمِّر بأنفسنا كفاءة قلوبنا، في الواقع أنا متخصص في علم الاقتصاد، وسأشرح لك؛ أيُّ محاولة لإصلاح الأزمة الحالية اقتصاديًّا بدون تجديد الفكر وإعمال العقل، ليست إلا هُراءً وثرثرةً.

نحَّى مُونتْسَر الكأس جانبًا، ثم قال:

- العقل هو الوَحدة الأساسية في بناء الجسد.

ثم تنهَّد بصوتٍ عالٍ، وشعر بأقصى درجات الأسى والحنق، ما دفعه إلى رفع صوته بشكل أكبر كيما يطغى على صخب أصوات زملائه المتحلِقين حوله، فصاح فيهم:

- سوف يحتجُّ الجماهير، وستظهر حركتان شعبيتان كبيرتان، وسِيَّان إن تحركت تلك الحشود من جهة اليمين أو من جهة اليسار؛ فهم يريدون علاج التسمُّم في الدم عن طريق الفأس التي سيشجُّون بها رأس المريض. على أيِّ حال سيتوقف أثر التسمُّم في الدم، ولكن المريض أيضًا سيزول هو الآخر، وهذا معناه أنَّ هذه الوسيلة العلاجية الفعّالة ستنتشر.

لم يعد السيّد شْتْرُوم قادرًا على متابعة سماع تِلكُمُ التشبيهات الطبية، ولا متابعة الحديث المتواتر عن الأمراض ووسائل العلاج، في اللحظة نفسها حاول رجلٌ بدينٌ يجلس إلى أحد أركان الطاولة أن يقف ويُثني المتحدث عن خطابه، حاول ذلك جاهدًا، فتحرك صوب رأسه ثم قال:

- كان حريًّا بك أن تكون طبيبًا!

قال الرجل كلمته، ثم سقط جالسًا على كرسيه وهو ينتفض حنقًا وغيظًا، ثم صرخ في وجوه الآخرين:

- المال.. نحتاج إلى المال.. المال.

أومأ مُونتْسَر برأسه، ثم همس قائلًا:

- كان مونتيكوكولي خنزيرًا.

ثم طفق مُونتْسَر ينتحب بصوتٍ عالٍ، فيما كان الرجل البدين الجالس إلى ركن الطاولة يزمجر قائلًا:

- تجديد فكري.. قصور في القلب.. يا له من أمرٍ مضحك! أحضروا لنا المال هنا، وسنكون في صحة جيدة، وسنغدو في أتم عافية، أما هذا الذي تقوله فهو مضحك حقًّا.

وكانت إحدى السيدات تجلس في مواجهة ذلك الرجل البدين، وكانت هي الأخرى بدينةً تمامًا مثله، تساءلت المرأة البدينة:

- لكن كيف سنجلب المال إلى هنا يا آرثر؟

صاح آرثر في المرأة في حنق وغيظ:

- وما شأنكِ أنتِ؟ هل سألتك عن شيء؟

وما لبث أن هدأ أخيرًا، واستوقف النادل الذي مرَّ أمامه قائلًا:

- أريد (شريحة لحم هلامية) مع الخل والزيت.

نظر مَالْمِي صوب الرجل البدين آرثر، ثم قال:

- ألم أكن مُحِقًّا في ما كنت أقول؟ ألم يجعل هؤلاء الحمقى رؤوسنا محنيَّةً مُنَكسةً؟ أنا عاجز عن التفكير ما دام الكذب باقيًا، وما دام ارتكاب الخطأ قد غَدَا هو الأمر الصحيح!

استرخى مُونتْسَر على الأريكة، ثم تعالى صوت شخيره مع أنه لم يكن مستغرقًا في النوم تمامًا، وهمس قائلًا وهو يصوب عينيه نصف مفتوحتين نحو مَالْمِي:

- وسيارتك معي!

بعد برهة عاد شْتْرُوم وإِرجانْج وقد اشتبكت يداهما، وبدا الرجلان شاحبين كأنهما مصابان بمرض الصفراء، هَمَّ الرجلان بالجلوس مجدَّدًا، وبادر إِرجانْج قائلًا في أسف:

- أنا لا أحتمل شرب الكحوليات.

أجابه شْتْرُوم قائلًا:

- إنها تبعة من تبعات الحرب، يا له من جيل شقيٍّ وسيئ الحظ!

حدَّق فَابْيان إلى وجه شْتْرُوم قائلًا:

- بعض البديهيات التي لا نملك إلا أن نُسلِّم بها.. يعجز العقل عن تصديقها، وهي تثير الجدل بمجرد أن يتداعى ذكرها، ومع ذلك فقد استطاع ذلك الناقد المسرحيّ شْتْرُوم التعبير عنها بكل وضوح.

ثم أشاح فابْيَان ناظريه عن الرجل، وأرسلهما مجدَّدًا نحو مَالْمِي، وكان هذا الأخير يجلس زائغ النظر على كرسيِّه، وقد انحنى مائلًا بجسده، لكنه سرعان ما عدَّل جلسته، وحملق إلى فابْيَان عندما أحس أنه يراقبه، أما مُونتْسَر فقد غطَّ في نومه، فأصبح شخيره الآن مشروعًا.

قام فابْيَان من مكانه ومدَّ يده مصافحًا، فقال له مَالْمِي، وقد ابتسم حزينًا:

- ربما تكون على حق.

فقال فابْيَان وهو واقف أمام الباب يهم بالرحيل:

- الحقيقة.. لم أعد واعيًا بأي شيء!

غادر فابْيَان المكان مغتبطًا من حالة السُكرِ والخدر التي جعلته يشعر بدوران الأرض وحركتها، مع أن الأشجار والبيوت ما زالت تقف في أماكنها، وكذلك المصابيح المضاءة مستقرّة ولا تبدو كالتوائم الملتصقة، ومع هذا كله كانت الأرض تدور حول نفسها، إنه يشعر بدورانها حقًا، لقد شعر بذلك الأمر اليوم، ولا بأس من أن يكون قد شعر بذلك، ولو لمرة واحدة. مشى ثَملًا يسمع طنينًا في أذنيه، لكنه تجاهل ما هو فيه. يا لها من كرة أرضية مُضحكة! أما تزال تدور حول نفسها الآن أم لا؟ تذكّر فابْيَان لوحة لأونوريه دوميه اسمها «التطور»، رسم داومير مجموعةً من الحلزونات يزحف بعضها خلف بعض، وهو يرمز من خلالها إلى سرعة تطور البشرية؛ لكنَّ الحلزونات في واقع الأمر كانت تزحف في دوائر مغلقة، وهذا أسوأ ما في الموضوع!

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع

سيجارة حجمها كبير ككاتدرائية كولونيا

السيِدة هُوهِنْفِيلْد فضولية

فابْيَان مُستأجِر الغرفة يقرأ لديكارت.

في صباح اليوم التالي قَدِم فابْيَان إلى عمله منهكًا، فضلًا على ما كان يعانيه من صداع مزمن بسبب احتساء الخمر بالأمس. وكان زميله فِيشَر قد شرع في تناول الإفطار -كعادته دومًا- قبل أن يبدأ عمله، سأله فابْيَان:

- من أين يأتيك هذا الجوع الدائم؟ أنت متزوج وتكسب أقل مني ولديك حساب توفير وتأكل كميات كبيرة من الطعام تجعلني أشعر بالشبع حينما أراك تأكل!

واصل فِيشَر مضغ طعامه ثم أوضح لفابْيَان:

- إنه أمر شائع في عائلتنا، ونحن مشهورون بالنهم في الأكل.

أردف فابْيَان متأثرًا بكلام زميله:

- يجب أن نبني نصبًا تذكاريًا لعائلتك.

ارتمى فِيشَر في كرسيه وهو مضطرب ثم قال:

- قبل أنْ أنسى، أودُّ أنْ أخبرك أنَّ كُونسِه قد رسم مجموعةً جديدةً من الإعلانات، ويجب أن نُرسل سطرين لهما نفس القافية، أنت بارع في ذلك.

- ثقتك هذه أمرٌ يُشرفني؛ لكني ما زلت منشغلًا بملصقات الصور المـُجمَّعة. أما أنت فإني أحسبك قادرًا على أنْ تكتب بَيْتَيْ الشعر المطلوبين بكل أريحية، وإلا فما فائدة طعام الإفطار لك ولعائلتك الموقرة إن لم تَجِدْ تلك القافية المطلوبة؟

شرد فابْيَان وأشاح بناظريه عبر النافذة نحو مصنع السجائر ثم تثاءب، وقد بدت السماء لعينيه رماديةً تمامًا مثل لون مضمار الدراجات، أمَّا فِيشَر فقد راح يجول في المكتب ذهابًا وإيابًا، وبدت على قسمات وجهه علامات الاستياء، ثم طفق يهمهم محاولًا إيجاد كلمات القافية.

طوى فابْيَان أحد الملصقات، ثم ثبَّته بدبوسٍ على الحائط، ووقف في ركن الغرفة البعيد يتفحَّص ذلك المـُلصق الذي تضمَّن صورةً فوتوغرافيةً لكاتدرائية «كولون» تقف إلى جوارها علبة سجائر بنفس حجم الكاتدرائية. تأمل فابْيَان المـُلصق، ثم دوَّن عدَّة أفكار تتابعت على ذهنه: «لا شيء يعلو فوقها... القمة... هذا العلو الشاهق فوق الكل... لا يمكن الوصول إليها...». كان يؤدي واجباته الوظيفية في المكتب بشكل روتينيّ من دون أنْ يعي الغرض الفعليَّ منها! أما فِيشَر فقد كان مضطربًا للغاية، لأنه لم يجد القافية

التي يبحث عنها في خاطره، فتشاغل بموضوع جديد، وتوجَّه نحو فابْيَان قائلًا:

- يقول بيترُوخ إننا بصدد الدخول في هوجة جديدة من الإقالات!

أجابه فابْيَان:

- غير مُستبعَد.

فسأله فِيشَر:

- ماذا عساك أنْ تعمل لو أقالوك من هنا؟

- هل تعتقد أن حياتي كلها منذ مولدي وتعميدي في الكنيسة حتى قدومي إلى هذا المكان موقوفة على عمل دعاية جيدة لسجائر رديئة؟ لو أُقِلْتُ من هنا سأبحث بالطبع عن وظيفة جديدة، فالحياة عندي لا تقف على وظيفة بعينها.

بادره فِيشَر بقوله:

- احكِ لي مزيدًا عن نفسك!

- في أثناء فترة التضخم أدرتُ شركة مُساهمة للأوراق المالية في البورصة، توجّب عليّ حساب القيمة الفعلية للأوراق المالية كل يوم مرتين، كي يعرف العملاء إلى أي مدى زاد رأس مالهم.

- ثم ماذا؟

- ثم اشتريت متجرًا للخضراوات والفاكهة دفعت فيه مبلغًا من العملات الأجنبية.

- لماذا على وجه الخصوص متجرًا للخضر والفاكهة؟

- لأننا كنا جوعى! كتبتُ على لافتة المتجر: «الدكتور فابْيَان لتجارة الأطعمة عالية الجودة».

هبّ فِيشَر من مكانه منتفضًا، وقال مستنكرًا ما زعمه فابْيَان:

- ماذا؟ هل أنت حاصل على درجة الدكتوراه أيضًا؟

- اجتزتُ امتحان الدكتوراه في نفس العام الذي عُينت فيه كاتبَ عناوين في إدارة المعارض.

- وما عنوان رسالة الدكتوراه التي أعدتَّها؟

- كان عنوانها «هل كان هاينرش كلايست[1] متلعثمًا؟»، أردتُ -بناءً على بعض الدراسات الأسلوبية- أنْ أتحقق من مسألة كون قدمَيْ هانس زاكس[2] مسطَّحتين، أتُراهما حقًّا كانتا مسطحتين أم لا؟ لكن التحضيرات استمرت طويلًا.. كفى كفى.. من الأفضل لك أنْ تُتِمَّ عملك في البحث عن بَيْتَي الشعر الناقصين.

طوى فابْيَان بساط الحديث، وجال في الغرفة ذهابًا وإيابًا، وهو يطالع الملصق المعلَّق على الجدار، أما فِيشَر فكان يسترق نظراتٍ فضوليةً يوجهها خلسةً نحو فابْيَان، إنه يودُّ معاودة الحديث معه،

(1) هاينريش فون كلايست: كاتب وشاعر ألماني تُوفي سنة 1811م، ينتمي إلى الحركة الرومانسية، وكان لأعماله تأثير قوي في الأجيال التالية من الكتَّاب الألمان. (المحرر)

(2) هانس زاكس: شاعر ألماني من القرون الوسطى. (المحرر)

لكنه لا يجرؤ على ذلك، فما كان منه إلا أن أطلق زفرةً متنهدةً، وألقى جسده على الكرسيّ محاولًا كتابة بيتين ينتهي أولهما بكلمة (التدخين)، والآخر بكلمَة (محتاجين) حتى يتوافقا مع غيرهما في قافية النون، سوَّى الورقة المطروحة بين يديه، وأحكم إغلاق عينيه مستحضرًا كلمات البيتين، بَيْدَ أن دَوِيًّ جرس الهاتف قد بدَّد تركيزه، فالتقط السمَّاعة، ثم هز رأسه بالإيجاب قائلًا:

- نعم موجود هنا. دقيقة من فضلك. سيأتي الدكتور فابْيَان حالًا.

نظر إلى فابْيَان وقال له:

- صديقُك لَابُوْدَه.

أخذ فابْيَان سماعة التليفون:

- أهلًا لَابُوْدَه.

وجاءه صوت لَابُوْدَه منسابًا عبر أسلاك الهاتف:

- منذ متى وأنت تكتب الدعايات للسجائر؟

- تعلمت ذلك في المدرسة.

- إذًا فأنت تستحق ما يحدث لك، هل من الممكن أن تزورني اليوم؟

- حسنًا.. سآتيك بالتأكيد.

- أنتظرك في منزلي الثاني. مع السلامة.

- مع السلامة لَابُوْدَه.

وضع فابْيَان سماعة التليفون فأمسك فِيشَر بتلابيبِه قائلًا:

- إذا كان هذا السيِّد الذي يُدعى لَابُوْدَه صديقَكَ بالفعل.. فلماذا لا تناديه إذًا باسمه الشخصي؟

- ليس لديه اسم شخصي، لقد غفل والده -في الواقع- عن تسميته عند ولادته.

- ألا يحمل أي اسم شخصي على الإطلاق؟!

- إطلاقًا. ولك أنْ تتصوَّر أنه يحاول أنْ يُسمِّي نفسه منذ عدة سنوات، ولكن الشرطة لا تسمح له بذلك.

فبادره فِيشَر وقد استشعر الحرج والإهانة:

- أنت -قطعًا- تسخر مني!

رَبَّت فابْيَان على كتفه مُعترفًا بذلك بسخرية:

- يا ولدُ يا لمّاحُ!

ثم ركَّزَ من جديد في كاتدرائية كولونيا، ودَوَّن بعض العبارات التي مضى بها نحو مديره بْرَايتْكُوبْف، وحينها بادره المدير قائلًا:

- يمكنك أنْ تفكر في مسابقة صغيرة جميلة، لأن الكتالوج الذي صَمَّمْتَه عن تجار التجزئة أعجبنا جدًّا.

أحنى فابْيَان رأسه قليلًا مُظهرًا التواضع، ثم استطرد المدير قائلًا:

- نحتاج إلى مزيد من الأفكار الجديدة، مسابقات أو ما شابه ذلك. ولكن يجب ألَّا يكلفنا الأمر شيئًا، هل تفهم ما أقصده؟ لقد صرَّح مجلس الإدارة حديثًا بأنه يتوجَّب تقليص ميزانية

الدعاية إلى النصف، ماذا يعني ذلك لك؟ هل عندك أفكار تتعلق بهذا الشأن؟ الآن هَلُمَّ إلى عملك مسرعًا أيها الصديق الشاب، ولا تنسَ أن تحضر لي أفكارك الجديدة، وأنا أكررها لك مرة أخرى: أقلَّ التكاليف كلما أمكن.

أنهى فابْيَان يوم عمَله، وعاد إلى غرفته، تلك الغرفة المنفردة المستأجَرة، التي يكلفه إيجارها ثمانين ماركًا كل شهر (تشمل قهوة الصباح، وأجرة الكهرباء). عاد إلى غرفته في وقتٍ متأخر، طالعت عيناه خطابًا من والدته مطروحًا على المنضدة، وقرر مطالعته بعد أن يغتسل، لكنه وجد الماء باردًا للغاية، فاكتفى بغسل وجهه فقط، ومن ثَمَّ بدّل ثيابه وارتدى بدلته، ثم التقط خطاب والدته وجلس إلى جوار النافذة.

تناهى إلى مسامعه صوت ضجيج في الخارج، كأنما هي أمطار تدق زجاج النوافذ، فضلًا على أصوات عزف البيانو القادمة من الطابق الثالث، شخصٌ هناكَ يحاول التدرُّب على العزف، اختلطت كل هذه الأصوات بصوت شجار قادم من الغرفة المجاورة، إنها صيحات يوجهها مدقق الحسابات الكهل المغرور إلى زوجته؛ لا بأس.. لا بأس.. فتح فابْيَان الظرف ثم قرأ:

«ابني الغالي الطيب!

بَادِئَ ذِي بَدْءٍ -وكي يطمن قلبكَ- أقول لك إنَّ الطبيب أثلج صدري، وقال إنني لا أعاني مشكلات خطيرة، إنها الغدد ولا شيء غيرها، لا تقلق أرجوك؛ هذا شائع الحدوث لكبار السن أمثالي، أنا نفسي كنت متوترةً للغاية؛ لكني هدأت!

بالأمس جُلت جولةً ممتعةً، تمشيت قليلًا في حديقة باليس، طالعت صغار الإوز العراقي، تخيَّل.. كلهم ذكور! دلفت إلى المقهى لتناول فنجان من القهوة، لقد أصبحوا وقحين تمامًا يا فابْيَان، إنهم يطلبون الآن سبعين بْفِينْجًا ثمنًا لفنجان واحد من القهوة!

الحمد لله فرغتُ أخيرًا من الغسيل، كانت المسألة شاقة بعد أن اعتذرت الغاسلة (السيِّدة هازه) في آخر لحظة، أعتقد أنها تعاني تورُّمًا دمويًا.

جهزت لك احتياجاتك، غدًا صباحًا سأرسل الصندوق إلى مكتب البريد، أمسك به جيدًا يا فابْيَان، واربطه بأحكام أكثر من المرة السابقة، فمن السهل أنْ تفقد منه شيئًا في أثناء الطريق.

فابْيَان.. أكتب لك والقطة في حجري، إنها تتعارك معي وتضربني في رأسي، فهي لا تريدني أنْ أكمل خطابي لك!

لا ترسل إليَّ مالًا يا فابْيَان الطيب، إذا وضعتَ لي نقودًا في الخطاب القادم مثلما فعلت المرة الأخيرة فسوف أقص أذنيك؛ إنك تحتاج إلى نقودك لنفسك ولتدبير أمورك الخاصة.

صحيح.. هل العمل في الدعاية للسجائر ممتع حقًّا؟ أعجبتني جدًّا المطبوعات التي أرسلتها إليَّ؛ ولكن السيدة توماس ترى أنه لمن المؤسف حقًّا أن يعمل أمثالك في مثل هذه المهنة الحقيرة، على كل حال لقد أوضحتُ لها أنك مُكرَه على ذلك، فمَن يريد كسب قوت يومه في أيامنا هذه لا يمكنه الانتظار حتى تأتيه الوظيفة المناسبة الصحيحة على طبق من ذهب، أو تهبط عليه من مدخنة المدفأة، لقد قلت لها إنها فترة مؤقتة لك على أيِّ حال.

صار والدك مُقيَّد الحركة إلى حدٍّ كبير بسبب فقرات ظهره التي جعلته يمشي محنيًا.

أحضَرَت لنا أمس خالتُك مَارتا عشرَ بيضات من الحديقة، فالدجاجات يضعنَ البيض باستمرار، إنها أخت طيبة، فقط لو لم تكن تتعارك كثيرًا مع زوجها.

ابني العزيز.. كم أتمنى لو استطعتَ أنْ تأتي إلينا مرةً أخرى سريعًا، لقد كنتَ هنا في الربيع، كم يمر الوقت سريعًا!

كم هو مؤلم أن يكون عندي ابن، ولا أراه! تخيل يا فابْيَان أنَّنا لا نقضي معًا إلا أيامًا معدوداتٍ من كل عام! آه يا بني! لكم أودّ أن أقفز الآن إلى واحدة من عربات القطار، وأسافر إليك لأراك!

أطالع صورك، وبطاقاتك البريدية كل ليلة قبل نومي، لكم أتمنى أن يعود بي الزمان إلى تلك الأيام السعيدة، هل تذكر يا فابْيَان عندما أقلعنا معًا حاملين حقيبة السفر على ظهرنا، ثم عدنا ولم يكن في حوزتنا إلا بيفنج واحد لا غير! إنني أضحك الآن وأنا أتذكر ذلك الموقف.

مع السلامة يا ابني الغالي، هل ما زلت تنام متأخرًا؟ أبلغ سلامي لصديقك لَابُوْدَه، ليته يداوم على العناية بك.. بالمناسبة -صحيح- قل لي يا ولد.. ما أخبار علاقاتك بالنساء؟ احترس منهنَّ يا فابْيَان.

وأخيرًا خالص تحياتي وقبلاتي الحارة.

أمّكَ».

دسّ فابْيَان خطاب والدته في جيبه، ثم أوغل محدقًا النظر إلى الشارع من علٍ، وتداعت خواطره؛ «لماذا أجلس هنا في هذه الغرفة الغريبة المهجورة؟ إنها غرفة حقيرة استأجرتُها من السيدة الأرملة هُوهنْفِيلْد. الغرفة حقيرة لدرجة أنها ما كانت تتطلع إلى تأجيرها من قبل! لماذا نأيتُ عن بيت أمي؟ ما الذي تنشد الوصول إليه يا فابْيَان في هذه البلدة البعيدة حين اعتزلتَ في هذا الصندوق الحجري الأصمّ؟ ثم.. ما فائدة ذلك الذي أكتبه من هُراءٍ محض؟ كي تُدخن البشرية مزيدًا من السجائر أكثر من ذي قبل؟ كان في إمكاني أنْ أنتظر سقوط أوروبا وانحطاطها هناك حيث وُلدت.. وحيث كنت أتخيل الكرة الأرضية تتحرك فقط حينما أنظر إليها، أين أنت يا فابْيَان؟ الآخرون عندهم وظيفة ثابتة، تقدموا في مناصبهم، تزوجوا وأنجبوا الأطفال، وأنتَ لم تزل خلف الأسوار، تراقب الجميعَ وأنت -خائب الرجاء- تطوف في الشوارع لتعود إلى غرفتك خاوي الوفاض. أوروبا في حالة استراحة طويلة، غاب المعلمون، واختفت المناهج الدراسية، لن تحقق القارة العجوز أهداف المناهج التعليمية المرجوّة.

طرقت السيّدة هُوهِنْفِيلْد صاحبة المنزل الباب، ثم دلفت إلى الغرفة وقالت:

- أعتذر، ما كنت أظنك موجودًا!

ثم اقتربتْ منه واستطردت:

- هل سمعتَ الضجة التي حدثت أمس بسبب السيّد تْرُوجِر؟ لقد اصطحب النساء معه مجددًا إلى غرفته. سوف أطرده من هنا على الفور لو تكرر هذا الأمر، لدينا ساكنة جديدة في الغرفة المجاورة، كيف سيكون تفكيرها في سُمعة المكان بسبب تصرفاته الهوجاء إذًا؟

- إذا لم تكن تؤمن بـ«حكاية طائر اللقلق»، فهي في مشكلة حقيقية![1]

- لكن منزلي يا سيّد فابْيَان ليس فندقًا مفتوحًا لكل من هبَّ ودبَّ.

---

(1) الجُملة هنا مجازية بالطبع، والمؤلف يحيل إلى حكاية طائر اللقلق الواردة في حكايات الحكيم يعسوب. تحكي القصة أن مزارعًا نصب شَرَكًا في حقله لطرد الإوز وغيره من الطيور التي كانت تسرق البذور التي يزرعها. وعندما تفقَّد الشرك وجد بين الطيور طائر لقلق يطالبه بالنجاة. لأنه غير ضار ولم يشارك في سرقة البذور. فرد عليه المزارع بأنه لَمَّا وُجِدَ بين الطيور السارقة فسيكون مصيره مثل مصيرها. المغزى من القصة أنَّ «الصاحب ساحب.. فاخترْ مَن تصاحب»، أو «اختر الجار قبل الدار». كما يقول المثل الشائع. (المحرِّر)

- سيدتي المحترمة.. من المعروف أنّه في سنٍّ معينة تُثار بعض الاحتياجات التي تتعارض مع أخلاق ومبادئ السيدة المؤجِّرة!

نفد صبر مالكة البيت؛ فأوضحت لفابْيَان:

- لكنه اصطحب معه على الأقل سيدتين ليلة بارحة!

- سيدتي الفاضلة.. إنّ السيد تْرُوجِر فاسق، وربما كان من الأفضل أنْ تخبريه بنفسك أنه غير مسموح له باصطحاب أكثر من سيدة واحدة في الليلة، وإذا لم يلتزم هذه القاعدةَ فاطلبي إلى شرطة الآداب أن يُخْصُوه.

ومع أن السيدة هُوهِنْفِيلْد كانت مستاءة للغاية، أحنت رأسها صوب فابْيَان، واسترسلت تهمس له:

- أعلم أن الإنسان يتطور ويواكب العصر الذي يعيش فيه، أجل.. لقد اختلفت العادات والأعراف، وتغيّرت الدنيا كثيرًا، وقطعًا لا بد لكل إنسان من التأقلم لكي يلائم زمانه ويوافق مستجداته، أنا أفهم ما نحن فيه، كما أني لست عجوزًا كما تتخيّل.

كانت السيدة هُوهِنْفِيلْد تدور حول فابْيَان وهي تتحدث إليه حتى كادت تقف خلفه تمامًا، لكنه لم يكن ليلتفت إليها، مع أنه شعر بحركة نهديها المضطربين وقد كادا يمسّان جسده، إنها تلاحقه، والأمر يتفاقم مع مرور الوقت، إنها بالفعل تبحث عن رجل، فقد كانت تقف في الليل حافية القدمين أمام غرفة تْرُوجِر، وتطالع من

ثقب المفتاح طقوس العربدة التي يمارسها مع النساء، وها هي الآن تكاد تجنُّ وهي تتطلع إلى فابْيَان في شبقٍ؛ كأنما تريد أنْ تجرده من ملابسه بنفسها، لكنها -بالفعل- لا تجرؤ على ذلك، لقد تغيرت الدنيا كثيرًا، فقد كانت النساء في ما خلا من الزمان هنَّ الأكثر حشمةً، والأوفر حظًّا من العفاف. إلا أن فابْيَان هب واقفًا وهو يقول لها:

- خسارة أنك لم تُرزقي بأطفال!

قالت وقد حطَّم فابْيَان آمالها:

- سأغادر الغرفة على الفور.

نظر فابْيَان إلى الساعة قائلًا:

- ما زال لَابُوْدَه في المكتبة.

ومضى نحو المنضدة التي تكوَّمت عليها الكتب والكتالوجات، فطالعت عيناه لوحةً مطرَزةً نُقشت عليها عبارة تقول «الباقي من الزمن: ربع ساعة فقط»؛ وقف على الأريكة، وانتزع اللوحة عن الجدار، ووضعها فوق المكتب بلا مبالاة، والتقط كُتيِّبًا صغيرًا للفيلسوف الفرنسي ديكارت، لقد قرأ هذا الكتاب منذ ست سنوات مَضَيْنَ، يا له من زمان طويل! فتح فابْيَان الكتاب فطالعت عيناه على الجدار من الجهة الأخرى لوحةً كُتب عليها «كم بنسًا تدفعون لبيع الفراء وشرائها؟»، تجاهل فابْيَان اللوحة، وامتدت عيناه تطالع سطور كتاب ديكارت، ماذا تريد أن تقول لي يا ديكارت:

«كل شيء مشكوك في صحته، لقد تبيَّن لي ذلك منذ عدة أعوام، أكاذيبُ ومغالطاتٌ كثيرة نبدأ -منذ عهد الصبا- في تقديسها كأنما هي حقائق! لقد بنيتُ كثيرًا من معتقداتي على تلك الأشياء المغلوطة، لهذا فإني أرى أنه يجب أن أترك كل شيء ينقلب رأسًا على عقب ويتغير، يجب أن يتغير -بالفعل- ولو كان هذا التغير مرةً واحدةً في العمر، ومن بعد ذلك يتوجب علينا أن نبدأ من جديد في التخطيط لكل ما هو ثابت ودائم. لقد بدت لي هذه المهمة شاقةً للغاية، ولذلك طالعت كثيرًا من الدراسات العلمية المواكبة لِسِنِّي، ولهذا السبب أيضًا ترددتُ طويلًا في أنْ أُنحِّي باللوم على نفسي، لأني أردت أنْ أقضي الباقي من عمري في التَرَيُّث والمماطلة، وهكذا أضحى عقلي فارغًا من أيِّ هموم، وفؤادي غَدَا صِفرًا من القلق، ومن ثم وفَّرتُ لنفسي وقتَ فراغٍ هادئًا، وعندها اعتدتُ الوَحدة، وفي هذه الوَحدة صممتُ -بكل جدِّية- على أن أقوم بانقلاب عام على كل معتقداتي وآرائي الثابتة، لقد قررت ذلك طواعيةً وبكامل إرادتي الحرَّة».

أغلق فابْيَان الكتاب، ومضى نحو النافذة، وراح يطالع الشارع من عَلٍ، وتابع الحافلات التي بدت كأنما هي أفيال تنزلق بطول شارع كايزرأليه، وقد ارتدت حذاء التزلَج.

أسبل فابْيَان عينيه لحظاتٍ، ومضى بعدها يطالع مجددًا صفحات المقدمة، لقد أطلق ديكارت ثورته وهو ابن خمسة وأربعين عامًا، وكان -قبل ذلك وهو في شبابه الغض- قد شارك في حرب الثلاثين

عامًا، كانت جمجمته آنذاك متضخمةً بما تحويه من أفكار، لكنه تخلى فيما بعد عن كل ما يقلقه، في عزلته التي قضاها في هولندا متأملًا أحواض زهرة التوليب المتناثرة حول بيته هناك.

ضحك فابْيَان ووضع الكُتيب جانبًا ثم ارتدى معطفه وهمَّ بالخروج؛ وفي ردهة البيت التقى السيّد ترُوجِر (ذلك الرحَّالة المسافر دومًا وأبدًا بين صنوف متنوعة من النساء)، رفع كلاهما قبعته وقد تبادَلَا تحيةً عابرةً.

توجه فابْيَان إلى بيت صديقه لَابُوْدَه؛ بيته الثاني الذي لا يعرفه إلا قلة قليلة من أصدقائه ومعارفه، لقد اتخذَ هذا البيت في قلب المدينة، واعتاد الانسحاب إليه ليُشبِع -في هدوء- ميوله العلمية والاجتماعية بعيدًا عن مضايقات أقاربه النبلاء، وسيدات المجتمع الراقي، وفرارًا من الغرباء، ومن ضجيج الهاتف المتلاحق. وهناك سأل فابْيَان صديقه:

- كيف حالك؟ وأين كنت مختفيًا الأسبوع الماضي؟

أجابه لَابُوْدَه قبل أن يأخذ رشفة من كأس الكونياك التي كانت أمامه:

- اطمئن، أنا بخير، كنت في هامبورج، لِيدَا ترسل إليك السلام.

- وكيف حال العروس؟

- سأخبركَ لاحقًا.

- طيب. هل سمعت شيئًا من المشرف العلميِ؟ هل قرأ رسالتك؟

- لا؛ ليس لديه وقت. هو دائمًا في مناقشات وامتحانات، ومحاضرات، وحلقات دراسية وجلسات، يبدو أن شعر لحيتي سيمتد حتى يلامس ركبتَيَّ قبل أن يجد الوقت لقراءة أطروحة الأستاذية الخاصة بي.

صبَّ لَابُوْدَه كأسًا جديدةً من الكونياك، ثم واصل الشرب، وأجابه فابْيَان:

- لا تغضب، سوف يبهر عملُك هؤلاء المشرفين، لقد استطعتَ ببراعة إعادة بلورة أعمال لِيسِّنْج[1] وأفكاره، فحتى ذلك الحين استقبلوا كتابات لِيسِّنْج على أنها مجرد كلام في كلام، لأنهم لم يفهموا مغزى أعماله قط.

- أخشى ما أخشاه أنْ يسرف المشرفون على العمل في الإعجاب، إلى درجةٍ ينقلب بها السحر على الساحر. التقييم النفسي للمنطق المقدس للكاتب الميت، واكتشاف الأخطاء في الاستدلال والتعامل معها بشكل فردي وكعملياتٍ ذات معنى، وإظهار نوع العبقرية الذي يتقلب بين عصرين باستخدام كلاسيكياتٍ كانت جاهزة للبيع منذ فترة طويلة، وهي كلها أشياء لن تؤدي إلا إلى إزعاجهم وتعكير صَفوهم. لقد أمضيت خمس سنوات في تشريح هذا الرجل وتفكيكه وإعادة تجميعه مرة أخرى! عدنا ننتظر ونرى مآل الأمور، ولندع صاحبنا الساكسوني ابن

(1) جوتهولد إفرايم ليسّنج: فيلسوف وكاتب ومنظِّر ألماني. توفي سنة 1781م، يُعد أهمَّ ممثلي عصر التنوير. (المحرر)

القرون الخالية راقدًا في هدوء، يا لها من مهمة لائقة بشابٍ ناضج أن يواصل النبش في ركام رجل عاش في القرن الثامن عشر! ما علينا.. صُبَّ لنفسك كأسًا أخرى.

التقط فابْيَان كأسًا وملأها، نظر لَابُوْدَه أمامه ثم قال:

- اليوم صباحًا شاهدتهم وهم يلقون القبض على أحد أساتذة الجامعة في مكتبه بمقر الجامعة، وهو عالِم في اللغة الصينية؛ استولى على مخطوطات وصور نادرة تخص الجامعة ثم باعها، بدا شاحبًا حينما ألقوا القبض عليه وجلس على السُّلَّم، ناولوه كأس ماءٍ كي يستطِيع القيام من مكانه ثم اقتادوه.

قال فابْيَان متأثرًا:

- لقد أساء هذا الرجل استخدام وظيفته، لماذا تعلَّم إذًا اللغة الصينية إذا كان في وسعه أن يكسب قوته من السرقة؟ لكم هو مؤسف حقًّا أن يكون علماء اللغة لصوصًا!

قال لَابُوْدَه:

- لِتُنْهِ كأسك بأكملها، اشربها كاملةً، ثم تعال لنخرج معًا.

مشيا معًا عبر ساحة السوق حيث تنبعث آلاف الروائح الكريهة، حتى وصلا إلى محطة الحافلة، ومنها إلى محل هاوبت.

الفصل الخامس

محادثة جادة في صالة الرقص

الآنسة باوْلَا تَحْلِق شعر جسمها سرًّا

السيدة مول تقذف الناس بالأكواب الزجاجية

كالمعتاد دومًا كل مساء كانت حانة «هاوبتس زيلين» تقيم حفلًا على الشاطئ.

نزلت دسْتَتَان من فتيات الشوارع من الواجهة في الساعة العاشرة، يمشين كلهنَّ في طابور منتظم، وقد ارتدين ملابس السباحة المُلوّنة والجوارب الطويلة الممتدة إلى أعلى الساق، وانتعلنَ في أقدامهن أحذيةً ذات كعوب عالية. وفي تلك الليلة سُمِحَ لأيِّ امرأة ترتدي ملابس مشابهة بالدخول وشرب الخمر مجانًا. في البداية رقصت الفتيات بعضهنّ مع بعض حتى يَطّلع الرجال على شيء من مفاتنهنّ. أثار منظر الفتيات المجتمعات، وصخب الموسيقا الدائرة، شهيّة الموظفين والمحاسبين وتجار التجزئة الذين احتشدوا عند الحاجز.

هتف مدرّب الرقص: «هلموا أيها الرجال، انقضُّوا عليهن!».

وقد تحقق هذا بالفعل، فبدأت طقوس العربدة. كانت غرف النساء التي تعجُّ بِالرَّيَّانات الممتلئات الجريئات هي المفضلة،

وسرعان ما امتلأتْ الأركان التي تقدِّم الخمر، فيما انشغلتْ النادلات بصبغ شفاههن بأحمر الشفاه. اتخذ لَابُوْدَه وفابْيَان مجلسًا عند مقدمة المسرح، كانا يُحبَّان هذا المكان، لأنهما لا ينتميان إليه.

توهجت أضواء اللوحة التي تحمل رقم طاولتهما مرات عديدة بلا توقف، ودقَّ الهاتف في رنين متواصل، إذ كان شخص ما يريد التحدُّث إليهما؛ فما كان من لَابُوْدَه إلا أن رفع سماعة الهاتف ونحَّاها جانبًا من دون أن يرد، فعمَّ الهدوء من جديد، أما تلك الضجة المنبعثة من الموسيقا الصاخبة، ومن أصوات الضحكات والأغاني؛ فلم تكن موجهةً إليهما بشكل شخصي، ولذا لم تزعجهما في شيء.

استرسل فابْيَان في الحديث مع صديقه عن اجتماع فريق التحرير في الليل، وعن مصنع السجائر، وعن عائلة فِيشَر الجشعة، وعن كاتدرائية كولونيا، رمقه لَابُوْدَه وقال له:

- ألقِ كل هذا وراء ظهركَ؛ يجب عليك الآن أنْ تتقدم إلى الأَمام.
- ليس في وسعي أن أفعل شيئًا!
- بل في وسعك أن تفعل الكثير.
- سواءٌ، في مقدوري فعل كثير لكني لا أريد فعل شيء. من المستفيد من تقدمي؟ ولمن أحرز نجاحي؟ في سبيل مَن وضد مَن؟ بفرض أن لي فائدةً في هذا المجتمع، أين إذًا النظام الذي سأعمل في إطاره؟ لا يوجد نظام وكل شيء بلا معنى وبلا أهمية.

- أنت محقّ؛ ولكن أقل ما في الأمر -على سبيل المثال- أن تجتهد في كسب المال.

- أنا لست رأسماليًّا، هذا هو السبب.

ضحك لَابُوْدَه، فاستطرد فابْيَان:

- حينما أقول إني لست رأسماليًّا فذلك يعني أنني لا أنشد تحقيق أي أهداف مادية، ولماذا أكسب المال؟ وما المنطلق الذي يدفعني المال إليه؟ كي أسد رمقي؟ حتى هذا يعوق التقدّم نحو الأمام! أصبحت جميع الأشياء عندي سواء، أكتب عناوين الإعلانات، أَنْظُم القوافي لتُكتب على الملصقات الدعائيّة، حتى لو كنت بائعًا يسرح في السوق بالكُرُنب الأحمر، أترى أن تلك الوظائف مما يناسب شخصًا راشدًا؟ ما الفرق بين بيع الكرنب الأحمر بالجملة أو بالتجزئة؟ أنا لست رأسماليًّا.. أكررها لك! لا أريد فوائد ولا أتطلع إلى الفائض.

هز لَابُوْدَه رأسه قائلًا:

- هذا كسل. مَن يريد كسب المال من دون أنْ يحبه يمكنه أنْ يستبدل به السُّلطة.

- وتلك السُّلطة إلى أي مُنطلق تدفعني؟ أعلم أنك تبحث عن السُّلطة، ولكن بالنسبة إليَّ أنا على وجه الخصوص.. إذا أردتُ أن أكون من ذوي السلطة والنفوذ فأي جدوى أنالها من ذلك؟ تَعَطُّشُ الاسْتيلاءِ عَلى السُّلطَةِ ونَهَمُ الحصول على المال إنما هما أَخَوَان توأمان لا يمتَّان لي بأدنى صِلة من صلات القرابة.

- مهلًا.. ألا يمكن للمرء أنْ يستغل السلطة لأجل مصلحة الآخرين؟

- قد يكون ذلك صحيحًا، لكن صاحب السلطة -على كل حال من الأحوال- إنما يستغلها لأجل نفسه في المقام الأول، وقد يستغلها آخرون من أجل تخفيض شريحتهم الضريبية، أو ربما من أجل اصطياد النساء الشقراوات اللاتي يبلغ طولهن أكثر من مترين. لستُ معنيًّا بالسُّلطة، ولا بالمال.

كان فابْيَان قد ألقى كلمته تلك بكل حماسة، وهو يسدد بقبضة يده ضربةً للحائط المبَطَّن الذي امتصها في صمت. وأبدى لَابُوْدَه انزعاجه من كلام صديقه ووضع يده على ذراعه قائلًا:

- ليتنا اتخذنا مجلسنا هذا بالقرب من حديقة، ساعتئذٍ سيكون في وسعي أن أقودك إليها مكبلًا؛ لأغرز فيك هدفًا للحياة.

- أنا أراقب ما تنجزه أنت، أليس هذا كافيًا؟

- مَن المُستفيد من ذلك إذًا؟

- ومَن ذا الذي يستحق أنْ أساعده وأن أفيده؟ أنت تريد السُّلطة، أنت تريد أن تجمع البرجوازيين حولك كي تقودهم، كما أنك تريد التحكم برأس المال، وأن تجعل البروليتاريا[1] هي المهيمنة؛ وبذلك تتوهَّم أنك تؤسس دولة الثقافة التي تشبه الفردوس! لكني أقول لك.. حتى في جنتك المزعومة سوف

(1) الطبقة الكادحة. وَفقَ المذهب الاشتراكي. (المحرر)

يتعاركون! بغض النظر عن أنك لن تصل أبدًا إلى الكمال الذي ترجوه، أمّا أنا فأعرف لي هدفًا؛ لكنه -مع الأسف- صعب المنال، أريد مساعدة الناس في أنْ يصبحوا أكثر عقلانيةً وأدبًا، والمرحلة الأولى لتحقيق هذا الهدف هي ما أسعى إليه وأصوِّب نحوه جُلَّ اهتمامي في الوقت الحالي؛ ألا وهو ملاحظة مدى صلاحيتهم وأهليَّتهم لهذا الهدف، وليس إصلاحهم.

رفع لَابُوْدَه كأسه ثم صاح:

- في صحّتِك!

ثم ارتشف رشفةً طويلةً من كأسه وقال:

- بدايةً.. لا بد من إيجاد نظام عقلاني، وهو جدير بتواؤم الناس معه، وتكيُّفهم عليه.

شرب فابْيَان كأسه في صمت؛ فيما تابع لَابُوْدَه:

- هل أنت مدرك حقًّا ما تقول؟ أظنك تدرك ذلك، لكنك تطلق عنان خيالك نحو هدفٍ كماليّ لن يتحقق بالمرة، وحريٌّ بك -عوضًا عن ذلك- أن تناضلَ من أجل هدفٍ تعتريه جوانب النقص، لكنه قابلٌ للتحقيق، صدقني.. هذا هو الأيسر لك، أنت رجل بلا طموح، وهذا أسوأ ما يمكن أن تعانيه من تعاسة!

- بل هي السعادة عينها؛ خمسة ملايين من العاطلين ينتظرون حقهم في الدعم، ويكتفون به، أتراهم يكونون طموحين؟

قطع الحديث مجيء سيدتين إحداهما بدينة شقراء، يطفر نهداها بارزين وقد اخترقا نسيج فستانها الحريري الناعم، وبدت كأنما تُقَدِّم نهديها للرجلين، أمّا المرأة الأخرى فكانت نحيفةً عجفاء، ويوحي وجهها بأنَّ ساقيها معوجَّتان. استندت الامرأتان إلى الحائط المُبطّن على مقربة من مجلس فابْيَان ولَابُوْدَه، وقالت الشقراء:

- هل تسمحان لي بسيجارة؟

مدَّ فابْيَان علبة السجائر نحوها، وأعطاها لَابُوْدَه الولاعة، وشرعت السيدتان في التدخين، وبدتا منتظرتين مبادرةً ما من أحد الرجلين، وطال الأمد، فقالت النحيفة وقد تحشرج صوتها:

- حسنًا، هل هذا كل شيء الليلة؟

وأردفت البدينة وقد وجَّهت إليهما الحديث:

- أيكما سيدعونا إلى كأس من النبيذ؟

توجَّه أربعتهم إلى البار، وتنحوا في ركنٍ كُسيت جدرانه بصور جزيرة كاوب بولاية «راينلاند» بفالتس، تداعت إلى ذاكرة فابْيَان ذكرى لُطَخ أحمر الشفاه في تجربته السابقة، فيما طلب لَابُوْدَه مشروب الليكور، تهامست السيدتان في ما يبدو منه أنهما تتشاوران في مسألة اختيار كل واحدة منهما لفارس أحلامها من الرجلين، إذ إن هذه الهمسات الخافتة أعقبها على الفور تأبّط البدينة ذراع فابْيَان، وتطويقها لساقه بيدها الأخرى، أما تلك النحيفة فقد ابتلعت آخر قطرة من كأسها قبل أن تداعب لَابُوْدَه في أنفه باسمةً وهي تقول بنبرة غبية:

- في الطابق العلوي مزيد من زجاجات الخمر!

ثم مررت يدها فوق ملابسه بدايةً من فخذه، وأسبلت عينها في دلال؛ فبادرها لَابُوْدَه بقوله:

- من أين جاءتك هذه اليد الخَشِنة؟

استاءت المرأة، وابتلعت ريقها في توتر، ثم لوَّحت بإصبعها السبابة وهي تقول مهددةً:

- لا يسرح بك الخيال بعيدًا، وظنك بي ليس صحيحًا.

التفتت إليه الشقراء البدينة وهي تقول:

- كل ما في الأمر أن باوْلَا عملت لفترة في مصنعٍ للمُعلبات.

ثم أَخَذَت يد فابْيَان ومرَّرتها على نهديها حتى تهيَّجا، فبادرته قائلةً:

- هل سنذهب الآن إلى الفندق؟

كانت الفتاة النحيفة مُحرَجةً للغاية، وحاولت تقديم أي دليل يدفع عنها استياء لَابُوْدَه، فقالت له:

- ستجد كل موضع في جسدي ناعمًا للغاية، لقد أعددتُ جسدي لمثل هذا اللقاء.

لكن لَابُوْدَه عافَ الفتاة استياءً مما بَدَا ظاهرًا لعينيه من جسدها، فيما كانت الشقراء تواصل حديثها لفابْيَان، وقد مدت ساقيها أمامه:

- في الفندق يمكننا أن ننام معًا في هدوء!

دوَّت الموسيقا صاخبةً، وقد ملأ النادل لوتشِنْ الكؤوس، وبدت السيدتان نهمتين للغاية؛ أكلتا وشربتا بطريقة تدل على أنهما لم تتذوَّقا شيئًا منذ أسبوع على الأقل. وعلى الجانب الآخر من البار بَدَا رجل عملاق يتغرغر بعصير الكريز، وقد أسبل شعره الطويل، فامتد حتى عموده الفقري، ولاحت أضواءٌ مُتَّقدة أرسلتها المصابيح حول البار الذي توسط المكان كجزيرة، وفي خلفية المشهد كان نهر الراين متوهِجًا بالأضواء كأنما سطعت من فوقه الشمس، وكانت الفتاة النحيفة ترَدِد مجدّدًا:

- في الطابق العلوي مزيد من الزوايا المملوءة بزجاجات النبيذ.

صعد الجميع إلى الطابق العلويّ، وطلب لَابُوْدَه شرائح لحم بارد، وحالَما قدَّم النادل إليهم طبقًا مليئًا باللحم والسجق انقضَّت السيدتان عليه في نهم شديد، وقد ألهاهما الطعام عن كل ما يحيط بهما من أشياء، وفي تلك الأثناء كانت القاعة السفليّة مشغولةً باختيار صاحبة أجمل قوام بين جموع النساء، ومن ثَمّ تحلَّقت السيدات في دائرة وقد ارتدين كلهنَّ البيكيني، ثم بسطنَ أيديهن وأصابعهن وابتسمنَ بغنج لإغراء مَن حولهنَّ. التفَّ الرجال حولهنّ كما لو كانت حلقة بهائمَ في سوق المواشي، وكانت الأصوات تتناَهى إلى الطابق العلويّ، فقالت باوْلَا وهي تمضغ الطعام:

- الجائزة الأولى علبة حلوى فاخرة، إلا أن التي ستنالها لن تستمتع بها؛ وإنما يتوجَّب عليها تسليمها إلى المدير، أنا

أُفَضِّل البقاء هنا لتناول الطعام، هذا أفيد لي، فضلًا على كون ساقيَّ مكتنزتين باللحم!

قالت الشقراء:

- ساقاي أيضًا مكتنزتان باللحم! والسيقان الممتلئة هي الأجمل، لقد رافقتُ مرةً أحد الأمراء الروس، وما زال هذا الأمير حتى اليوم يهديني بطاقات بريدية، ويحمل إليَّ بريدُه مديحًا لساقيَّ المثيرتين!

زمجرت باوْلا في غضب:

- هُراء! كل رجل له مواصفات مختلفة، لقد عرفت أحد الرجال، وكان مهندسًا، كان يعشق امرأة مريضةً بمرض في الرئة! وكذا رفيق فيكتوريا كان رجلًا أحدب، وقالت إنه أخبرها أنَّه يحتاج إليها احتياجه إلى الحياة!

قالت البدينة وهي تلتقط آخر قطعة لحم في الطبق:

- الحياة تروِّضنا على قبول عادات لا يمكن أن تتغير!

وعَلَا صوت المذيع في القاعة السفليّة معلنًا اسم السيّدة التي فازت بالجائزة، فعزفت الفرقة الموسيقية في صخب، وناول المدير الفائزة هديتها فشكرته بكل سرور وسعادة، ثم انحنت أمام الجمهور الذي ظلَّ يصفق ويهلِّل لها، ومن ثَمَّ تراجعت خطواتٍ إلى الوراء وهي تحمل الهدية، والراجح أنها مضت بها إلى مكتب المدير؛ حتى يتسنى لها أن تردها إليه.

بادر لَابُوْدَه رفيقتَه باوْلَا بلهجة تأنيب واستنكار:

- لماذا تركتِ العملَ في مصنع المواد المحفوظة؟

أزاحت باوْلَا الطبق الفارغ من أمامها، وربَّتت على معدتها ثم قالت:

- بدايةً لم يكن هذا الذي ذكرتَه أنت مصنعي، وإنما كنت أعمل في مصنع معلَبات، وأخيرًا.. لم أترك العمل؛ وإنما سُرِّحت منه، لكن من حسن حظي أن خبرًا ما يتعلق بمدير المصنع قد تنامى إلى علمي في الموعد الصحيح؛ لقد علمت أنه أغوى فتاةً صغيرةً لم تتجاوز سنُّها أربعة عشر عامًا، وكنت أهدِده دومًا بإفشاء سره ما لم يدفع لي خمسين ماركًا، وهكذا كنتُ أذهب إلى الخزانة وآخذ النقود.

صاح لَابُوْدَه

- لكن هذا ابتزاز!

- كلامك يشبه كلام المحامي الذي وكَّله المدير ضدي عندما قاضيته بعد تسريحه لي من العمل، وانتهى الأمر إلى أن أتنازل عن دعواي ضده مقابل مئة مارك، دفعها لي بالفعل، وكانت آخر ما حصلت عليه منه، وهكذا خسرت المعاش عندما تنازلت عن القضية، وصرتُ الآن أتكسَّبُ مالًا زهيدًا أنفقه على إسكات جوعي، ولا أدخر منه شيئًا.

قال لَابُوْدَه موجهًا حديثه إلى فابْيَان:

- هذا أمر مرعب، أرأيت ما يفعله المديرون مع الموظفين الذين يعملون تحت إمرتهم؟ أرأيت سوء استخدامهم لسلطتهم؟

أردفت البدينة:

- عمَّ تتحدثون هنا؟! لو كنتُ رجلًا - وبالأخص لو كنتُ مدير مصنع- لما ترددت لحظةً في إقامة علاقاتٍ مع المرؤوسين في العمل!

ثم مسحت بيدها شعر فابْيَان، وقد لثمته وأمسكت براحة يده، ووضعتها مفتوحةً على معدتها الممتلئة، فيما رقص لَابُوْدَه وياوْلَا معًا، وقد لاحظ أن ساقيها مقوستان بالفعل. وهناك في الزاوية المجاورة غنت إحدى النساء عاليًا وبصوتٍ مخمور يتهدَّج:

«إن كنتُ بِعِشْقٍ أتسلى.. فإشباعُ البطنِ هو الأولى!»

قالت البدينة:

- أترون تلك المرأة التي تجلس إلى جوارنا؟ إنها مختلفة تمامًا عن نساء هذا المكان، فهي تأتي إلى هنا وقد تزينت بأغلى أنواع الفراء، وتحت فرائها ملابس إغواء شفافة، أكاد أجزم بأنها امرأة غربيّة ثريّة، أو على الأقل هي زوجة رجل ثري، إنها تجمع الشبان من أركان البار، وتدفع لهم حساب النبيذ، ثم تزعم أنها ستقضي ليلةً حمراء تصطبغ بها جدران الحان!

اعتدل فابْيَان في جلسته، ونظر عبر الحاجز القصير الذي يفصل طاولتهم عن طاولة تلك السيدة، فرآها مرتديةً لباس بحر أخضرَ حريريًّا، وقد كانت حقًّا سيدةً ريَّانة ممتلئة الجسد، يرافقها ضابط من ضباط جيش الرايخ الاتحادي، وكان الضابط يتلفت حوله مترددًا في خلع ملابسه، وهي تصرخ في وجهه:

- هيا أيها الرجل! لا تعطني هذا الانطباع المـُخيف بأنك مُرتخٍ ومُتعب، هيًّا! أضابط أنت حقًّا؟ أرني بطاقة هُويَّتك!

لم تكن ملامح تلك السيدة غريبةً عن فابْيَان؛ إنها السيدة مول، هي بالفعل إيرينه مول، ومفتاحها معه، وقفت مترنحةً أمام حاجز السُّلَّم، ثم رفعت كأسها إلى أعلى، وقذفت به نحو الصالة السفليّة فهوى حطامًا فوق باركيه الأرضيّة، وعندها توقفت الفرقة الموسيقيّة عن عزفها، وتوقف كل رفيقين عن رقصهما، وتطلعت الأعين المنزعجة جميعها إلى ذلك الركن العلويّ؛ حيث كانت المرأة واقفةً على السُّلَّم، وقد مدّت السيدة مول يدها وصاحت بأعلى صوتها تقول:

- يحسبون أنفسهم رجالًا، أو هكذا يطلقون على ذواتهم، وما تكاد يدنا تلامسهم حتى يتلاشوا! يا معشر النساء العزيزات إني أقترح عليْكنَّ أنْ نحبس الرجال في هذا المكان هنا، نحن في حاجة إلى بيوتٍ للدعارة الرجالية، ونذهب نحن النساء إليهم بكامل إرادتنا، مَن منكن توافق على هذا الرأي؟ فلترفع الموافِقة منكن يدها.

ضربت صدرها ضربةً قويةً بقبضة يدها، ثم بلعت رِيقها، وتعالت ضحكات الجميع في القاعة، وكان المدير صاعدًا نحوها وهي تبكي وتنتحب، ودموعها تجري على وجنتيها في أخاديد مصبوغةٍ بالكحل الأسود الذي جرفته الدموع من عينيها. ثم قالت وهي تنتحب بصوتٍ مكسور وقد مدت ذراعيها أمامها وشَدَّتهما بقوة:

- دعونا نغني من جديد، سوف نغني أغنية البيانو الجميلة:

قد يبدو الحيوان.. في جسد الإنسان

يرجو أن يرضيه.. محبوب يغويه.

لك جسدي كبيانو

أسمِعني ألحانه

لاعبْ.. في إتقان

في حبٍ وحنان

وافعل كيف تشاء

في نبل ووفاء

هذا ما أبغيه

أنا هنا كي أجنيه!

عندما وصل المدير إليها كتمَ فمها بيديه، فظنته يشتهيها؛ وانقضَت تُقبِل عنقه بكل شبق، وفي هذه اللحظة وقعت عيناها على فابْيَان الذي أطال النظر إليها وتفحَّصها، هنالك انهارت وصاحت:

- أنا أعرفك!

أرادت أنْ تجري نحوه؛ ولكنَّ ضابط جيش الرايخ الاتحادي الذي استعاد وعيه وقواه تشارك مع المدير في تقييد حركتها، وأجلساها معًا على الكرسيّ، فمنعاها من التوجُّه صوب فابْيَان، ومن ثمّ عاد الهدوء إلى الصالة مجدَّدًا، وشرعت الفرقة الموسيقية في العزف من جديد، وارتفع صوت الموسيقا، وعاد الرفقاء إلى الرقص من جديد. في تلك الأثناء دفع لَابُوْدَه الحساب، وأعطى بعض النقود لباوْلَا والبدينة، ثم أمسك بفابْيَان ودفعه معه إلى الخارج، وفي ركن الملابس سأله لَابُوْدَه:

- هل تعرفك حقًّا هذه السيدة؟

- نعم بالفعل؛ إنها تُدعى مول، وزوجها محام، وهو يدفع مبلغًا كبيرًا لأيّ رجل ينام معها، هل تصدِّق أنَّ مفتاح شقَّة هذه الأسرة الكوميدية ما زال في جيبي، ها هو ذا!

أخذ لَابُوْدَه منه المفتاح، ومضى تاركًا مع فابْيَان قبعته ومعطفه، ثم صاح قائلًا:

- سوف أعود حالًا.

الفصل السادس

المبارزة في مَتحف ماركيشيس

متى ستنشب الحرب التالية؟

طبيب يُجيد التشخيص

عاد لَابُوْدَه إلى صديقه فابْيَان، وخرجا إلى الشارع معًا، وهناك سأله لَابُوْدَه غاضبًا:

- هل فعلت شيئًا مع هذه المرأة المخبولة؟

- لا، كنت فقط في غرفة نومها، خَلَعَت ملابسها، ثم اقتحم الغرفة فجأةً رجل ادَّعى أنه زوجها، وقال إنه لن يزعجنا، ثم أحضر عَقدًا غريبًا قد أبرماه معًا، وقرأ بنوده عليَّ، لكني لم أقربها شيئًا ومشيت.

- ولماذا أخذت معك المفتاح إذًا؟

- لأن باب البيت نفسه كان موصدًا.

- إنها امرأة مُخيفة، كانت مُلقاةً مخمورةً ثملةً على الطاولة، فوضعتُ لها المفتاح بسرعة في حقيبة يدها.

- ألم تعجبك؟

- من الناحية الجسديّة هي فعلًا مثيرة للإعجاب؛ إلا أنَّ وجهها المتجرد من الحياء يشبه كثيرًا وجوه الوُعَّاظ من رجال الكنيسة، وهذا ما لا يناسب ذوقي على الإطلاق.

- أجل.. هي جميلة، فلو كانت قبيحةً بالفعل لكنتَ قد تركتَ المفتاح لها عند البوَّاب.

سحب لَابُوْدَه صديقه من ذراعه، وانعطفا ببطء في الشارع الجانبي، فلقيَهما نُصب تذكاري للسيد شولتسه ديلتسش[1]، ثم مَرَّا في طريقهما على المتحف، وقادهما المسير إلى جسر يعتلي نهر شبريه، وهنالك وقف الرجلان فتناهى إلى مسامعهما صوت نواح وعويل مؤلم يتداعى من راكب تمضي به باخرة تحت الجسر، كانا يحملقان إلى لون النهر الداكن، وفي البيوت المبثوثة على شاطئيه بلا نوافذ، في الوقت الذي تتوهج فيه السماء فوق مدينة فريدريش، وفي هذه الأثناء قال فابْيَان بصوت خفيض مستكين مخاطبًا صديقه:

- عزيزي شْتِيفان.. إنه لشيء مؤثر جدًّا أن تبذل قصارى جهدك للوقوف بجانبي ودعمي؛ ولكني لا أشعر بالأسى والتعاسة -واقعيًّا- أكثر مما يشعر بهما الناس من حولي، هل تريد أنْ تجعلني سعيدًا فأكون مخالفًا للواقع التعس الذي أعيش فيه؟ وحتى لو حققتَ لي منصبًا جيدًا، أو أربحتني مليون دولار، أو

(1) رجل اقتصاد ألماني بارز. مات سنة 1883م. (المحرر)

حتى هيّأتَ لي سيدةً محترمةً أحبها، حتى لو حققت لي تلك الأمنيات الثلاث معًا، لن يكون بإمكانك أنْ تجعلني سعيدًا.

مضى قارب صغير أسود يعبر النهر وقد وضع ملّاحُه في خلفيته مصباحًا أحمر، فيما استرسل فابْيَان في مناجاته لصديقه، وقد وضع يده على كتفه، ومضى يقول:

- لقد قلت لك من قبل إني أقضي الوقت متأملًا ما حولي بكل شغف وفضول، ومراقبًا العالم لأكتشفَ ما إذا كان يسير في طريق الاستقامة والعفّة أم لا، وما قلته لك لم يكن إلا نصف الحقيقة، وإليكَ نصفَهَا الآخر.. إنني حين أطوف متأملًا فاحصًا إنما أطوف حول نفسي، وأنتظر مرارًا وتكرارًا مثلما كنا ننتظر في الحرب، هل تتذكر؟ كتبنا المقالات والنصوص، ربما تعلمنا شيئًا ما في تلك الظروف، لكنه لم يكن شيئًا ذا بال؛ سيّان عندي أعرفناه أم غفلنا عنه، أجل.. لقد كان لزامًا علينا أنْ نشارك في الحرب، ألا تذكر حين مرت بنا أوقات كنا فيها كمن يناضل في بطء شديد وحذر كيْما يسرق نسمات هواء يحجبها عنه حاجز زجاجي؟ تململنا كثيرًا، لا لغطرستهم التي مارسوها ضدنا؛ وإنما لكونهم قد سلبونا نسمة الهواء التي نعيش عليها، أما زلت تذكر؟ لم نُرد أن يفوتنا شيء، وعانينا جوعًا كاد يُردِينا؛ وكنا نظن كلَّ وجبة تُقدَّم إلينا هي الوجبة الأخيرة التي تسبق الإعدام.

استند لَابُودَه إلى حافة الجسر، ونظر إلى الأسفل صوب نهر شبريه، فيما مضى فابْيَان وهو متوتر، كان يذرع الجسر ذهابًا وإيابًا كأنما يتمشّى في حجرته، ثم سأل لَابُودَه:

- أما زلت تتذكر؟ بعد مرور نصف عام تقريبًا سمحوا لنا بالرحيل، فحصلت على إجازة لمدة ثمانية أيام، وسافرت إلى جرال، ذلك لأنها مهاد صباي وطفولتي. كنا في فصل الخريف آنذاك، ومشيت مكتئبًا فوق أرض غابات إرلن المنحدرة، كان بحر الشمال هائجًا، وعلى شاطئه زمرة قليلة محدودة يمكن عدُّها من ناس جاؤوا للاستشفاء، وفي المخيم قابلتُ عشرَ نساء وجدت في وجوههن بعض القبول، ضاجعتهن جميعًا، وكنت ساعتها في السادسة عشرة من عمري، حتى غدا جسدي كأنما هو أصابع داكنة من السجق المحشو بالدم! ماذا كان ينبغي عليَّ فعله حتى ذلك الحين؟ قراءة الكتب؟ أُحَسِّن من شخصيتي؟ أكسب المال؟ جلست في غرفة انتظار كبيرة كان اسمها أوروبا، انتهت الإجازة، وبعد ثمانية أيام غادر القطار من هناك، كنت أعلم هذا الموعد، لكن إلى أين اتجه القطار؟ وماذا سيُفعل بي؟ لم يعرف ذلك أحدٌ، وها نحن يجلس كلانا مجددًا في قاعة انتظار، واسمها أيضًا أوروبا، كما أننا لا نعرف أيضًا ماذا يحدث، نحن نعيش في مرحلة انتقالية والأزمة لن تنتهي.

صاح لَابُوْدَه:

- اللعنة! لو فكر الجميع كما تفكر أنت لن يستقر بنا الحال أبدًا! هل تعتقد أني لا أستشعر هذه السمة المؤقتة لهذا العصر؟ هل حالة عدم الرضا عن الواقع المعيش تخصك أنت وحدك؟ لكني لا أقف متأملًا وأنا مكتوف الأيدي، بل أحاول أن أتصرف بعقلانية.

قال فابْيَان:

- العقلانيون لن يصلوا إلى السلطة، ونسبة العادلين قليلة جدًّا.

اقترب لَابُوْدَه من صديقه وأمسك بكلتا يديه ياقةَ معطفه، وهو يقول:

- أليس من الواجب عليك إذًا -مع ذلك كله- أن تكون أكثر جرأةً؟

في هذه اللحظة سمع كلاهما صوت تبادل إطلاق نار وصراخ، ثم بعد ذلك سمعا صوتَ دويِّ ثلاث طلقات نارية من اتجاهٍ آخر، أسرع لَابُوْدَه في الظلام بطول الجسر في اتجاه المتحف، ثم سُمع من جديد صوت طلقات نارية، وكان فابْيَان يجري محاولًا اللحاق بلَابُوْدَه مع كل ما يكابده من الآلام التي شعر بها في قلبه، وكان يحدِّث نفسه قائلًا: «يبدو أننا مقبلون على مزيدٍ من المتعة».

ثمة رجل يحمل مسدسًا، ويمسك بساق رجل آخر يدعى رولاند، وكان يصيح عاليًا:

- انتظر أيها الخنزير، لا تهرب!

أطلق الرجل النار في الشارع على عدوٍ لا يراه أحد، تهشَّم أحد مصابيح الشارع، وتناثرت شذرات البلور على الأرض، أخذ لَابُوْدَه السلاح من الرجل، وسأل فابْيَان ذلك الرجل:

- لماذا تتبادلان إطلاق النار وأنتما جالسان؟

أجابه الرجل متأوهًا، وكان شابًا ممتلئ الجسد، معتمرًا قبعة:

- لأني أُصبت في ساقي، يا له من حقير ساقط!

ثم علا صراخ الرجل مهددًا عدوه وهو يواصل تصويب طلقاته في الظلام:

- لكني أعرف اسمك...

كان لَابُوْدَه في تلك الأثناء يحاول معالجة الإصابة، وقد جلس القرفصاء، وأخرج من جيبه منديلًا، واتخذ منه رباطًا حول موضع الإصابة، وقال لفابْيَان:

- الإصابة في عضلة الساق.

قال الرجل المصاب وهو ينتحب:

- لقد بدأت المشكلة في الجهة الأخرى من النهر.. في الخمَّارة، رأيت ذلك الرجل وقد مسح صليبه المعقوف في مفرش الطاولة، ولما لُمته على هذا التصرف رد عليَّ ردًا مُهينًا، فضربته بقوة خلف أذنيه، لذا طرَدَنا صاحب الخمَّارة، وأصبح كلانا في الشارع. فما كان من هذا الرجل إلا أن لاحقني وهو

يسبُّ نشيدنا الوطني، وما كدت أدير إليه وجهي حتى وجدته يصوب إليَّ طلقات مسدسه!

كان لَابُوْدَه يحاول تضميد موضع الإصابة، والرجل يزمُّ شفتيه متوجعًا، فرمقه فابْيَان، وقال له:

- أتجد نفسك الآن على الأقل مقتنعًا بما صنعت؟

وقطع لَابُوْدَه الحديث قائلًا:

- لم تعُد الرصاصة موجودةً بالداخل، ألا يمر من هنا أيّ سيارة؟ كأن المكان هنا قرية نائية!

وقال فابْيَان آسفًا:

- لا يوجد هنا ولو شرطيٌّ واحد على الأقل!

حاول الرجل المصاب أن يقف على قدميه، وهو يقول:

- لا أريد، سيتحيز الشرطي ضدي، ويراني بروليتاريًا وقحًا لمجرد كوني قاومت النازيَّ الذي أراد أنْ يكسِّر عظامي بطلقات مسدسه!

حاول لَابُوْدَه إرجاع الرجل إلى مكانه، وطلب إلى صديقه إحضار سيارة أجرة؛ فطفق فابْيَان يبحث عنها عبر الشارع، وفي الأركان الجانبية منه، وبطول شاطئ الجسر، أخيرًا.. وجد بعض سيارات الأجرة وقد اصطفت في الشارع الجانبي التالي؛ طلب فابْيَان إلى أحد السائقين أنْ يقود العربة إلى المَتحف حتى يصل إلى المكان الذي تركوا فيه رولاند، مضت العربة إلى حيث وجَّهها فابْيَان،

وواصل هو السير على قدميه، وكان ضيق الصدر، يتنفس في بطء وصعوبة، وضربات قلبه تتلاحق مسرعةً؛ كأنما يكاد قلبه يقفز من تحت معطفه، وقد جف حلقه، وكادت عروق رأسه تنفجر، لقد أدرك فابْيَان أنه عليل القلب، وأخرج من جيبه منديلًا، وراح يجفف العرق الذي تصبَّب فوق جبينه وهو يناجي نفسه قائلًا: «هذه الحرب اللعينة! لا يكاد واحد من مباني هذه المدينة التعيسة يخلو من جندي شوَّهته الحرب، ثمة دومًا رجال بلا أطراف، ورجال شُوهت وجوههم بطريقة بشعة، بعضهم بلا أنف، وآخرون تحطم فكهم فلم يعد لهم فم، والطامة أن الممرضين والممرضات قد أَلِفُوا تلك المناظر البشعة واعتادوها، فلم تعد مؤلمةً ولا مخيفةً لهم! اعتادوا أن يجلبوا الطعام لتلك المسوخ العجيبة، وأن يطعموهم من خلال أنابيب رفيعة متصلة بأجسادهم عن طريق ثقوب نبتت في موضع أفواههم القديمة التي فقدوها، أجل.. كانت لهم أفواه وظيفتها الأولى الضحك والكلام أو حتى الصراخ».

انعطف فابْيَان إلى حيث يوجد المتحف، وقد سبقته السيارة التي رآها واقفةً هناك، أغلق عينيه فتداعت أمامه صور مروعَة حقيقية رآها من قبل في الحرب، وما زالت تلاحقه، فتتمثَّل أمام عينيه كوابيس مفزعة تقضُّ مضجعه، مسوخ كُتب عليها البقاء إلى الأبد في هذه البيوت المنعزلة عن العالم بأكمله، عاجزين حتى عن تناول الطعام بأنفسهم، وبعض الناس يطعمونهم لكي يظلوا -فقط- على قيد الحياة!

لماذا تركوهم أحياء وهم مشوَّهون بهذه الطريقة؟ أليس إبقاؤهم على قيد الحياة بمثابة قتل متعمَّدٍ لهم؟ أليست تلك خطيئة كبرى تفوق خطيئة حرق وجوههم وأجسادهم بألسنة اللهب في الحرب؟ إن عائلاتهم لا تعرف عنهم شيئًا، قيل لهم «هم مفقودون ولا نعرف عنهم شيئًا»، مع أنهم رهينو تلك الوضعيَّة البائسة منذ خمس عشرة سنة تقريبًا، كم من زوجةٍ بائسة علَّقت على الجدار صورة زوجها المفقود الذي توهَّمت موته وهو لم يزل بعد حيًّا هناك! ولعلَّ أولئك الأرامل قد تزوَّجن مجدَّدًا، وانبطحن على الأرائك ينعَمن بالسعادة مع أزواجهن الجدد، وقد ذَوَت من ورائهن على الجدار صورة ذلك الميت الحيّ! متى ستندلع الحرب من جديد؟ كانت تلك الخواطر تنثال على فابْيَان حتى قطعها صوت رجل يصرخ قائلًا: «ساعدوني! ساعدوني!».

جال فابْيَان بعينيه في المكان باحثًا عن صاحب الصوت، فوجد رجلًا منبطحًا على الأرض، وقد استند إلى مِرفَقيه، وضغط بكلتا يديه على منتصف جسده، قال فابْيَان:

- ماذا تريد؟

أجابه الرجل متألمًا:

- أنا الطرف الثاني من طرفي المعركة، لقد أُصبت أنا أيضًا، فلماذا لا تساعدني؟

أطلق فابْيَان ضحكةً ساخرةً امتدَّ صداها إلى الجهة الثانية من المتحف، وقال للجريح:

- معذرةً، فرغبتي في الدُّعابة لا توائم ما أنت عليه الآن!

تأمَّل الرجل الدماء التي سالت من يده، ورفع ركبته، ثم تبدَّلت ملامح الغضب التي كانت قد كَسَتْ قسمات وجهه، وقال بعنادٍ:

- لا بأس، أنت تضحك الآن، وسيأتيك يوم لا تجد فيه هذا الضحك، فالأحوال لا تدوم!

أقبل لَابُوْدَه نحو فابْيَان، وسأله غاضبًا:

- لماذا تقف وحدك هنا؟

- ألا ترى؟ إنه الرجل الثاني في مشاجرة اليوم، وقد أصابته طلقة في أعزِّ ما يملك.

استدعى لَابُوْدَه السائق، ونقَلَا النازيَّ إلى داخل السيارة بجانب رفيقه الشيوعيّ، ثم صعد فابْيَان ولَابُوْدَه إلى المقعد الخلفي، وأمَرَا السائق بأن يتَّجه نحو أقرب مستشفى، فانطلقت السيارة عبر الشارع، قال لَابُوْدَه:

- هل يزداد الألم؟

فأجاب الرجلان كلاهما معًا في نفس اللحظة:

- وارد.

قال النازيُّ موجهًا الحديث إلى غريمه:

- أنت خائن الشعب، وضعُك أفضل من وضع أي عامل، وملابسك أحسنُ نوعًا ما، ويبدو لي أنك كنت متواطئًا في الحدث.

فأجابه الشيوعي:

- بل أنت «خائن العمال».

ولم يلبثا أن تصايحا:

- أيها النذل...

- أيها القرد...

تحسس الشيوعيُّ جيبه، فأمسك لَابُوْدَه بمعصم يده قائلًا:

- أعطني هذا المسدس!

امتنع الرجل عن تسليم مسدسه، فأخذه منه لَابُوْدَه بالقوة، ودسَّه في جيبه، ووجَّه الحديث إليهما قائلًا:

- أيها السادة، نحن متفقون جميعًا على أنَّ الوضع في ألمانيا متعثرٌ، وعلى أنه لا أمل في وضع أفضل، أمَّا إذا كنا نحاول الآن الاعتراض على ظروفٍ لا يمكن احتمالها عن طريق الديكتاتورية الباردة.. فهذه خطيئة سنجني عاقبتها جميعًا في وقت قريب، ومع ذلك فإنه لمن العبث أنْ تطلقا النار بعضكما على بعض لإحداث مزيد من الثقوب في أجسادكما، كان حريًّا بكما أنْ تُحسِنا التصويب حتى يقتلَ كل واحد منكما صاحبه؛ وعندئذٍ سيكون من الواجب علينا نقلكما إلى المقابر عوضًا عن المستشفى، فحزبكما يعلم فقط من عدوِّه الذي يحاربه وأنتم لا تعلمون. وحزبكما.. حزبكما معًا..

(موجِّهًا نظره إلى العامل).

قاطعه الشيوعي قائلًا:

- نحن نكافح ضد مستغلي البروليتاريا، وأنت بُرْجوازِيّ.

- نعم، أنا بُرْجوازِيّ. هل هذه الكلمة تُعدُّ في يومنا هذا سُبَّة؟

تألم أحدهما واتَّكأ على جانبه، وحاول جاهدًا ألَّا يصطدم رأسه برأس الرجل الآخر، ومضى لَابُوْدَه يتابع حديثه:

- البروليتاريا جماعة فئوية، إنها أكبر جماعة تهتم بمصالحها فقط، أنتم تريدون حقوقكم، ومن واجبكم أنْ تبحثوا عنها، وأنا صديقكم، لأن عدونا واحد، ولأني أحب العدالة، أنا صديقكم مع أنكم لا تريدون صداقتي، ولكن يا سيدي، حتى لو وصلتَ إلى السلطة ستظل القيم الإنسانية تنتحب في الخفاء، الإنسان ليس ذكيًا بالقدر الكافي، لأنه بائس محتاج.

شرع الرجل في الحديث.

- زعيمنا...

قاطعه لَابُوْدَه:

- لا نريد الحديث عنه.

توقفت العربة أمام المستشفى، ورنَّ فابْيَان جرس البوابة، ففتح البوّاب، وجاء الممرضون، وحملوا الجرحى من السيارة إلى الداخل، ثم مدَّ طبيب المراقبة يده مصافحًا أصدقاءه وهو يقول ضاحكًا:

- هل أحضرتما إليّ سياسيين؟ لقد جاءني هذا المساء تسعة أشخاص، أحدهم مُصاب بجرحٍ غائر في معدته. هم عمال،

وموظفون جَهْوَرِيُّون، هل لفت انتباهكما أنَّ معظم المصابين من سكان الضواحي الذين يعرف بعضهم بعضًا؟ لقد اعتادوا تبادل إطلاق النار ببساطة كأنها معركة تقع في القاعة على أماكن الرقص. فالموضوع هنا وهناك يتعلق بزوائد برزت في حياة الاتحاد الألماني، وفي المجمل لدينا انطباع عام بكونهم يريدون تقليص عدد البطالة بهذه الطريقة التي يسمحون بها للناس بتبادل الطلقات الناريّة ليقتل بعضهم بعضًا، يا لها من طريقة غريبة للمساعدة الذاتية!

قال فابْيَان:

- يمكن أنْ يُفهم من ذلك أنَّ الشعب مضطرب.

أجابه الطبيب قبل أن يغلق البوابة:

- بالطبع. تعاني قارتنا مرض التَّيفُود، بدأ المرضى بالفعل في الهلوسة، وضرب بعضهم بعضًا. وداعًا يا صديقي.

أعطى لَابُوْدَه السائق أُجرته، وأمره بأنْ يغادر، ومضى الرجلان يعبران الطريق في صمت، ثم توقَّف لَابُوْدَه وقال لفابْيَان:

- أنا لا أستطيع أن أرجع إلى البيت الآن، تعال نذهب إلى «ملهى المجهولين».

- ما هذا؟ لم أسمع به من قبل!

- أنا أيضًا لا أعرفه، كل ما أعلمه أن رجلًا داهيةً قد جمع مجموعةً من أشباه المجانين، وجعلهم يغنون ويرقصون هناك،

وفي المقابل يدفع لهم بضعة ماركات، وهم يسمحون للجمهور أنْ يسبوهم ويسخروا منهم، وربما -لجنونهم- لا يلحظون ما يوجِّهه إليهم الجمهور من سباب أصلًا! هذا الكباريه يكتظُّ دائمًا بالناس، وطبعًا السبب في ذلك مفهوم؛ فالناس متعطشون لانفراج أساريرهم برؤية أُناس أكثر جنونًا من ذواتهم شخصيًّا!

وافق فابْيَان، والتفت مرة أخرى نحو المستشفى الذي يتلألأ ضوء الدب الكبير فوقه، وهنالك أردف فابْيَان:

- نحن نعيش في عصرٍ كبير، ولكننا نصير أكبر منه كل يوم!

الفصل السابع

مجانين فوق المنصة

رحلة موت باول موللر

عامل مصنع في حوض الاستحمام

تزاحمت سيارات الزُوَّار أمام الملهى، وكان على الباب رجل ذو لحية حمراء، يعتمر قبعةً يعلوها الريش، وقد حملت يده سلاحًا حربيًا تاريخيًا يتكون من رمح يتدلى من جانبه فأس، أسند الرجل كتفه إلى باب الملهى وهو يصيح:

«هيا.. هلموا إلى الداخل! أقبلوا نحو الزنزانة!».

دلف لَابُوْدَه وفابْيَان إلى داخل الملهى، وخلع كلٌّ منهما معطفه وعلَّقه، وبمشقة بالغة وجهد كبير وَجَدَا موضعًا لجلوسهما في أحد الأركان الجانبية، فشقًّا طريقهما نحوه وسط المكان الذي كان يعج بالدخان الكثيف الذي أطلقه المدخنون، وهنالك شرعت فتاة توزِع ابتساماتها بلا هدف تقفز فوق خشبة المسرح المهتزَّة، أغلب الظن أنها الراقصة، وكانت قد ارتدت فستانًا زاهي الخُضرة، حاكته

بنفسها، وكانت تحمل في يديها نباتًا صناعيًا من أنواع النباتات المُتسلقة.

كانت الفتاة تقفز في الهواء فتتطاير معها أوراق النبتة على فترات زمنية غير متباعدة.

جلس إلى شمال المسرح شيخ كاسِف الوجه، أَدْرَمُ بلا سِنٍ واحدة في فكّيه، وكان يعزف مقطوعة الملحمة الهنغارية[1] على البيانو، ولم يكن من الواضح ما إذا كانت الموسيقا التي تُعزف لها علاقة متناغمة مع رقص الفتاة، أم أن كل واحد منهما يعمل بشكل منفرد، وقد كان الجمهور يرتدي أفخر الثياب وأفخمها، والجميع منغمسٌ في شرب الخمر، وقد علا ضجيجهم وهم يتحدثون، أو يطلقون الضحكات.

تقدم رجل أصلع نحو الراقصة، هو -تقريبًا- مدير هذا المكان، وقال لها:

- سيدتي.. يريد شخص ما التحدث معك على الهاتف.

وما كاد الرجل يُنهي كلمته تلك حتى غرق الجميع في نوبة ضحك لم يُشهد مثلها في القاعة من قبل، بَيْدَ أن الراقصة لم تحفل بضحكاتهم، ولم تعبأ بضجيجهم، وإنما مضت تقفز باسمةً في الهواء حتى توقف العزف على البيانو، ومن ثم انتهت مقطوعة الملحمة

(1) قطعة بيانو تعتمد على موضوعات شعبية مجريَّة. لحَّنها الموسيقار فرانز لِيْست خلال الأعوام 1853-1846. (المحرر)

الهنغارية، وعندها رمقت الراقصة عازف البيانو غاضبةً، ثم استمرت في القفز لأنها لم تكن قد أنهت رقصتها بعد، وعندها اقتربت منها سيدة تسعى نحوها في بطء، وتحمل عدسةَ نظارة مفردةً، وقالت لها حين اقتربت منها:

- أيتها الأم، صغيرك يناديكِ.

ردَّد شخص ما يجلس على منضدة بعيدة.

- صغيرك؟

التفتت السيدة:

- ليس لديَّ أطفال!

صاح شخص ما في الخلف.

- يمكنكم أنْ تضحكوا.

صاح رجل آخر:

- هدوء!

توقفت المشادَّة الكلامية التي لم تكن الراقصة تحفل بها، كانت تواصل حركاتها وقفزاتها رغم كل شيء، ومع أنه من المفترض أنْ تكون ساقاها تؤلمانها منذ فترة طويلة.. واصلت الرقص، وأخيرًا اكتشفت بنفسها أنه يجب أنْ تتوقف الآن، فأنهت رقصتها بحركة خاطئة، ومن ثم التَوَتْ قدمها تحتها، فما كان منها إلا أن واصلت ابتساماتها البلهاء في بلادة تفوق ما أبدته من قبل، ثم نهضت من كَبوتها، ومدت ذراعيها إلى الأمام تحيةً لجمهورها، فنهض نحوها رجل بدين يطلق دخان سيجارته في الهواء وهو يقول:

- جيد، جيد جدًّا! من الممكن أنْ تأتي غدًا لكي يصفقوا لك.

صاح الجمهور، وصفق لها بالفعل، فانحنت الراقصة أمامهم مرارًا وتكرارًا. ثم جاء رجلٌ من الكواليس، وأخذ الراقصة بالقوة من فوق خشبة المسرح، قاومته بلا جدوى، أزاحها إلى الداخل، وخرج هو نفسه ووقف على مقدمة المسرح، فيما نادته سيدة جالسة في أول صف:

- برافو كَالِيجُوْلا!

إنه كَالِيجُوْلا، وهو شاب يهودي مستدير الجسد، يرتدي نظارةً، توجَّه كَالِيجُوْلا إلى الرجل الذي يجلس بجوار السيدة التي نادته من الصف الأول، وقال له:

- هل هذه زوجتك؟

أومأ الرجل برأسه موافقًا، فقال له كَالِيجُوْلا:

- إذًا في وسعك أن تُخرسها!

صفق الجميع، وتورَّدت وجنتا الزوج الجالس في أول صف، فيما شعرت زوجته بالملاطفة والإطراء، فرفع كَالِيجُوْلا يداه، وصاح موجهًا نداءه إلى الجمهور:

- الهدوء! أيها المعاتيه!

عمَّ الهدوء المكان، فاسترسل كَالِيجُوْلا:

- ألم يكن الرقص اليوم مغامرةً؟

صاح الجميع بقوة:

- «بلى.. كان مغامرةً حقًّا».

تابع كَالِيجُوْلا:

- الآن ستشاهدون الأفضل، سأرسل إليكم الآن رجلًا اسمه باول موللر، نشأ في تولكيفيتس التي تقع في مقاطعة زاكسن، يتحدث اللهجة الساكسونية، ويدَّعي أنه مُنشِد شِعر، سوف يُنشد عليكم اليوم قصيدةً قصصيّةً بصوتٍ جَهْوَرِيّ؛ فلتكونوا على أهبة الاستعداد، إن باول موللر رجل مجنون، ومع ذلك لم أبخل عليه بالمال، دفعت له كي أضفي بوجوده قيمةً على هذا الملهى، أجل إن باول موللر يمثل قيمةً كبيرةً؛ لأنه مجنون، لا يمكنني أن أمنع نفسي من استقدام مزيد من المجانين لإسعاد جمهوري.

انتفض أحد أفراد الجمهور الجالسين، وهبَّ واقفًا، ثم راح يشدُّ معطفه بيده مسوِّيًا التواءات القماش، طالع كَالِيجُوْلا بوجه مليء بالندوب قائلًا:

- حتمًا سيستمر هذا الأمر هنا في الكباريه.

زمَّ كَالِيجُوْلا شفتيه، وقال للرجل:

- اجلس أيها الأحمق! أتراك تعرف بالفعل أنك أحمق؟

استطرد صاحب الملهى قائلًا:

- على أيِّ حال.. لا أقصد المعنى السيئ لكلمة «أحمق»، ولكنها بالفعل الصفة المميزة لك.

ضحك الناس، وواصلوا التصفيق، استاء الرجل ذو الوجه الناتئ بالندوب، وهَمَّ بالحركة، لكن واحدًا من معارفه كان قد جذبه إلى الكرسيِّ وهدّأ من روعه.

أمسك كَالِيجُوْلا جرسًا في يده، دق الجرس كأنه حارس ليليٌّ، ثم صاح:

- والآن إليكم.. باول موللر!

غاب كَالِيجُوْلا في داخل المسرح، فيما تقدم إلى صدارته رجل شاحب الوجه جدًّا، مديد القامة، يرتدي أسمالًا بالية، وصاح واحد من الجمهور:

- أهلًا موللر.

قال أحد الجالسين ساخرًا:

- لقد نما جسده بسرعة كبيرة.

انحنى موللر، وبدت قسمات وجهه جادةً، مرَّر يده على شعره، وفرك عينيه بيديه، تماسَكَ، وفجأةً سحب يديه عن عينيه ومدَّهما أمامه، ثم بسط أصابعه وقال:

- رحلة موت، لباول موللر.

ثم تقدَّم خطوة إلى الأمام، فصاحت السيدة التي كان كَالِيجُوْلا قد أمر زوجها بإخراسها قائلةً:

- كن حَذرًا، وإلا سقطتَ من فوق خشبة المسرح.

تقدم باول خطوةً قصيرة إلى الأمام، ثم نظر إلى الجمهور بازدراء، وبدأ من جديد:

- رحلة موت باول موللر...

«هذا كان دوق هوهنشتاين

الذي حبس ابنته

لأنها عشقت ضابطًا

هنالك قال لها أبوها: ستظلين عندي!»

في هذه اللحظة رمى أحد الجالسين مكعب سكر على خشبة المسرح، انحنى باول موللر وأخذ قطعة السكر ودسَّها في فمه، وواصل بصوتٍ واهن خفيض:

«كانا يستعدان للهرب..

وكانت الكونتيسة النبيلة هي العون لهما

فهرب معها في عربتها،

كان طريقًا ضيقًا وفقرًا،

وعلى مُبَرِّد الموتور كان يقف الموت»

قُذِف باول موللر بمزيد من قطع السكر التي تساقطت على الأرض، الراجح أن زبائن قدامى مأجورين من صاحب الملهى هم من بدؤوا هذه الدعابة، كيما يقلدهم الزُوَّار الجُدد، وما إن بدأت الدعابة حتى توالت قطع السكر المقذوفة على باول من كل صوب وحدب، حاول باول الإمساك بقطع السكر، ووضع بعضها في فمه،

إلا أن قسمات وجهه بدت مثارةً ومهددةً بشكل أكثر، وراح صوته يزداد وهنًا وضعفًا، لم يكن صوته مسموعًا بالقدر الكافي؛ لكننا استطعنا تقريبًا أن نعرف أنَّ كونتيسة هوهنشتاين لم تقد السيارة في تلك الليلة المرعبة لكي تصل إلى الضابط، وأنَّ عشيقها كان أيضًا في سيارته التي اقتربت من القصر، فقد خمَن أنها موجودة فيه؛ في الوقت الذي كانت تُسرع فيه هي للقائه، وأنّ كل واحد منهما قاد سيارته في الطريق الزراعي متوجهًا نحو الآخر؛ ولأنها ليلة ممطرة غائمة؛ ولأن عنوان قصيدة الشِعر هو رحلة الموت كان الاحتمال الأرجح أنْ تصطدم العربتان معًا، كان إنشاد باول موللر لا يحمل أدنى شك في ذلك.

تصايح الناس:

- لا بد من وقوع الحادث، ليس مِن شك في ذلك!

- أغلِق فمك يا باول، وإلا ستسقط نشارة الخشب من جمجمتك!

وواصل باول موللر إنشاده:

«عربة الضابط كانت إلى الجهة الشمال

وعربتها إلى اليمين

وفجأة وقع الحادث الأليم

صراخ من الجهة الشمال

وصراخ من الجهة اليمين»

صفق الجمهور وهلل، لقد اكتفوا بالسخرية من باول موللر نفسه، ولم يعُد عندهم اهتمام بسماع ما سيحدث في نهاية هذه القصة التراجيدية، ومع ذلك فقد واصل باول إلقاء الشعر؛ لكن الجمهور لم يَرَ إلا شفتيه تتحركان من دون أن يُسمع منهما أي كلمات.

ضاعت قصيدة رحلة الموت في غمرة الضوضاء، وتجهَّم الشاعر القصصي الهزيل، وبدا الغضب على وجهه الشاحب؛ فقفز من المسرح، وهزَّ امرأةً من كتفيها بقوة، ونبَّهها إلى أنّ سيجارتها ستسقط من فمها على ثوبها الحريري الأزرق؛ فعنَّفته المرأة في غضب، وهبَّ رفيقها من مكانه الملاصق لها، وراح يسب الشاعر، فما كان من بول موللر إلا أن لكمه في وجهه، وأمره بأن يعود إلى كرسيّه، وتداعت بعض النغمات الناشزة كأنها نباح كلب، وهنالك ظهر كَالِيجُوْلا، وبدا غاضبًا كأنه مروِض حيوانات يكزُّ على أسنانه، جذب الرجل من رابطة عنقه واقتاده إلى غرفة الفنَّانين، وكان لَابُوْدَه يتابع تلك الأحداث، فقال واصفًا كَالِيجُوْلا:

- يا له من شيطان يخلط ما بين الساديَّة والجنون!

أردف فابْيَان:

- يبدو أنها ظاهرة عالميَّة، نفس هذا المشهد موجود أيضًا في باريس.

هنا هتف الجمهور:

- أَجْهِز عليه! أَجْهِز عليه!

بعدها تظهر بغتة يدٌ خشبية عملاقة من خلف الكواليس تجرف هؤلاء المساكين من فوق خشبة المسرح، عندها لم يعد لَابُوْدَه يحتمل هذا المشهد، انتفض واقفًا ومشى، وتبعه فابْيَان، لكنه أحس فجأةً بيدٍ تضربه على كتفه من الخلف، التفت نحو مصدر الضربة، فرأى ذلك الرجل الذي يحمل في وجهه ندوبًا غائرةً، رآه متهلِّلَ الوجه وهو يقول له في بشاشة ولطف:

- أيها الشاب الكهل، كيف حالك؟

- بخير، شكرًا.

- إنك لا تعلم كم سررتُ لرؤيتك.

ثم عبَّر عن فرحته بلقاء الأكاديمي فابْيَان بأن وجَّه إليه ضربةً جديدةً في منتصف صدره، وقعت فوق أزرار قميصه، فقال له فابْيَان ساخرًا:

- تعال معي حتى نستكمل هذا الضرب في الخارج.

ثم تزاحم فابْيَان ولَابُوْدَه مع الآخرين لكي يصلا إلى الأمام، وقال فابْيَان للَابُوْدَه الذي كان يحاول ارتداء معطفه:

- عزيزي.. دعنا نسرع من هنا، لقد ثرثر أحدهم معي الآن بدون توقف، وكان يخاطبني بدون تحفُّظ، وبدون ألقاب.

تأخر الوقت كثيرًا، التقط فابْيَان ولَابُوْدَه قبعتيهما، وكان من ورائهما ذلك الرجل ذو الندوب الغائرة وهو يدفع سيدةً أمامه كأنها لا تستطيع المشي، قائلًا لها:

- هل ترين يا مِيتَا هذا السيِّد؟ لقد كان أنجب طالبًا في الفصل.

ثم التفت إلى فابْيَان وقال:

- هذه زوجتي، أيها الشاب الكهل. إنها بالتأكيد نصفي الحُلو، نحن نعيش في ريمشايد، لم أعد أعمل قاضيًا الآن، إنني أعمل حاليًّا في محل لبيع الأدوات الصحية، نصنع أحواض الاستحمام، إذا احتجتَ إلى واحدٍ يمكنك الحصول عليه بسعر الجملة. أحوالي على ما يُرام؛ زواج سعيد، شقّة في منزل فيه عائلتان فقط، وخلفه حديقة كبيرة، أدّخر مبلغًا من المال، كذلك رُزقنا بطفل، ولكنه لا ينمو بمعدلٍ طبيعي.

اعتذرَتْ مِيتَا لتدخلها في مسار الحديث، وأوضحت بيديها كيف كان طول الطفل قائلةً:

- لقد وُلِد كبيرًا، لكنه لا ينمو الآن!

واساها لَابُوْدَه قائلًا:

- لا تقلقي، سوف يكبر.

فأومأتْ إليه السيدة ممتنةً لكلمته، ثم تأبطت ذراع زوجها الذي وجَّه الحديث إلى فابْيَان قائلًا:

- والآن جاء دورك أنت، لتحكِ لنا عما فعلته في حياتك!

واصل الأكاديمي فابْيَان كلامه:

- لا أصنع شيئًا مميزًا بعينه، أمارس حاليًّا هوايات فنية يدوية في مكوك فضائي، أريد زيارة القمر ذات مرة.

قال الرجل الذي صاهَر أصحاب شركة أحواض الاستحمام:

- ممتاز؛ ألمانيا ستزدهر وتتقدم، وكيف حال أخيك؟

قال فابْيَان:

- ما أروعك! أنت تفاجئني دائمًا بأخبار جديدة سعيدة، لقد تمنيت دائمًا أنْ يكون لي أخٌ بالفعل؛ ولكن عندي سؤال متواضع لكم.. في أي مدرسة ثانوية درستَ حضرتك؟

- في ماربورج، بالطبع.

رفع فابْيَان كتفيه وهو يشعر بأسًى ثم قال:

- بالتأكيد هي مدينة ساحرة، ولكني لا أعرفها على الإطلاق.

تجهَّم الرجل قائلًا:

- إذًا فأنا آسف جدًّا، لقد اختلطت عليَّ الأمور، من المؤكد أنني ظننتُك شخصًا آخر بسبب التشابه بينكما في الشكل، لم أقصد ذلك.

اختزل باقي الكلام وقال مقتضبًا:

- تعالي يا مِيتَا!

رمقت مِيتَا فابْيَان في اضطراب. أومأت للَابُوْدَه وتبعت زوجها، ثم اختفيا، وقال فابْيَان مُمتعضًا:

- يا له من قردٍ لعين! يتحدث مع الغرباء كأنه فرد من معارفهم أو واحد من أُسَرهم. لقد ظننت أنَ كَالِيجُوْلا قد اتفق معه على فعل ذلك.

أردف لَابُوْدَه قائلًا:

- لا أعتقد، فقصة أحواض الاستحمام حقيقية بالتأكيد، وكذلك قصة الطفل المُخيف.

مضى كلاهما في طريق العودة إلى المنزل، نظر لَابُوْدَه إلى الأسفلت واجمًا ثم قال بعد برهة:

- يا له من عار! هذا الرجل الذي كان قاضيًا عنده الآن منزلٌ، وحديقة، ووظيفة، وسيدة عندها نمش في وجهها، وكل شيء! ونحن نهيم في الشوارع كالمتشرِّدين بلا وطن، ولا وظيفة، ولا دخل ثابت، ولا هدف محدد، ولا حتى حبيبة ثابتة!

- أنت عندك لِيدَا.

واصل لَابُوْدَه شكواه قائلًا:

- وما فائدة ذلك؟ فهذا الرجل عنده ابنٌ مولود من صُلبه.

أجابه فابْيَان:

- لا تكن حاقدًا؛ فهذا القاضي المثقف، صاحب مصنع أحواض الاستحمام، ليس إلا استثناءً لا يُعوَّل عليه، من يستطيع الزواج اليوم من الرجال الذين بلغوا الثلاثين؟ إنهم ما بين عاطلٍ ومهدَّدٍ بفقد وظيفته، وبعضهم لم يعمل على الإطلاق، فدولتنا ليست مهيأةً لتَفَهُّم الحقيقة التي مُفادها أنَّ الأجيال تنمو وتتجدَّد، مَن لا يصادفه الحظ وتسوء أحواله فليظل وحده بدلًا من أن يتقاسم باقي عمره مع زوجة وأطفال، ومَن يفعلها رغم

الظروف السيئة ويتزوج وينجب أطفالًا فسيكون ربَّ أسرة مهملًا على أسوأ تقدير. لا أدري من صاحب مقولة «الحزن الذي نتشاركه مع الغير ليس إلا نصف الأحزان»، لكن حتمًا ينبغي أن يحيا ذلك الرجل الثرثار الذي يتحدث إليك، ومن ثَمَّ أتمنى له مائتي مارك شهريًا، وعائلةً مكونة من ثمانية أفراد، هكذا يمكنه أنْ يقسم معاناته على ثمانية أجزاء.

وتطلَّع فابْيَان إلى الجانب الذي يقابله من وجه صديقه، ومضى يتابع حديثه ويقول:

- على أيِّ حال، ماذا يضيرك أنت في هذا الذي ذكرته؟ فوالدك يعطيك المال، وعندما تحصل على تصريح التدريس بالجامعة ستجني مالًا وفيرًا بالتأكيد، ثم تتزوج لِيدَا، وصديق والدك ليس لديه أيُّ مانع في عقد هذه الزِّيجة.

قال لَابُوْدَه قبل أن يشير إلى سيارة تاكسي عابرة:

- عندي مشكلات أخرى غير مشكلاتي المالية. أستأذنك يا فابْيَان ولا تغضب مني، أريد أنْ أكون بمفردي هذه الليلة، هل من الممكن أن تأتي إليَّ غدًا عند والديَّ؟ لا يزال لديَّ مزيد لأحكيه لك.

مدّ لَابُوْدَه يده مصافحًا صديقه، وصعد إلى السيارة التي كانت تنتظره، فسأله فابْيَان عبر نافذة سيارة الأجرة المفتوحة:

- هل يتعلق الأمر بلِيدَا؟

أومأ لَابُوْدَه موافقًا، ونكَّس رأسه إلى أسفل، ثم انطلقت السيارة في الشارع، وظل فابْيَان يتابعها بعينيه حتى تلاشت تمامًا، وصاح فابْيَان:

- سوف أزورك بالفعل...

اختفت السيارة تمامًا، وفطن فابْيَان إلى ما تركه لَابُوْدَه في يده، لقد كانت ورقة نقدية قيمتها خمسون ماركًا.

الفصل الثامن

الطلاب مهتمون بالسياسة

لَابُوْدَه عاشق للحياة

صفعة على بحيرة ألستر

يعيش والدا لَابُوْدَه في معبدٍ يوناني كبير واقع في غابة جرونفالد[1]، والحقيقة أنه لم يكن معبدًا بالمعنى الحرفي للكلمة، في وسعنا أن نقول إنه فيلًا، وفي الحقيقة أيضًا أنهما لم يقطناها قط، إذ كانت الأم دائمة السفر، وغالبًا ما كانت تشدُّ الرحال إلى الجنوب حيث تقطنُ منزلًا في ريف مدينة لوجانو الإيطالية، والسبب في ذلك -في المقام الأول- أن المدينة راقَتْها أكثر من بحيرة غابة جرونفالد، وأخيرًا لأن والد لَابُوْدَه لاحظ أنَّ صحة زوجته تتحسن بإقامتها في الجنوب، فقد كان يعشق زوجته بالأخص حينما تغيب عنه، وكان ميله يزداد إليها بسبب بُعد الشُّقَّة بينهما.

---

(1) غابة في غرب مدينة برلين. (المحرر)

كان والدُه محاميًا مشهورًا، في عهدته قضايا كثيرة، ويدفع له موكلوه مالًا كثيرًا، ورغم ذلك فهو يعيش في قلق دائم، لم يكتفِ بما يجنيه من قلق بسبب عمله؛ وإنما جرَّ عليه مزيدًا من القلق بسبب ما يلاقيه في صالات القمار كل ليلة، لقد كان يبغض هدوء الفيلَّا، كما أنَّ عيون زوجته التي تفيض لومًا عليه جعلته يشعر باليأس من الإقامة معها، وكان كلاهما يتجنَّب لقاء صاحبه، ومن ثَمَّ كانت الإقامة في تلك الفيلَّا منبوذة من كليهما. وكان الابن شْتِيفان إذا أراد أنْ يراهما لاحقهما في الحفلات التي كانا يقيمانها في الشتاء، وأمسى -فيما بعد- رافضًا مثل هذه المناسبات، فلم يعد يذهب إليها، واكتفى برؤية والديه من دون قصد، وبمحض المصادفة.

لم يكن شْتِيفان يعلمٍ كثيرًا عن حياة أبيه؛ إلا أنه التقى يومًا ممثلةً شابة في حفلة تنكرية، واستفاضت تلك المرأة تحكي عن عشيقها السابق الذي منحته آنذاك كثيرًا من المال، كثير من النساء المتهوِّرات يحاولنَ اصطياد عشاق جدد من خلال الإسهاب في الحديث عن عشاقهن القدامى، وفضح أسرارهن الحميمية، وعندما أفاضت تلك الممثلة في الحديث عن عشيقها السابق اكتشف شْتِيفان أنها تتحدث عن والده المحامي لَابْوْدَه، فاضطر إلى مغادرة الحفل حانقًا، وركض مسرعًا كالهارب من فضيحة!

لم يكن فابْيَان يحب زيارة صديقه في تلك الفيلَّا البغيضة، الغارقة في التقاليد السخيفة، ولم يكن في وسعه أن يتصور أن مالكي هذا المكان الأنيق العامر بمظاهر الفخامة والثراء مجرد زُوَّار عابرين

يطرقونه ما بين حين وآخر، وكان يلتمس العذر لوالدَيْ شْتِيفان، إذ يشعران بالاغتراب في هذا المَتحف السكني.

قال فابْيَان لصديقه شْتِيفان الذي جلس إلى المكتب:

- أمر مفزع؛ كل مرة حينما آتي إلى هنا، أتوقَّع أنْ يقدم لي خادمكم حذاءً منزليًا، ويصحبني في جولة سياحية في أرجاء القصر، على أيّ حال أشكرك على المال الذي تركته لي آنفًا.

أشار لَابُوْدَه له بالنفي وقال لصديقه:

- دع عنك هذا الأمر! أنت تعرف أن المال ليس قضيتنا، وأن معي المزيد، بل أكثر مما أحتاج، لقد دعوتُك إلى هنا كي أحكي لك ما حدث في هامبورج.

جلس فابْيَان على الأريكة، إنه الآن قابع خلف ظهر لَابُوْدَه، فصديقه لا يحب أن يراه أحد حين يتكلم في أموره الموجعة، نظر كلاهما إلى المروج الخضراء التي تكشفها النافذة المفتوحة التي بدا من خلالها سقف الفيلّا المكسوُّ بالقرميد الأحمر، وما بين الفينة والفينة يتسلل طائر إلى حافة النافذة، ويرمق الغرفة برأس مائلة إلى أسفل، ثم يطير نحو الحديقة متبوعًا بخشخشة صادرة عن شوكة تنظيف حشائش الحديقة التي يجرف بها شخص ما في الخارج بعض الحصى. تفحَّص لَابُوْدَه فروع الشجرة المجاورة له، ثم قال:

- كتب لي رَاسُوفْ أنَه تحدَث في قاعة محاضرات هامبورج التي امتلأت بالطلبة -مُمثلي جميع التيارات الفكرية- عن

موضوع التقاليد والاشتراكية، واقترح عليَّ أنْ أتحدث في إطار المناقشة عن خططي السياسية، أو باعتباري مشرفًا مشاركًا في تحكيم الرسائل العلمية، فسافرت إلى هناك، وبدأت المحاضرة. حكى رَاسُوفْ لطلابه عن رحلته إلى روسيا، وعن تجاربه، وأفاض في ذكر الأحاديث التي أجراها مع الفنانين الروس والعلماء، لكن ممثلي الطلاب الاشتراكيين قاطعوه في أثناء حديثه بلا توقف، ثم تكلم أحد الشيوعيين فتشتَّتَ حديثه بسبب مقاطعات أحد البُرجوازيين. ثم جاء دوري، فأوضحت الموقف الرأسمالي الذي تتبنَّاه أوروبا، وطالبت الشباب البرجوازي بسرعة التصرُّف حتى يتدارك هذا الحُطام الذي يحيط بنا من جميع النواحي، كما ذكرت أن على الشباب تقلُّد الدور القيادي، سواء في السياسة أو في الصناعة والتجارة وتسويق العقارات، فالآباء قد أفلسوا، واليومَ جاء دورنا للقيام بالدور الإصلاحيِ في القارة الأوروبيّة من خلال المعاهدات الدولية، وتقليصِ المنافع الشخصية طواعيةً، وتقليل التضخم الرأسمالي والتقنيِ إلى الحد المعقول، وزيادة الخدمات الاجتماعية عن طريق الترسيخ الثقافي للتربية والتعليم، كما ذكرتُ أنَّ هذه الجبهة الجديدة تقتضي التواصل بين الطبقات، وهذا أمرٌ ممكن الحدوث، لأن الشباب -أو على الأقل النُخبة منهم- يبغض الأنانية المطلقة، فضلًا على كونهم أذكياء بالقدر الكافي لتفضيل العودة إلى الظروف العضوية

على الانهيار المؤكد للنظام. وإذا لم تصح الأمور بدون الهيمنة الطبقية فينبغي علينا إذًا الموافقة على النظام لفئتنا العمرية. استقبل ممثلو الجماعات المتطرفة كلامي بتشجيع وحفاوة، إلا أنه عندما أعدَّ رَاسُوفْ طلب تكوين مبادرة لمجموعة برجوازية متطرفة لاقى هذا الطلب حفاوةً وتصفيقًا. تكوَّنت المجموعة وأرسلنا إعلانًا إلى كل الجامعات الأوروبية، نريد أنا ورَاسُوفْ وبعض الزملاء الآخرين زيارة الكليات الألمانية، وإلقاء محاضرات وتكوين جماعات مشابهة، نحن نأمل -عن طريق هؤلاء الطلاب الاشتراكيين- تشييد اتحاد احتكاري، إذا نجحنا في تأسيس هذه المجموعات الطلابية في كل الجامعات فستتشكَّل هيئة تكون بمثابة نواة من المثقفين، وقد شرعنا في ذلك بالفعل، لم أخبرك أمس بشيءٍ من هذا لأني أعرف جيدًا شكوكك بالقدر الكافي.

قال فابْيَان:

- كم يسرُّني سماع ذلك! أنا في منتهى السعادة، لأنك بدأت بالفعل تحقيق خططك المستقبلية. هل تواصلتَ أيضًا مع جماعة الديموقراطيين المستقلين؟ ضع في اعتبارك أيضًا أنه في كوبنهاجن قد أُسِّس «نادي أوروبا»، ولا تغضب بشأن مخاوفي وشكوكي في السلوك الحميد للشباب، ولا بسبب قلة إيماني بإمكانية تزاوج السلطة والعقل، الأمر كله ليس إلا تناقضًا أُومِن به عن قناعة شخصية. كما أني مقتنع تمامًا

أنه لا يوجد سوى خيارين فقط للبشرية: أن يكون المرء غير راضٍ عن نصيبه، ولذلك سيقتُل البشر بعضهم لتحسين الأحوال والظروف، أمَّا الاحتمال الثاني -وهو نظري بحت، وغير محتمل الحدوث- فهو أنْ يتفاهم المرء مع نفسه والعالم من حوله، ولذلك سيقتل الفرد نفسه بسبب الملل والرَّتابة، والنتيجة واحدة في كلتا الحالتين؛ فأيّ فائدة إذًا للنظام الإلهي ما دام الإنسان خنزيرًا؟ لكن ما رأيُ لِيدَا في ما ذكرته لي؟

- امتنعت عن إبداء أيِّ رأي، ذلك لأنها لم تكن موجودة.

- ولماذا إذًا؟

- لم تكن تعلم أني كنت في هامبورج.

انتفض فابْيَان مستغربًا، ثم جلس مرة أخرى صامتًا، مدَّ لَابُوْدَه ذراعيه وتشبَّث بزاوية المكتب قائلًا:

- حقيقة الأمر أنني فقدتُ الثقة بِلِيدَا؛ ولذا بدأتُ في مراقبتها سرًّا. فحينما يتقابل الرجل والمرأة مرتين فقط كل شهر، ويقضيان ليلةً واحدةً معًا، فمن الطبيعي أن تسوء العلاقة، وحينما تنحدر العلاقة إلى الوضع الذي أضحت عليه علاقتنا التي استمرت سنين، فمن الطبيعي أن تنحلَّ وتنفصم أواصرها مع مرور الوقت. هذا الأمر لا يتعلق بكفاءات وقدرات الطرفين على الإطلاق، إنه أمر حتمي. لقد أَلْمَحت لكَ منذ عدة أشهر بأن لِيدَا قد تغيرت؛ بالأحرى تغيرت مشاعرها تجاهي، لقد شَرَعَت في التصنُّع وإخفاء ما بداخلها. أحسبني اكتشفتُ أنَ

قبلات الاستقبال والوداع عند محطة القطار والكلام المعسول والرغبة والانتشاء والشبق معها في الفراش.. لم يكن كل ذلك إلا أدوارًا تتقن تمثيلها!

رفع لَابُوْدَه رأسه، وواصل حديثه الهادئ الذي يهمس به همسًا:

- من الطبيعي أن أشعر في مثل هذه الأحوال بالاغتراب، فلم أعد أعرف شيئًا عن همومها أو هواجسها، ولا حتى اهتماماتها، لم أكن مدركًا أنها تتغير ولا أعلم لصالح مَن يحدث ذلك، لم تكُن جدوى من الخطابات والرسائل. ثم إنني كنت أسافر إليها فأُقبِّلها، وأذهب معها إلى المسرح، وأسألها عما جدَّ من أمورٍ في حياتها، وأقضي معها ليلةً واحدةً، ثم نفترق من جديد. وبعد أربعة أسابيع نكرِّر ما صنعناه مجدَّدًا، على أنه ليس من الممكن أن تستمر علاقة يتحدد فيها تقارب وامتزاج الأرواح بوقتٍ معين، ومن ثَمَّ يُحدَّد موعد العلاقة الحميمية بتاريخٍ أو بساعة في اليد، هي في هامبورج وأنا في برلين، قطعًا سيموت الحب بسبب التباعد الجغرافي!

أخذ فابْيَان سيجارة، وأشعل عود الثقاب برفقٍ، كأنه يخشى أنْ يُؤلِم سطح القَدْح الموجود على جانب علبة الكِبريت، وأرهف السمع إلى صديقه الذي مضى يقول:

- كنت أخشى لقاءَها في الشهور الماضية، كنت أودُّ لو كان بإمكاني أنْ أُمزِّق وجهها كأيِّ قناع حينما كنت أهوي على جسدها فترقد تحتي مغلقةً عينيها، ويرتعد جسدها كأنها

منتشية، فتطوقني بذراعيها. كذبت عليَّ. لكن أتراها تكذب عليَّ أنا؟ أتراها تخدعني أنا؟ أم تكذب على نفسها وتخدعها؟ ففعلتْ ما فعلت لأنها امتنعَتْ عن توضيح ما طلبتُ في مراسلاتي وخطاباتي. وفي الليلة التي أطلقنا فيها مبادرة الجماعات الطلابية استأذنتُ من رَاسُوفْ والآخرين وغادرتُ الجامعة وذهبتُ إلى البيت الذي تسكن فيه لِيدَا. كانت النوافذ معتمة. ربما نامت لكنني لم أستطع تصديق ذلك. فانتظرتُ.

تراوح صوت لَابُوْدَه بين القوة والضعف، وهوى بقبضة يده على المكتب وأمسك بعدة أقلام رصاص ثائرًا ودحرجها بين أصابع يديه، كانت طقطقة أقلام الرصاص التي تقبض عليها أصابعه تتماهى مع صوته وهو يقول:

- كان الشارع عريضًا، واصطفت البيوت في جانبٍ واحدٍ فيه، وعجَّ الجانب الآخر بأحواض الزرع والمروج الخضراء، وفي خلفية المنظر تبدو بحيرة الألستر، وثمة أريكة في مقابل الشارع، فجلستُ عليها أدخن بلا توقف وأنتظر، وكلما لمحتُ شبح أحد المارة وقع في خلدي أنها لِيدَا، انتظرتُ من الساعة الثانية عشرة ليلًا حتى الثالثة صباحًا، كنتُ أختلق في رأسي الأحاديث الحادة والصور السيئة، والوقت يمر. وبعد الساعة الثالثة انعطف تاكسي إلى الشارع وتوقف أمام البيت، فنزل منه رجلٌ طويلٌ ممشوقُ القوام، نقَدَ السائق أجرته، ثم نزلت امرأة مسرعة، أغلقت باب التاكسي ودلفت إلى البيت، فتحت

بابه، وأمسكته حتى دلف الرجل هو أيضًا وراءها، وأغلقت الباب من الداخل، ثم عادت السيارة أدراجها صوب المدينة.

نهض لَابُوْدَه، ورمى الأقلام على المكتب، ودخل غرفةً ثم خرج منها سريعًا، ثم التصق بالحائط في أحد زوايا الغرفة. حلَّقت عيناه في رسم على ورق الحائط، حاول رسمه هو وتقليده بإصبعه وهو يقول:

- لقد كانت لِيدَا، أُضِيئَت نافذتها، رأيت بنفسي من وراء الستارة كيف تَحَرَّكَ ظلهما، انطفأ النور في غرفة المعيشة، والآن أُضيئت غرفة النوم، كان باب الشرفة نصف مفتوح، سمعت صوت ضحكها أحيانًا، هل تعلم أنها كانت تضحكُ بصوتٍ عالٍ على غير عادتها؟ وأحيانًا كان الصوت يعمُّ الشارع كله من أعلاه إلى أسفله، ومع ذلك لم يصل إلى مسامعي إلا خفقات قلبي وأنينه...

انقطع حديث شْتِيفان الشجيُّ إثر ولوج والده لَابُوْدَه المستشار القضائي الغرفة، بدا في ملابس البيت بدون معطف أو قبعة، صافح ابنه قائلًا:

- مساء الخير شْتِيفان، لم أرك منذ مدة طويلة، فقد كنتُ في رحلات عمل لعدة أيام، وآن الأوان لأن أرتاح وأريح أعصابي. كيف حالك؟ أنت لا تبدو على ما يرام! هل أنت قلق بشأن رسالة الأستاذية؟ هل تشعر بالضيق والرَّتابة؟ هل كتبَتْ لك والدتك؟ إنها تريد أنْ تظلَّ هناك عدة أسابيع أخرى، وهي

محقَّة، فهي في الجنة هناك. أهلًا فابْيَان. كيف حالك؟ هل تتناقشان في مواضيع مهمة؟ هل يوجد حياة بعد الموت؟ لا بد أنْ تثق برأيي.. لا حياة بعد الموت. يجبَ أنْ تنجز كل شيء قبل الموت، وأن تبذل قصارى جهدك ليلًا ونهارًا.

وبينما هو يثرثر ناداه صوت نسائي آتٍ من السُّلَّم:

- فريتس[1]، تعالَ إليَّ!

هزَّ المستشار القضائي كتفيه قائلًا:

- عندنا هنا مطربة موهوبة للغاية، ليس لديها وظيفة؛ لكنها تحفظ كل ألحان الأوبرا، وتغني بصوتٍ عالٍ دائمًا. إلى اللقاء. استمتعا بوقتكما بدلًا من التفكير في تحقيق الخلاص للبشرية. كما ذكرتُ لكما.. يجب أن نعيش الحياة قبل الموت. تحت أمركما بشأن أيِّ معلومات أخرى. لا تأخذ الأمور بهذه الجديَّة يا ولدي.

صافحهما وانصرف، ثم أغلق الباب وراءه، وكان لَابْوْدَه -الابن- قد صمَّ أذنيه لفترة طويلة حتى مضى الأب، فكَّر لبرهة ثم شرع في استكمال سرد حكايته:

- قرابة الساعة الخامسة أمطرت السماء، ثم توقف المطر في الساعة السادسة، وأشرقت السماء مجدّدًا، وبدأ اليوم، ومع ذلك كان نور غرفة النوم مضاءً، وكان هذا أمرًا غريبًا في وقت

(1) الاسم الأول للأب. أما اسم العائلة فهو لَابودِه. (المحرر)

شروق الشمس. في السابعة غادر الرجل البيت، صفَّر ريثما خرج من الباب ثم نظر إلى أعلى، حيث كانت لِيدَا تقف في الشرفة مرتديةً ثوب الكيمونو؛ لوَّحت له وودعته، ولوَّح لها هو الآخر، ثم أزاحت السُّترة عن جسدها لبرهة كي يرى جسدها مرة أخرى، فأرسل إليها قبلةً في الهواء، ومضى في الشارع يُصفِّر، نكَستُ رأسي إلى أسفل حتى أغلقَتْ باب الشرفة التي كانت تطلُّ منها من عَلٍ.

لم يعلم فابْيَان ماذا في وسعه أنْ يقول أو يفعل لصديقه، ظل جالسًا في وجوم لا ينطق حرفًا، وفجأة هوى لَابُوْدَه بقبضة يده على المكتب وصاح:

- تلك الحقيرة!

انتفض فابْيَان واقفًا؛ ولكن صديقه أشار إليه كيما يظل جالسًا وقال له في هدوء:

- أنا بخير. لا تقلق. اسمع باقي الحكاية. اتصلتُ بها في وقت الظهيرة. ردت عليَّ وأبدت سعادتها لأني أخيرًا موجود هنا. وسألتني إذا كنت أودُّ رؤيتها في الساعة الخامسة. تمشيت في شارع الميناء لتزجية الوقت بقدر ما استطعت، ثم ذهبت إليها. أعدَّتْ الشاي والحلوى، واستقبلتني بودٍ وترحاب. شربَتْ فنجان شاي وتكلَّمت عن أشياءَ لم أكترث لها، ثم شرعت هي من نفسها في خلع ملابسها. أخذتُ الكيمونو عن جسدها ووضعته على الأريكة. ثم باغتُّها بالسؤال عن رأيها إذا ما

انفصلنا وأنهينا علاقتنا. فسألتني عمَّا يدور داخلي، فقد اتفقنا على الزواج بمجرد أنْ أفرغ من كتابة أطروحة الأستاذية! أتراني لم أعد أحبها؟ أجبتها بأنَّ الأمر لا يتعلق بالحب، لم أكن حتى قادرًا على النقاش معها بسبب ابتعادي المتزايد عنها الذي كانت هي السبب الرئيسي فيه. تمطّت في جلستها، وفردت الكيمونو، وقالت لي بصوتٍ طفولي «أنت رجل بارد»، وأرجَعَتْ شعوري بالاغتراب عنها إليَّ أنا؛ إذ إنها اعترفت بأنه من الصعب عليها مدُّ جسر التواصل الروحيّ بين هامبورج وبرلين، كما أنها لم تعد تشعر بالرضا في علاقتها الحميمية معي، فحينما تشتهيني وتشعر بالرغبة فيَّ لا أكون موجودًا هنا، وحينما أكون هنا يجب أنْ تُسبَق علاقتنا الحميمية بطقوس الحب كأكل الخبز وقت الظهيرة سواء شعرت بالجوع أم لا؛ لكنها قالت: «ربما لو كنا قد تزوجنا لاختلف الأمر»، طَلَبَتْ ألا أغضب لكونها قد أجرت جراحةً منذ أسبوعين، وأجهضت نفسها، ولم تخبرني بذلك حتى لا تزعجني. فضلا على عزوفها عن إنجاب أطفال منِّي قبل الزواج، لا يمكن أن تفعل ذلك حتى تصبح زوجتي رسميًّا وليس قبل ذلك. ثم جلست من جديد على الأريكة، وأشارت إليَّ بأنني يجب أنْ أتمدد أنا الآخر بجانبها؛ لأنها تشتاق إليَّ!

سألتُها: «مَن يكون والد الجنين الذي أجهضتِه إذًا؟»، اعتدلَتْ وبدا استياؤها وانزعاجها على قسمات وجهها، سألتُها مجدَّدًا: «ومَن

يكون هذا الرجل الذي نام عندك الليلة؟». أجابتني: «أنت ترى أشباحًا، كما أنك تغار، وكل أسئلتك لي الآن حمقاء». فصفعتُها على وجهها ومضيتُ. ركضتْ ورائي، نزلتُ السُّلَّم وهي تطاردني حتى وصلَتْ إلى الباب السفلي، وَقَفَتْ هناك شبه عارية لا يستر جسمها إلا ثوب النوم الذي تعبث به الريح، كان ذلك في السادسة مساءً، وكانت تتوسل إليَّ أن أبقى معها وألا أغادر؛ ولكني أسرعت واستطعت الفرار منها حتى ركبتُ الترام.

وقف فابْيَان خلف لَابُوْدَه ووضع يده على كتف صديقه قائلًا:

- لماذا لم تَحْكِ لي كل هذا أمس؟

قال لَابُوْدَه:

- كم هو مؤلم أن تقع ضحيةً للأكاذيب، لكني سأتغلب على ذلك حالًا، ولكن لم يكن في وسعها إلا أن تكذب! أم تراها تجرؤ على أن تقول لي الحقيقة؟ لم يعد في مقدوري أنْ أفكر في هذا الموضوع من جديد. كنت أشعر كما لو أني مريض جدًّا.

قال فابْيَان:

- إنك بالفعل مريض، وأنت ما زلت تحبها.

قال لَابُوْدَه:

- هذا حقيقي.

- وماذا لو كَتَبَت إليكَ من جديد؟

- قُضي الأمر، لقد أمضيتُ خمسة أعوام وأنا أعيش في أوهام، وهذا كاف جدًّا لي، الأسوأ لم أحكه لك بعد؛ إنها لا تحبني، ولم تحبني قَطُّ، لقد تبينت الحقائق الآن فقط، بدت جليَّةً بعد مشهد النهاية، لقد أدركت خداع السنوات الماضية جملةً واحدةً عندما تمدَّدَتْ إلى جانبي، وكذبَتْ عليَّ بدم بارد، أدركتُ ما حدث بالفعل، وفي خمس دقائق فقط فهمتُ كل شيء.

زجَّ لَابُوْدَه بصديقه نحو الباب، وهو يقول:

- دع عنك هذا.. سنذهب الآن إلى رُوت رَايْتِر، لقد دعَتْنا، تعال معي، فلديَّ كثيرٌ يتوجَّب عليَّ تعويضه.

- ومَن تكون رُوت رَايْتِر؟

- لقد تعرَّفت إليها اليوم، وهي -إذا كانت صادقةً في مزاعمها- تنحت التماثيل في مَرسمٍ خاص بها.

قال فابْيَان وهو يرتدي معطفه:

- لا بأس، فكم وددتُ لو وقفت يومًا لأكون موديلًا لمن يرسمُني.

الفصل التاسع

فتيات يافعات متميِّزات

محكوم عليه بالإعدام يبقى على قيد الحياة

المحل اسمه «كُوزِينِه»

- أخيرًا.. هنا رجلان!

أطلقت رُوت رَايْتِر تلك الصيحة عند رؤيتها لَابُوْدَه وفابْيَان، وعلى أعقاب صيحتها تأوهت صديقتها كُولْب التي تعمل مصممة أزياء، تلك التي نفد صبرها بعد أن مرَّ عليها يومان بأكملهما من دون رجل قائلةً: «خذ راحتكَ كأنك في بيتك».

وكان آخر رجل رأته كُولْب قد لقي حتفه في حادث سير، زعمت أنه كان يدفع لها، وما كان ليأخذ منها شيئًا بدون مقابل؛ على أنها ادَّعت أنه عجوزٌ عنين.

قال لَابُوْدَه:

- هذا أسوأ ما في الموضوع، فهاتان الامرأتان تحاوِلان تجربة أنفسهما بلا توقف؛ لمعرفة إذا ما كان الضرر قد تم أُصلح أم لا!

جال ببصره باحثًا عن الفتاة التي تُدعَى كُولْب، وسرعان ما رآها وقد جلست القرفصاء على كرسي الشازلونج ورفعت ساقيها إلى أعلى، ثم لوَّحت له؛ جلس لَابُوْدَه بجانبها، فيما انتظر فابْيَان حائرًا.

كان الأتيليه واسعًا، وفي منتصفه تقريبًا وُضِعت تحت المصباح كتلةٌ من الخشب الخام تتناثر حولها مجموعة من التماثيل، اتُّخِذت تلك الكتلة الخشبية طاولةً، وقد اعتلتها امرأة عاريةً داكنة الشعر، وجلست رَايْتِر على كرسي صغير بلا ظهر وفي يدها دفتر الرسم، ثم شرعت ترسم تلك الفتاة، وقالت بدون أن تلتفِت:

- إنه جدول عمل الليلة، اسم الفتاة «سِيلُوفْ»، هذا وضع جديد يا عزيزتي! قفي، افتحي ما بين ساقيكِ، أديري الجزء العلوي بزاوية قائمة. شَبِّكي أصابعك حول مؤخرة العنق...

اعتدلت السيدة سِيلُوفْ، ووقفَت عارية على الطاولة، وفتحت ساقيها بالفعل، ثم نظرت أمامها بعينين مثقلتين بدون اكتراث، وقالت فجأة:

- هل لديكِ شيءٌ أشربه أيتها البارونة؟ أنا أتجمد من البرد!

قال فابْيَان مؤيدًا ما قالته سِيلُوفْ:

- فعلًا، سِيلُوفْ يقشعر كل جسدها.

اقترب فابْيَان ووقف أمام الموديل ذات البشرة البرونزية، وجعل يتأملها كأنما هو متذوقٌ للفن، فجاءته صيحة رَايْتِر بلهجة عنيفة عابسة:

- ممنوع اللمس!

وفي الجانب الآخر من الغرفة كانت الآنسة كُولْب قد تمدَّدت بين ذراعَيْ لَابْوْدَه كأنها تسبح في ماء الاستحمام الدافئ، وأخذت تقول:

- يداي ناعمتان كأنَّما قُدَّتا من الزُبد، يبدو أنَّ البارون غيور، مع أن لديها علاقة جيدة في جدولها هذه الليلة.

زمجرت رَايْتِر:

- لَابْوْدَه! إذا كنت تنوي أنْ تفعل شيئًا لا يمكن تأجيله مع كُولْب فلا تشعر بالحرج مني، ليس عندي هنا إلا هذه الغرفة. ولكنها غرفة غارقة في الكآبة.

قال لَابْوْدَه:

- تمنعني من ذلك محاذير أخلاقية!

أردفت كُولْب بصوتٍ يعجُّ بالحزن:

- ماذا هنالك؟ عن أيِّ محاذير تتحدث؟

كانت رَايْتِر ترسل بصرها ناحية فابْيَان من أعلى دفتر الرسم ما بين حينٍ وآخر، ثم قالت له أخيرًا:

- إذا كنت تودُّ الاشتراك في النادي فلتتمسَّك بذلك، أنتم لا تحتاجون إلا إلى قرش واحد.

رمت رَايْتِر القرش الذي معها إلى أعلى، وهي تقول:

- أول من يلتقط هذا القرش منكما هو صاحب أحقية المرور أولًا.

صاحت كُولْب:

- أصبتِ كبد الحقيقة؛ لكنه قرش واحد؟ أنتِ تفسدين الأسعار التي حدَّدتُها.

قال فابْيَان بلطفٍ:

- أنا راغبٌ عن ألعاب القمار.

وفي تلك الأثناء ضربت المرأة العارية أرضية الطاولة ضربًا عنيفًا متواليًا بقدميها وهي تقول:

- أريد أن أشرب شيئًا.

نادت رَايْتِر:

- باتينبيرج.. بجانب الكرسي الذي تجلسين عليه طاولةٌ صغيرةٌ عليها زجاجة شراب (جين)، مرِّري الزجاجة إلى هنا.

- بكل سرور.

سُمع صوت جلجلة وضجة يتداعى من وراء التماثيل، ثم رنَّ صوت فتاة غريبة تحت دائرة ضوء المصباح، وناولته كأسًا مُترعةً، تناول فابْيَان الكأس منها وهو يتساءل في دهشة:

- كم عدد النساء هنا بالفعل؟

تضاحكت الآنسة باتينبيرج -تلك التي حملت إليه الكأس- وراحت تقول:

- أنا المرأة الوحيدة هنا.

تفحَّص فابْيَان قسمات وجهها قبل أن تعود إلى موضعها السابق وراء التماثيل، وأدرك أنها -بالفعل- لا تناسب البيئة هنا. تبعها فابْيَان إلى حيث مضت، وهناك جثمت على الكرسي ذي المسندين، فيما وقف هو إلى جوار تمثال من الجبس لامرأة اسمها ديانا، طوَّق فابْيَان خصر تلك التحفة ديانا، ثم نظر عبر النافذة نحو الأفق، وتناهى إلى أذنيه صوت أوامر البارونة:

- الوضع الأخير، عزيزتي. أديري جسدك إلى الأمام. اثني ركبتك، مدي مؤخرتك إلى الخلف، وضعي يدك على ركبتك، تمام.. تمام.. اثبتي على هذا الوضع.

وفي الجانب الأمامي من الأتيليه سُمع صوت صراخ يتزايد، وبدا أن الآنسة كُولْب تعاني -بشكل مؤقت- ضيقًا في التنفس، تجاهل فابْيَان الصوت، ووجَّه سؤاله إلى باتينبيرج:

- كيف ترتضين المجيء حقًّا إلى هذا المكان الذي يشبه حظيرة الخنازير؟

أجابته باتينبيرج:

- أنا ورَايْتِر من بلدة واحدة. وقد كنا في نفس المدرسة معًا، ومن وقت قصير التقينا بمحض المصادفة في الشارع، ولأني

لم أكن أسكن في برلين دعتني إلى هنا، وعلى كل حال هذه هي المرة الأخيرة لي في هذا المكان.. ها؟ هل هذه الإفادة التي قدمتها لك كافية؟

قال فابْيَان:

- هذا أمر يسعدني، أنا لا أدَّعِي أني محافظٌ على العفة والفضيلة، ومع ذلك فأنا بلا إرادة مني أجدني حزينًا لرؤية امرأة تعيش في مستوى أدنى من مستواها.

رمقته بجديّة وهي تقول:

- أنا لستُ ملاكًا يا سيدي، فهذا الزمان الذي نعيش فيه إنما هو زمن القطيعة مع كل ما هو ملائكي، هذا دأبنا دومًا، ونقطة انطلاقنا التي لا تفتأ تتجدَّد ما بين حين وآخر؛ نقع في غرام رجل ما، ننسى كل ما سبق، ونسلم له أنفسنا، ولهذا فأنا هنا.. أقولها لك ضاحكةً، وبكل مودة.

قال فابْيَان وهو يفرك بأصابعه ما وراء أذنيه:

- أجل.. أنتِ هنا.

تابعت باتنبينرج:

- تُهدِي الواحدة منا الرجلَ قلبها ومحبتها الخالصة، فيحسب أنه متحكم في كل شيء، ثم يبدأ في الهرب. بدايةً تُثقِله الهدايا، ويبدأ في الاختفاء تدريجيًا، ثم يهرب، يفعلها بجرأة أمام الجميع. ثم نصبح بمفردنا مثلما كنا من قبل. أبلغ خمسةً

وعشرين عامًا، هجرني حتى الآن رجلان، أحسبني مظلَّة مطر ينساها الرجل بقصد في أيِّ مكان. هل تزعجك صراحتي؟

أجاب فابْيَان:

- بالفعل هذا ما يعانيه أغلب النساء، على أن للرجال مخاوفَ كثيرةً أيضًا، ولهم مشاغل لا تنتهي تستغرق جلَّ أوقاتهم، وما تبقى من الوقت بالكاد يكفي فقط للتسلية لا للحب. ليس لدينا سوى طريقتين كي نُظهر أننا نتحمل المسؤولية، إمّا أنْ يتحمل الرجل مسؤولية مستقبل المرأة، ثم يفقد وظيفته في الأسبوع التالي؛ وساعتها يدرك أنه عاجز عن تحمل المسؤولية. وإما أنه -على الجانب الآخر- يتخلَّى عن مسؤوليته تجاه المرأة بدافع من إحساسه بالعجز عن تحملها، ما الذي يدفعه -إذًا- إلى اتخاذ قرار يفسد حياة إنسان آخر؟ ربما كان هذا الأمر مما لا تسعد به المرأة فعلًا، فيرى أنه كان عديم المسؤولية في قراره الذي اتخذه بدافع من المسؤولية، لكي لا يتحمل المسؤولية! هذا الأمر كله تناقضات لم تكن موجودة من قبل.

أرسل فابْيَان عينيه عبر النافذة، فطالع في المنزل المقابل غرفةً بها أثاث متواضع، وهنالك جلست امرأة إلى طاولة، وأسندت رأسها بين كفيها، وأمامها رجل يشيح بذراعيه وتتحرك شفتاه بما يبدو أنه يسبُّها، واندفع الرجل إلى باب البيت وقد اختطف قبعته من فوق المشجب بعنف شديد لدرجة أن خُطَّاف المشجب قد مزَّقها. أزاحت المرأة يدها عن وجهها وحدقت إلى الباب، ثم وضعت رأسها على

الطاولة ببطء وفي هدوء، كأنها تنتظر هبوط المقصلة على عنقها. التفت فابْيَان بكل جسده نحو المرأة -التي كانت تطالع المنظر عينه في المنزل المقابل- وهي جالسة إلى جانبه على الكرسي، ورمقت فابْيَان بحزن يقطر من عينيها، أما فابْيَان فقد قال في نفسه: «مرةً أخرى ملاك محبوس في الأسر!».

تابعت المرأة حديثها، وقالت بهدوء لفابْيَان:

- أمّا الرجل الثاني الذي أحببتُه، فقد خرج ذات مساء لكي يرمي خطابًا في صندوق البريد، نزل السُّلَّم، ثم خرج ولم يعد!

هزت رأسها كأنها لا تفهم حتى الآن ما حدث آنذاك، وتابعت:

- انتظرت ثلاثة أشهر حتى يعود إلى البيت بعد أنْ وضع خطابه المزعوم في صندوق البريد، هذا مضحك، أليس كذلك؟ ثم أرسل إليَّ بطاقة معايدة من سانتياجو عليها تحيات وسلامات كثيرة، عندما حكيت ذلك لأمي قالت لي: «أنت عاهرة»! ولمّا ذكّرتها بأنها تزوجت أول رجل حينما كانت في الثامنة عشرة من عمرها، وأنجبت طفلها الأول وهي في التاسعة عشرة، صاحت ساخطة: «على أيامنا كان الزمن غير زمانكم»، لا شك حقًّا في أن زماننا مختلف تمامًا.

- لماذا أتيتِ إلى برلين؟

- في ما مضى كانت المرأة تُهدي نفسَها للرجل عندما كانت على يقين من كونه يحتفظ بها كهدية غالية، أما في يومنا هذا

فالمرأة تُباع بالمال كسائر السلع التي تباع وتُشترى، يدفع البعض ثمنها نقدًا ويرى ذلك أرخص كثيرًا من تقديم الحب، وهكذا يقتنيها ريثما يتخلص منها في سلة المهملات. في ما مضى كانت الهدية مختلفةً عن أي سلعةٍ تُباع وتُشترى، أمّا اليوم فالهدية ليست إلا سلعةً زهيدة الثمن، وهذا الرخص في القيمة المادية يجعل المشتري يسيء الظن؛ بالتأكيد هي هدية رديئة، هذا ما سيظنه قطعًا، وفي الغالب هو عنده حق في ظنونه، ثم تطلبُ المرأة لاحقًا الحساب، وفجأةً سيكون من الواجب عليه إعادة الثمن الأخلاقي للهدية، بالعملة الصعبة الرُّوحيَّة على هيئة أقساط تُسدَّد على مدى الحياة.

قال فابْيَان:

- بالضبط هذه هي الحال.

أردفت:

- هكذا يفكر الرجال بالضبط. لكن لماذا تُطلق على هذا الأتيليه اسم «حظيرة الخنازير»؟ فهنا نساء يشبهنَ بالضبط ما تتمنونه، أو ربما لا؟ أنا أعرف ما ينقصكم حتى تشعروا بالسعادة، ينبغي علينا أنْ نكون خاضعات لإرادتكم، ورهن إشارتكم، ولا عليكم ببكائنا وانتحابنا عندما تتخلون عنا وتطردوننا من حياتكم، هل ينبغي أن نكون في غاية الرضا والسعادة عندما تتخلون عنا؟ أنتم تبتغون الطابع السِلَعيَ (المادي) للحب، ولكن السلعة يجب أن يعشقها شاريها. أنتم لكم الحق في كل

شيء ولستم مجبورين على فعل شيء، أمّا نحن فمجبورات على كل شيء، وليس لنا حق في أي شيء، هكذا تبدو جَنّتكم!

تنهدت الآنسة باتينبيرج في أسًى، ثم واصلت الكلام:

- ماذا لو انقلبت الآية؟ في حال أننا لا نودُّ التمسك بكم فهذا معناه أننا لم نقع في غرامكم! إذا كنتم تريدون شراءنا فلتدفعوا إذًا الثمن غاليًا جدًّا.

صمتت، لم تنهمر دموعها على وجهها. وسألها فانْيَان:

- هل أتيتِ إلى برلين لهذا السبب؟

بكَتْ في صمت من دون أنْ تصدر أي صوت نحيب، فاقترب منها وربَّت على كتفها وقال لها وهو يحدج بناظريه مجسَّمين من الجبس في جانب آخر من الأتيليه:

- أنتِ لا تفهمين كثيرًا عن الصفقات!

وفي زاوية أخرى من الأتيليه انحنت النحّاتة رَايْتِر نحو المرأة العارية، ولثمتها على بطنها المقوَّس، وعلى نهديها. أفرغت سِيلُوفْ كأسها في جوفها دفعةً واحدة، وربَّتت على ظهر صديقتها غير مبالية.

هذه تُقبِّل، والأخرى تشرب الخمر، والظاهر أن كل واحدة منهما كانت غائبةً في عالمها الخاص بدون أن تدرك ما تفعله الأخرى، وفي خلفية المشهد كان جسدا كُولْب ولَابْوْدَه قد تداخل بعضهما في بعض كأنهما كرة من الصوف.

رنّ جرس الباب في الخارج، فاعتدلت رَايْتِر ومشت نحوه بخطى متثاقلة، وارتدت سِيلُوفْ جواربها، ثم دلف إلى الغرفة رجلٌ ضخم البنية يتنفس لاهثًا وهو مستند إلى عكازه، لأن له ساقًا خشبية، قال الرجل:

- هل كُولْب هنا؟

أومأت رَايْتِر بالإيجاب، فأخذ بعض الورقات المالية من محفظته وأعطاها للنحَّاتة رَايْتِر ثم قال:

- يجب أن يذهب الجميع من هنا لمدة ساعة ما عدا سِيلُوفْ، يمكنك أنْ تتركيها هنا لي.

هوى الرجل بجسده على الكرسيِّ وهو يضحك بحدة، زحفت كُولْب من فوق الشيزلونج، ومسحتْ يدها في فستانها، ثم مدتها مصافحةً الرجل وهي تقول:

- أهلا فيلهلمي، ألا تزال على قيد الحياة؟

مسح فيلهلمي العرق الذي تفصد من جبينه وهز رأسه.

- لن تدوم حياتي أكثر من ذلك، وإلا ستنفد النقود وتنتهي قبل أن أموت.

أعطى الرجلُ الفتاةَ كُولْب هي الأخرى بعض الورقات المالية، ثم صاح قائلًا:

- سِيلُوفْ.. لا تشربي كل زجاجة الجِين، وارتدي ملابسك سريعًا!

قالت كُولْب:

- اذهبوا إلى محل كُوزِينِه، سوف ألحق بكم.

ثم قالت لِلَابُوْدَه بنبرة فرحة:

- سوف يرمونك بعيدًا من هنا يا عزيزي، فهذا الرجل دفع مالًا للأطباء كي يموت هذا الشهر، إنه ينتظر الموت مثلما تنتظر الواحدة منا دورتها الشهرية، أنا أساعده فقط، انتظروني ربع ساعة فقط، سألقاكم لاحقًا.

هبّ لَابُوْدَه واقفًا، التقطت رَايْتِر معطفها، ومشى فابْيَان مع الآنسة باتينبيرج إلى ما وراء التماثيل، انتهت سِيلُوفْ من ارتداء ملابسها. ظلت كُولْب مع المحكوم عليه بالموت. قالت رَايْتِر وهي تهبط السُّلَّم:

- أتمنى أَلَّا يضربها بقسوة مثلما صنع في المرة الأخيرة، فهو حاقد على الآخرين، لأنهم سيعيشون أكثر منه!

عقّبت سِيلُوفْ:

- إنها لا تمانع ذلك، فهي تحب الضرب، فضلًا على كونها عاجزة عن كسب قوتها من رسوماتها فقط.

أردفت رَايْتِر وهي تضحك بهيستيرية:

- نحن نمتهن وظيفة رائعة.

«كُوزِينِه» نادٍ نسائي، يضاجع فيه النساء بعضهنَّ، ويرقصنَ، في وسعك أن ترى هناك أيضًا نساءً يجلسنَ متجاورات على الأرائك

الخضراء وكل واحدة تتطلع إلى عيني الأخرى في عمق وهن يحتسين النبيذ، وبعض النساء هناك يرتدين ملابس السهرة السوداء والبلوزات المقفولة حتى العنق حتى يظهرن كأنما هن رجال.

مالكة المكان هي كُوزِينِه، وقد سمَّته باسمها، كانت تدخن السيجار الأسود، وتُرتب اللقاءات للتعارف، تنقَّلت من طاولة إلى أخرى تُحيِّي الضيوف، وتحكي النكات، وتثمل.

استحيا لَابْوْدَه من نفسه ومن فابْيَان، رقص مع الآنسة باتينبيرج، وجلس معها عند البار ثم أدار ظهره لصديقه، رمقت البار بطريقة غريبة، وبدت شاحبةً، ثم شرعت في الشرب، وبعد فترة وجيزة انتقلت إلى طاولة أخرى وتحدَّث مع امرأة عجوز صبغت وجهها بمساحيق التجميل بطريقة فجَّة، وكانت تلك المرأة تضحك فتقرقر في ضحكتها كأنها دجاجة تبيض في الحال.

قال فابْيَان للآنسة باتينبيرج:

- لم أنسَ حديثنا بعدُ، ولكنه حديث ذو شجون، هل تعتقدين أنتِ أيضًا أنَّ كل النساء هنا مِثْليات بالفطرة؟ فهذه الشقراء هناك كانت لفترة طويلة صديقة أحد الممثلين حتى هجرها فجأةً بدون مقدمات، ثم ذهبت إلى المكتب ونامت مع الممثل القانوني حتى أنجبت طفلًا وخسرت القضية، وقد أنكر الممثل القانوني أبوَّة الطفل ولم يعترف به، وهكذا سُلِم الطفل إلى جهة مدنية وحصلت هي على وظيفة جديدة؛ لكنها يئست من الرجال بسبب ما حدث لها، وأحسب كثيرات غيرها هنا حدث

لهنَّ مثل ما حدث لها، أو على الأقل تعرَّضن لنفس ظروفها، بعضهن مرغم على ذلك؛ لأنهن لا يجدن رجلًا، وأخريات يأتين فرارًا من اضطهاد الرجال، أو أخريات يصبن بنوبات هلع من الرجال بسبب ما يحدث بعد ذلك لهنَّ بسببهم.

هنا تجلس النساء التعيسات بسبب الرجال. وسِيلُوفْ إحداهن هي الأخرى؛ فهي تعاشر النساء، وقد صارت سحاقية لأنها تكره الرجال.

سألته الآنسة باتينبيرج:

- ألا تريد أنْ توصلني إلى بيتي؟

- يبدو أن هذا المكان لا يروقكِ.

هزت رأسها موافقةً، وعندها فُتح الباب، ثم دلفت كُولْب مترنحةً إلى المحل، تسمَّرت أمام الأريكة التي جلست عليها النحَّاتة فاغرةً فمها، لم تصرخ، ولم تنبس ببنت شفة، انهارت حتى سقطت مغشيًا عليها؛ تجمع النساء حولها بدافع الفضول، أحضرت كوزينِه كأس ويسكي، وقالت رَايْتِر:

- إذًا ضربها فيلهلمي مجددًا.

صاحت فتاة ثم ضحكت بهيستيرية:

- يحيا الرجال!

صاحت كُوزِينِه:

- نادوا الطبيب من الغرفة الخلفية!

مكتبة
t.me/soramnqraa

هرول الجميع في ضجة وصخب لإحضار الطبيب، حتى عازف البيانو الذي كان ثملًا شرع في عزف الموسيقا الجنائزية، ومن ثمَّ دخلت من الباب الجانبي سيدة نحيفة طويلة ترتدي فستان سهرة، وبدا وجهها كأنه وجه جثة بسبب كثرة مسحوق التجميل الأبيض عليه، وعندما شاهدتها الآنسة باتينبيرج تساءلت مستنكرة:

- هل هذا طبيب؟

أجاب فابْيَان:

- نعم، إنه رجل حاصل على تدريب مهني اختصاصي في مجال الطب، ألا ترين الندبات تحت مساحيق التجميل على الوجه؟ أمَّا الآن فهو يكسب قوته من وصفات عقار المورفين، ولديه تصريح من الشرطة بأنْ يرتدي ملابس نسائية، إنه يكسب قوت يومه من كتابة روشتات المورفين، ذات يوم سوف يُكتشف أمره وسينتحر ساعتها.

حملوا كُولْب إلى الغرفة الخلفية، وتبعهم الدكتور في ملابسه النسائية. عاد عازف البيانو إلى عزف موسيقا التانجو، ثم نادت النحَّاتة رَايْتِر -بحدة- سِيلُوفْ كي ترقص، وقد كانت سِيلُوفْ ثملةً خدرةً تمامًا، فلم تسمع شيئًا وأغلقت عينيها، وفجأةً فقدت السيطرة على نفسها تمامًا؛ فهرعت مترنحةً نحو البيانو، وأغلقت الغطاء بعنف، فتألم عازف البيانو وتذَمَّر، ثم صاحت بقوة:

- لا!

عمّ الهدوء وصمت الجميع كأنّ على رؤوسهم الطير، وقفت رَايْتِر بمفردها في ساحة الرقص، وشبَّكت يديها، ثم صاحت سِيلُوفْ مرة أخرى:

- لا.. لا أريد مجددًا. لقد اكتفيت.. أريد فقط رجلًا! أريد رجلًا.

ثم جذبت لَابُوْدَه من كرسيه، وانقضّت عليه تقبله، ورمت القبعة عن رأسها، ثم سحبت الرجل نحو الباب حتى إنه لم يستطع أخذ معطفه، ثم اختفى كلاهما.

هبَّ فابْيَان واقفًا، وضع نقودًا على الطاولة، وساعد الآنسة باتينبيرج في ارتداء ملابسها، ثم قال:

- إنه فعلًا من الأفضل أن نمشي من هنا.

ولما مشيا كانت رَايْتِر -الملقَّبة بلقب البارونة أيضًا- ما زالت تقف بمفردها على ساحة الرقص، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها.

الفصل العاشر

طوبوغرافية الفُحش

الحب لا ينتهي أبدًا

فليحيَ هذا الاختلاف الصغير!

سألت باتينبيرج فابْيَان وهما يعبران الشارع:

- كيف اتخذت هذا الرجل صديقًا لك؟

- أنتِ لا تعرفينه حقًّا.

استبدَّ الغضب بفابْيَان من سؤالها ومن إجابته عليها أيضًا.

سارا معًا في الشارع وهما صامتان، وبعد برهة قال لها:

- لَابْوْدَه حظّه عاثر، لقد سافر إلى هامبورج ورأى بعينه كيف تخونه حبيبته المرشحة لأن تكون زوجة المستقبل، وهو مهووس بالنظام، يحتل النظام في حياته المرتبة الخامسة، بعد اهتماماته بالجانب العائلي. ولكنه اكتشف ذات ليلة أنَّ كل حساباته المستقبلية أضحت خاطئة، فهو يريد أنْ ينسى كل شيء مر به ويعيد تنظيم حساباته.

ظلًّا واقفين أمام أحد المتاجر، كانت أضواء المحل تضيء بشدة على خلفية ظلام الليل المحيط به من كل جانب، وقد عُرضت الفساتين والبلوزات والأحزمة فوق واجهة المحل المضيء بين الأبنية المظلمة، كأنها معروضة فوق جزيرة تُضيئُها الشمس. سألهما أحد المارّة بجانبهما:

- هل من الممكن أنْ تخبرني كم الساعة لو تكرمت؟

انزعجت الآنسة باتينبيرج وأمسكت بذراع فابْيَان، وقد أجابه فابْيَان:

- الساعة الثانية عشرة، وعشر دقائق.

انحنى الشاب الذي سألهما عن الساعة إلى أسفل كي يشد رباط حذائه، ثم قال لهما:

- شكرًا جزيلًا، إذًا ينبغي أن أُسرع.

ثم اعتدل واقفًا وسأل في حيرة وهو يبتسم:

- بالمناسبة.. لعلك تجد خمسين بْفِينْجًا بين نقودك يكون في وسعك إقراضها لي!

أجابه فابْيَان:

- بالمناسبة.. أجل معي!

وأعطاه فابْيَان عملةً معدنية قيمتها ماركان.

- جميل جدًّا، شكرًا جزيلًا سيدي، إذًا لا أحتاج إلى النوم الليلة، ما دام في حوزتي المؤونة المنقِذة التي نقدتني إياها!

رفع الرجل الغريب كتفيه إلى أعلى، ثم رفع قبعته ومشى مسرعًا بعيدًا عنهما، فقالت الآنسة باتينبيرج:

- رجل مهذب!

- أجل؛ لقد سأل عن الساعة قبل أن يشحذ.

واصلا السير، جابَا الشوارع، ولم يكن فابْيَان يعلم موضع سكنها، لذلك تبعها في السير رغم أنه يعرف المكان أفضل مما تعرفه هي، تابع فابْيَان حديثه:

- أسوأ ما في كل هذه القصة أنَّ لَابُوْدَه قد علم متأخرًا بعد مرور خمسة أعوام أنَّ لِيدَا -وتلك السيدة من هامبورج- لم تحبه قط، والمشكلة أن خيانتها له لم تكن بسبب قلة زياراته لها في هامبورج؛ وإنما خانته لأنها لم تُغرم به، أجل كان قريبًا منها، ولكنه لم يكن النمط الذي تشتهيه. في الحياة أيضًا أوضاع بخلاف ما ذكرته لك، فهناك من يُغرم بشخص ما لأنه النمط الصحيح الذي يتمناه؛ ولكنه مع ذلك عاجز عن احتمال شخصيته.

- ولكن أليس من الممكن أنْ يكون أحدهما هو الأصح في العلاقة؟

أجابها فابْيَان:

- لا يجب على الإنسان أنْ يأمل في الوصول إلى الحد الأقصى.

تابع فابْيَان:

- وماذا تعملين بخلاف مشاريعك الحربية، أقصد بعد ساعات العمل في «عمورة» و«سدوم»[1]؟

- أنا مُدرسة تحت التدريب، كما أني أكتب أطروحة الدكتوراه عن الحقوق العالمية للسينما، تريد شركة أفلام كبيرة في برلين أنْ أتطوّع بالعمل لديها بمرتب قدره مئة وخمسون ماركًا في الشهر.

- هل ستصبحين ممثلة؟

- لو تطلَّب الأمر ذلك، فليس لدي مانع.

ضحك كلاهما وسارا في شارع جايسبرج، كان الشارع هادئًا، وقلّما قطعته سيارة تفسد حالة السكون والهدوء فيه. فاحت روائح الزَّهر في أحواض الزرع أمام البيوت. أمام أحد البيوت وقف عاشقان يداعب بعضهما بعضًا وهما في حالة من النشوة والدلال. لاحظتهما باتينبيرج، تلك المرأة الخبيرة بحقوق السينما العالمية؛ فاستأنفت قائلةً:

- حتى القمر يمكنك رؤيته في هذه المدينة.

ضغط فابْيَان على ذراعها وسألها:

- ألا تشعرين أنكِ في بيتك هنا؟

---

(1) الإشارة مجازية إلى «سدوم» و«عمورة»، القُرى التي خسف الله بها الأرض وأهلكها بسبب فسوق أهلها وفحش أعمالهم. (المحرر)

ثم تابع حديثه:

- ومع ذلك أنتِ مخدوعة، فضوء القمر، ورائحة الزَّهر، وسكون الليل، وتلك القُبلة تحت قوس بوابة المدينة الصغيرة.. ليس إلا الوهم بعينه. وهناك في الجهة المقابلة في الميدان مقهى لا يجلس فيه إلا الصينيون مع عاهرات برلين، فقط الصينيون لا سواهم، كما أن هنا في الأمام دكانًا يرقص فيه الشبان المثليون المتعطِّرون مع الممثلين الأنيقين والإنجليز الوسيمين، يعرضون مهاراتهم وما يتقاضونه، وفي النهاية يدفع الحساب عجوز شقراء. إلى يمينك في هذه الزاوية فندق يسكن فيه اليابانيون فقط، وبجانبه مطعم يجلس فيه اليهود الروس والمجريُّون، يقترضون المال بعضهم من بعض أو يخدع بعضهم بعضًا. وفي أحد الشوارع الجانبية (بانسيون) يبيع فيه طلاب المدارس الثانوية أنفسهم كي يزيدوا مصروفهم. قبل نصف عام كانت فضيحةٌ أُخفيت سيرتها الآن، وُجِد رجل عجوز في إحدى الغرف التي دخلها بغرض المتعة كما تمنى، فوجد في الغرفة ابنته ذات الستة عشر ربيعًا عارية، لم يكن يتوقع ذلك قط. هذه المدينة العملاقة تشبه مشفى المجانين، إذا ما أخذنا سكان هذه المدينة في الاعتبار: في الشمال يستوطنها الجريمة، وفي مركزها الاحتيال، وفي شمالها الفقر والشقاء، أمَّا في الغرب فستجدين اللواط والفحشاء، وفي كل الاتجاهات والطرق يتخللها الانحطاط.

سألته باتينبيرج:

- وماذا بعد الانحطاط؟

التقط فابْيَان أحد أفرع الشجر، كان الفرع معلقًا على السور الحديدي، التقطه في يده ثم أجابها:

- أخشى أنْ تكون البلاهة مستقبلنا!

قالت الآنسة باتينبيرج مسترسلةً:

- لقد ضرَبَتِ البلاهة بالفعل أطنابها في المدينة التي أنحدر منها، فماذا عسانا أن نفعل إذًا؟

أجاب فابْيَان:

- من كان متفائلًا، فسيقع في اليأس. أمَّا أنا فسوداويٌّ مُكتئب، ولن يحدث لي أسوأ مما أنا فيه. لا أميل إلى الانتحار لأني لا أستشعر شيئًا من وجوب المواجهة واتخاذ دور إيجابي، بخلاف الآخرين الذين يرون أنفسهم دائمًا في حالة كفاح تجعلهم يهرولون وهم يضربون رؤوسهم في الحائط حتى تستسلم. أنا أراقب ما حولي فقط وأنتظر، أنتظر انتصار الأخلاق والفضيلة، وسأكون إذًا تحت الطلب. أنا أنتظر فقط كالكافر الذي ينتظر المعجزة حتى يؤمن، سيدتي العزيزة.. أنا لا أعرفك بعد، ومع ذلك -أو رُبمَّا لهذا السبب- أودُّ أن أخبرك بفرضيةٍ للتعامل البشر، وقد أثبتت كفاءتها بالفعل، الأمر يدور حول نظرية قد لا تكون بالضرورة صحيحةً، ولكنها عمليًا ستؤدي إلى نتائج قابلة للاستخدام.

- وما هذه الفرضية إذًا؟

- باستثناء الأطفال والعجائز.. يمكن اعتبار أي إنسان مجنونًا قبل أنْ يثبت العكس. إذا أخذتِ ذلك في الاعتبار وتصرفتِ بناءً عليه فستدركين قدر فائدة هذه المقولة.

سألته باتينبيرج:

- هل يجب أنْ أبدأ بك أنت إذًا؟

- بل أنا مَن يطلب إليك ذلك حقًّا.

صَمَتَا وجابا معًا ميدان نيرنبورج، زمجرت أمامهما سيارة ضغط سائقها على كابح الفرامل فجأةً، ارتدعت الآنسة باتينبيرج، ثم تابعا السير في شارع شابر. تموء القطط بصوتٍ عالٍ في إحدى الحدائق المهملة، اصطفت الأشجار على الجانبين مكان المشاة، حتى صار الطريق مظلمًا وحُجبت السماء عن الأنظار.

قالت باتِينبيرج:

- لقد وصلت.

ثم توقفت أمام البيت رقم (17)، إنه نفس البيت الذي يسكن فيه فابْيَان! أخفى ذهوله عنها، ثم سألها:

- هل من الممكن أن أراك مرةً أخرى؟

- هل تريد ذلك حقًّا؟

- بشرط واحد، هو أنْ تكون تلك رغبتك أيضًا.

أومأت برأسها، ونظرت طويلًا تجاه كتفيه، ثم قالت:

- أجل أريد ذلك.

صافحها ضاغطًا على يدها، فهمست في أذنيه:

- هذه المدينة كبيرة جدًّا...

ثم صمتت حائرةً مترددة في سؤالها:

- من فضلِكَ لا تُسِئ فهمي لو طلبتُ أنْ تصعد معي لمدة نصف ساعة، فغرفتي لا تزال غريبةً بالنسبة إليَّ، لم أتكلم بعدُ مع أحد فيها، وليس عندي ذكريات فيها، وليس فيها ما يُذَكِّرني بأي شيء، وفي الليل لا أرى سوى الأشجار المُجَلَّلة بالسواد تترنح أمام النافذة.

أجابها فابْيَان بصوتٍ خفيض كأنه يريد تلبية طلبها:

- سوف أصعد معكِ إلى حجرتك، افتحي الباب.

وضعت المفتاح في ثقب الباب وأدارته، وقبل أنْ تفتح الباب استدارت نحوه وقالت:

- ما زلت أخشى أنْ تُسيء فهمي!

أزاح الباب، وأضاء مصباح السُّلَّم؛ لكنه غضب لأنها ربما تدرك بذلك ما ينوي فعله، لكنها لم تشك فيه، أغلقت الباب وراءه وتبعته، فيما كان يسخر من الطريقة الخفية التي دلف بها اليوم إلى بيته.

- في أيِّ طابق تسكنين؟

ظلت واقفةً أمام باب غرفة مالكة البيت الأرملة هُوهِنْفِيلْد ثم فتحته، أُضيء النور في الردهة، فبدت فتاتان ترتديان (سالوبِت) وردي اللون، وكانتا تلعبان بكرة خضراء اللون، فزعت الفتاتان للوهلة الأولى، ثم شرعتا في الضحك، وعندها فُتح باب دورة المياه، وخرج السيد تْرُوجِر -الرحَّالة بين النساء- مرتديًا بيجامة؛ فقال فابْيَان ضجِرًا:

- فلتغلق بابك على حريمك!

ضحك السيد تْرُوجِر، واصطحب الفتاتين إلى قصره وأوصد الباب، وضع فابْيَان يده بدون قصد على مقبض باب غرفته، فهمست الآنسة باتيبنرج:

- يا إلهي! ليست غرفتي، هنا يسكن شخص آخر.

- أعتذر..

قالها فابْيَان، ثم تبعها في الردهة حتى آخر غرفة، وهناك وضع قبعته ومعطفه على الأريكة، فيما علَّقت هي معطفها في الدولاب وهي تقول ضاحكةً:

- يا لها من حجرة شنيعة! ومع ذلك أدفع ثمانين ماركًا في الشهر.

واساها فابْيَان قائلًا:

- أنا مثلك أدفع نفس المبلغ بالضبط.

سُمع صوت ضجة في الغرفة المجاورة، فقال فابْيَان ممازحًا:

- إذا شعرت بالوَحدة اثقبي الحائط وأسألي الجيران الانضمام إليكِ.

قالت وهي تفرك يديها بعضهما في بعض أمام المدفأة:

- لا.. أنا سعيدة الآن، أنا مدينة لكَ لأنكَ أتيت معي، فحينما أكون هنا في الليل بمفردي أشعر بقبح المكان، هل تريد رؤية الأشجار السوداء من هنا؟

مشيا معًا نحو النافذة، وهناك قالت:

- اُنظر.. حتى الأشجار تبدو اليوم لطيفةً، اكتشفتُ ذلك اليوم.

ثم حدجته بعينيها وهمْهمت:

- هكذا تبدو لي اليوم مختلفةً، لأني لست وحيدةً في الغرفة!

جذبها فابْيَان برفق نحوه ولثمها، فبادلته القبلة هي الأخرى:

- انتظر.. ما الفكرة التي بدت لك عنى الآن؟ لعلك تعتقد أنني سألتُكَ مرافقتي لأجل ذلك فقط!

أجابها فابْيَان:

- لا ريب في كوني قد اعتقدت ذلك بالفعل، أم أنك لا تعرفين ذلك بعد؟

حكّت وجنتها في وجنته بنعومة ونظرت عبر النافذة، فسألها فابْيَان:

- ما اسمك حقًّا؟

- كُوْرنِيلْيَا.

ولما رقد كلاهما في الفراش قال لها وهو يمسح على وجهها بيده، ويغلق عينيها لكي يتحسَّس قسمات وجهها ويشعر بها:

- هل تعلمين أننا جلسنا اليوم مساءً في أتيليه خلف ربَّات من الجبس، فيما أنت تحكينَ كيف أنك تريدين معاقبة الرجال بسبب ما يتَّسمون به من أنانية وحب لذواتهم فقط؟

طبعت على يديه عدة قبلات رقيقة، ثم تنفست عميقًا وقالت بهدوء:

- لم أغيِّر رأيي.. حقًّا لم يتغير رأيي، ولكنكَ بالنسبة إليَّ استثناءٌ لا تنطبق عليه القاعدة، كل ما أشعر به هو أني لا أملك سوى أنْ أحبك.

اعتدل فابْيَان وجلس جانبها؛ ولكنها سحبته كي يرقد مرة أخرى وهمست له:

- لقد بكيت لمَّا تعانقنا منذ وقت قصير!

وبدأت الدموعُ تنهمر من عينيها وهي تتكلم، كانت تبكي وتبتسم في نفس الوقت، وشعر فابْيَان حينها بسعادةٍ لم تتخلَّله منذ وقت طويل، تمالكت نفسها وواصلت الكلام:

- لقد بكيتُ لأني أحببتك، ولكن حبي لك أمرٌ خاص بي أنا فقط، ولا شأن لك به، هل تسمعني؟ من حقك أنْ تأتي وتذهب وقتما شئت، وكيفما شئت، وريثما تأتي إليَّ أودُّ أنْ أكون سعيدةً، وعندما تتركني لا أودُّ أنْ أحزن، أعدك بذلك.

ثم ألقت بنفسها بين أحضانه، وألصقت جسدها في جسده، وطمرت وجهها في صدره حتى صارا يتنفسان أنفاسهما معًا، ثم صاحت:

- أمَّا الآن فأنا جائعة.

بدا الذهول على وجه فابْيَان من رد هذه الجملة المباغتة! حتى إنها ضحكت، ثم قالت:

- سأشرح لك، الأمر كالآتي: عندما أُغرم بشخص ما، أقصد حينما يُغرم بي شخص ما، أنت تفهمني بالطبع، أَليس كذلك؟ أشعر بعدها بجوع شديد، ولكن المشكلة الخفية هي أنني ليس لديَّ ما يُؤكل، وليس في إحساسي بالجوع نفسه. لم أعلم أني في مثل هذه المدينة سيداهمني هذا الإحساس الشديد بالجوع!

رقدت على ظهرها وضحكت لغطاء السرير الذي كان مُزيَّنًا برسوم على شكل رؤوس ملائكة صغيرة. انتفض فابْيَان واقفًا وقال:

- يجب أنْ نسطو على غرفة من الغرف الآن.

رفعها عن السرير، حملها وطاف بها في الحجرة، ثم أنزلها على الأرض أمام باب غرفتها، فتح الباب وجذب كُورنِيلْيَا معه إلى الخارج، بينما كانت تقاوم هي الخروج خارج غرفتها، ظلت تقاوم؛ لكنه أحكم القبض على يديها، وسارا في الرَّدهة كأنهما آدم وحواء، حتى وصلا أمام غرفة فابْيَان. تذمَّرت كُورنِيلْيَا وحاولت الهرب من فابْيَان قائلةً:

- هذا أمرٌ مخيف حقًّا.

لكنه أدار مقبض الباب بسرعة، وزجَّ بها إلى داخل غرفته، ثم أضاء النور، وانحنى أمامها ثم قال:

- دكتور فابْيَان يسمح لنفسه أنْ يرحِّب بالآنسة باتينبيرج في غرفته.

ثم هوى على السرير وعضَّ مخدته من فرط سعادته. صاحت وهي واقفة خلفه:

- لا.. هذا ليس معقولًا!

ثم بدأت تصدق ما تراه وتسمعه، وشرعت في رقص رقصة «الشوهبلات» الشعبية المشهورة وهي تصفق بكلتا يديها، وقف فابْيَان ونظر إليها قائلًا:

مكتبة سر من قرأ

- غير مسموح هنا أن تصفقي بيديكِ عاليًا هكذا.

- لا يصح أنْ أرقص «الشوهبلات» بدون هذا التصفيق.

وواصلت الرقص والتصفيق بصوتٍ عالٍ، ثم مضت نحو الطاولة، ومثَّلت كأنها تحمل فستانها الأنيق الذي لا تملكه أساسًا ثم قالت:

- من فضلك.. قائمةَ الطعام!

أحضر لها أدوات الطعام، حمل إليها الطبق والشوكة، والسكين، والملعقة، كما حمل إليها السجق والبسكويت، بينما كانت تأكل رمقت رئيس طاقم النُدُل بعينيها، ثم وقفت أمام رف الكتب متفحصةً، والتقطت كتابًا تحت ذراعها اليمنى، ثم مدت إلى فابْيَان ذراعها اليسرى كيما يأتبطها منها، ثم أمرته سيادتُها قائلةً:

- أرجِعني إلى غرفتي في الحال.

وقبل أن يُطفئا النور ليناما معًا اتفقا على أن يخفيا علاقتهما عن السيدة هُوهِنْفِيلْد، ولذا فإن كُوْرنِيلْيَا ستوقظ فابْيَان في الصباح، ثم يتقابلان خفيةً في المساء، وأول من يصل منهما يترك ورقةً بجانب مقبض الباب مرسومًا عليها علامة صليب بقلم رصاص. أطفأت كُوْرنِيلْيَا المصباح، وتمددت بجانبه ثم همست:

- تعال!

داعب جسدَها بيده، ثم سحبت هي رأسه بين يديها، وضمت فمها إلى أذنه وهمست:

- تعال! ماذا قالت سِيلُوفْ؟ فَلْيَحْيَ هذا الاختلاف الصغير!

الفصل الحادي عشر

مفاجأة في المصنع

حي كرويتسبرج والشخص غريب الأطوار

الحياة عادةٌ سيئة

في صباح اليوم التالي ذهب فابْيَان إلى عمله ربعَ ساعة مبكرًا عن موعد العمل، تصفح الملاحظات حول العروض الترويجية التي ينتظرها المدير منه، تعيَّن على المصنع توفير مئة ألف عبوة خاصة رخيصة جدًّا لتجار التجزئة، وكذلك ترقيم العلب، إذ يجب أن تكون علبة السجائر الواحدة متضمِّنةً ستة أنواع مختلفة من السجائر من دون كتابة ذلك على العلبة، وينبغي على المشتري أنْ يخمن أسماء وأعداد الماركات الست المختلفة في كل علبة، وهكذا يكون على مَن اشترى علبة سجائر رخيصة أنْ يحلَّ اللغز، ثم يربح علب سجائر مقابل أثمان رخيصة يدفعها، وهو بذلك سيشتري حتمًا إحدى العلب الست الخاصة المعروضة للبيع منذ وقتٍ طويل بدون أن يشتريها أحد، أي أننا سنبيع ست عبوات جديدة بالإضافة إلى الست الرخيصة التي بعناها أولًا. وفي حالة إذا ما توفر مئة ألف راغب في

الشراء.. إذًا يمكن توفير ستمئة ألف علبة أخرى، أي في المجمل سبعمئة ألف علبة سجائر، يُضاف إلى ذلك زيادة المبيعات التي ستحدث بسبب الدعاية التي تركز على المستهلك.

بدأ فابْيَان في تسجيل الحسابات، وعندها ظهر فِيشَر، ورمق زميله فابْيَان في فضول، وصاح متعجبًا:

- أوه!

صاح فابْيَان:

- إنها مسوَّدة العرض الترويجي!

ارتدى فِيشَر المعطف الذي كان يحمله وسأل فابْيَان:

- هل يمكن أنْ أعرض عليك بعد ذلك السطرين اللذين كتبتُهما؟

- بكل سرور، فاليوم عندي رغبة في قراءة الشعر.

ثم طُرق الباب، دلف إلى المكتب الساعي الكهل شنايدريت الذي كان يمشي مترنحًا، ويُقال عنه من باب الممازحة إنَّه مبتكر القدم المفلطحة. وضع الساعي ظرفًا كبيرًا أصفر اللون على مكتب فابْيَان وهو يهمهم ثم انصرف سريعًا، تضمن الظرف أوراقًا تخص فابْيَان شخصيًّا، منها حوالة تُصرَف من الخزينة الرئيسة، وخطابٌ قصيرٌ فحواه كالتالي:

«السيِّد المحترم فابْيَان، لدى الشركة أسبابها الكافية لإخطاركم بقرار إقالتكم اليوم. سيُصرف لكم اليوم من خزينة الشركة الراتب الذي من المـُفترض أنْ يُصرف لكم آخر الشهر. لقد سمحنا لأنفسنا

من دون طلبكم أنْ نمنحكم شهادة خبرة، ونودُّ إخباركم أنكم كنتم تُبلون بلاءً حسنًا في مجال الدعاية في شركتنا، كما يؤسفنا اتخاذ قرار إقالتكم، إلا أن الذي دفعنا إليه هو رغبتنا في تقليص ميزانية الدعاية في الشركة، وهي التوصية التي أوصى بها مجلس الرقابة المالية. نشكركم على ما أنجزتم من أعمالٍ لصالح الشركة ونتمنى لكم مزيدًا من التقدم ومستقبلًا أفضل.

التوقيع...».

ظل فابْيَان جالسًا لمدة دقيقة واجمًا من دون أي حركة، ثم نهض واقفًا، ارتدى معطفه ودسَّ الإقالة في جيبه، ثم قال لفِيشَر:

- إلى اللقاء، أتمنى أنْ تظل بخير.

- إلى أين أنت ذاهب؟

- لقد أقالوني من العمل حالًا.

انتفض فِيشَر منزعجًا:

- لا! ربما يحدث لي هذا أيضًا، لقد وجدت هذا العمل أخيرًا بصعوبة شديدة!

أجابه فابْيَان:

- راتبك أقل من راتبي يا فِيشَر، ولذا أعتقد أنك ستظل هنا.

مضى فِيشَر نحو زميله الذي أُقيل توًا من العمل، وضمَّه إلى صدره مُظهِرًا له خالص حزنه لهذا الخبر، ومضى يقول:

- من حسن الحظ أنك غير مكترث لهذا الخبر، كما أنك عَزَبٌ، فلستَ مطالبًا بالإنفاق على زوجة!

فجأة دلف المدير بْرَايتْكُوبْف إلى الغرفة، تظاهر فابْيَان بأنه لم يره، ثم أدار جسده إلى فِيشَر قائلًا:

- على مكتبي ستجد العروض الترويجية التي أنهيتُها، هي لك، لقد وضعتها تحت تصرفك.

وهكذا ترك فابْيَان المكتب بعدما تسلَّم من الخزانة مائتين وسبعين ماركًا، وقبل أن يخرج إلى الشارع ظلَّ واقفًا قرابة دقيقة أمام باب الشركة، سمع طقطقة عربات الشحن وهي تمرُّ، نزل أحد حاملي البرقيات سريعًا عن دراجته وأسرع إلى داخل المبنى المقابل، أمَّا المبنى المجاور فقد أُحيط بسورٍ من الأسلاك الشائكة، وقد وقف عمال البناء على ألواح المشي ينظفون مخلفات البناء المفتَّتة رمادية اللون. انعطفت مجموعة عربات ملونة لنقل الموبيليا في الشارع الجانبي. عاد حامل البرقيَّات واستقل دراجته مهرولًا. وقف فابْيَان تحت قوس الباب وتحسَّس جيبه ليطمئن على وجود النقود، أطلق العنان لفكره، ثم قال:

- ليكن! فماذا سيحدث لي؟

ثم راح يُمضي وقت العمل المفقود في النزهة، كان يجوب شوارع المدينة طولًا وعرضًا، ويشرب الكحول في منتصف النهار، لم يشعر بالجوع، شرب فنجان قهوة، ثم واصل المشي. مع أنه كان حريًّا به أن يحزن، وأن يذهب إلى أعماق الغابة وأن يجلس بمفرده،

ولكن هل يوجد هنا أعماق غابة؟ طفق يمشي ويمشي. كان يريد تمرير الحزن من رأسه إلى نعلَيْ حذائه.

وفي شارع أليانس تعرَّف البيت الذي سكنه طوال فصلين دراسيين عندما كان طالبًا، وقف أمامه كأنه واحد من معارفه القدامى الذين لم يقابلهم منذ أمدٍ طويل، وظلَّ متحيرًا: هل يسلم عليه أم لا؟ صعد فابْيَان السلالم وتفحَّص المكان متسائلًا عن زوجة المشرف العلميّ، أتراها ما زالت تسكن هنا أم لا. لكنه وجد لافتةً تحمل اسمًا غريبًا بجانب الباب، فترك البيت عائدًا!

لا شك أن تلك السيدة الطيبة قد أمست اليوم عجوزًا اشتعل رأسها شيبًا، تذكَّر كيف أنَّه ذات شتاء حينما حدث التضخم، ولم يكن يملك المال اللازم لدفع حساب التدفئة، فتكوَّم في معطفه وجلس يكتب محاضرةً عن جماليات الأخلاق عند الشاعر الكلاسيكي شيلَّر. وتذكر أن تلك السيدة اعتادت دعوته أيام الآحاد إلى طعام الغداء، وكانت تحدثه عن ظروفها العائلية، وما يحدث في إطار معارفها الكُثُر، لقد كان آنذاك -ولا يزال حتى اليوم- فقيرًا معدمًا، لكنه أصرَّ على أنه سيصير يومًا ما ذا شأن كبير، لقد اكتسب بسبب فقرِه عادات سيئة يفعلها بدون قصد، كجلوسه منحنيًا، أو قضم أظفاره.

في المساء تداعت إلى رأسه الأفكار قبل أنْ يخلد إلى النوم.. «ربما كان على المرء أنْ يبذر كيسًا صغيرًا من الطموح في هذه المدينة، حتى يطرح الطموح ثماره سريعًا! ربما كان على المرء ألا يأخذ الوضع بجدية كبيرة في هذا العالم المترنِّح الذي يوهمنا بأن

كل شيء على ما يُرام! ربما كانت خطيئتي هي حب الحياة وأني أخذتها مأخذ الجد!».

تمددت كُوْرنيلْيَا بجانبه، وظلت ممسكةً بيده حتى وهي نائمة، أخبرته في الصباح أنها حلمت أنهما سافرَا معًا، لكن حلمها لم يكتمل، لأنها استيقظت من نومها.

في الصباح صعد في هدوء إلى هضبة كرويتسبرج، وجلس على أريكة خُصِصت لراحة الناس، وجد لافتةً كُتب عليها: «أيها السُّكان، حافظوا على سلامة مَرافقكم»، وتحت هذه اللافتة كان توقيع رئيس مجلس المدينة، يا لها من جملة تحمل معنى مزدوجًا! بالتأكيد كان يعرف ذلك.

تفحَّص فابْيَان الجذور العملاقة لإحدى الأشجار، تآكلت الحافة وسرت فيها آلاف الثنيات الرأسية، حتى الأشجار عندها ما يؤرقها ويؤلمها.

مر تلميذان بفابْيَان وكان جالسًا على الأريكة، تساءل أحدهما باشمئزاز وهو يعقد كلتا يديه وراء ظهره:

- هل يجب أنْ يعجبني هذا؟

تردَّد التلميذ الثاني في الرد عليه، لكنه عقد العزم أخيرًا ثم قال:

- لا يمكنك فعل شيء ضد الجماعة.

لم يسمع فابْيَان ما قالاه بعد ذلك، ومن الجهة الأخرى في الميدان اقترب من فابْيَان كهلٌ غريب الشكل، له لحية بيضاء طويلة رفيعة

تنمو على ذقنه فقط دون خديه، ويحمل مظلة مطر مطوية بطريقة غير مهندمة، كان يرتدي عباءة تنسدل على كتفيه مهترئةً، وقد دسَّ رأسه في قبعة رمادية سميكة، كانت قبعةً سوداء، لكن سوادها ربما كان من تبعات مرور الزمان عليها، أهوى الرجل بجسده جالسًا على الأريكة بجانب فابْيَان، وهمهم بكلمات تحية غير مفهومة، سعل بشدة، وشرع في رسم دوائر في الرمل. وشكَّل من إحدى الدوائر عجلةً مسنَّنةً، وربط مركزها بمركز دائرة أخرى بخط مستقيم، وصعَّب الرسم بواسطة مزيد من الخطوط والانحناءات، وأخذ يكتب معادلات بجانبه وفوقه، ويحسب ويشطب بعضها، ثم يحسب من جديد، ويضع خطًّا تحت بعض الأعداد مرتين ثم سأل:

- هل تفهم شيئًا مما يتعلق بالآلات؟

أجابه فابْيَان:

- لا. مع الأسف.

وتداعت خواطر فابْيَان:

«مَن يفتح لي غطاء الجرامافون الخاص بي يكون متيقنًا أنه لن يعمل مرة أخرى، كما أن القدَّاحات الآلية التي استخدمتُها لا تشعل النار، وحتى يومنا هذا فأنا أعتبر التيار الكهربائي -كما يبدو من اسمه- سائلًا، ولن أعي أبدًا طالما حييت كيف يمكن من ناحيةٍ تخزين الثيران المذبوحة في صناديق معدنية تعمل بالكهرباء، ومن ناحية أخرى صناعة اللحوم المحفوظة منها! على أيِ حال تُذَكِرني هذه العباءة الذي يرتديها هذا الرجل بأيام المدرسة الداخلية، حين

كنا نذهب كل يوم أحد إلى كنيسة مارتن لوتر ونحن نرتدي مثلها مع قبعة خضراء، كنا نرتديها في مراسم القُدَّاس والصلوات، وبمجرد أن تبدأ الخطبة كنا نغط في نوم عميق حتى هذا الذي نتفق معه أنْ يوقظنا كان ينام معنا إلى أنْ يأتي عازف الأرغن فيوقظنا، أو يستشيط المدرس غضبًا فيقرر إيقاظنا...».

تفحّص فابْيَان عباءة الرجل الذي جلس إلى جواره، وتعجب لكون هذه القطعة من الملابس قد ذكّرته بالماضي، فتداعت من ذاكرته صورة المدير وهو يلوي ركبتيه، ويمسح سرواله بيديه قبل أنْ يجلس ويفتح كتاب الصلوات أمامه، ويجول بعينيه لكي يتيقّن أن كل البشر المذنبين حاضرون، ورأى نفسه هو أيضًا يتسلّل في المساء عبر البوابة تاركًا الدعاء والصلاة، ليدلف إلى الشوارع التي بزغ فيها ضوء الفجر، ليمرَّ بالثكنات العسكرية، ويهرول إلى ميدان إكسرتسير، ويصعد إلى أحد البيوت، ويضغط على الجرس، فيأتيه صوت أمه المرتعد من وراء الباب:

- مَن بالخارج؟

ويسمع صوته مجيبًا وهو يتنفس الصعداء:

- أنا يا أمي، أردت فقط أنْ أسأل عمَّا إذا كنتِ اليوم بخير أم لا.

مرَّرَ الرجل الكهل المقدمة المدبَّبة لمظلة المطر غير الملفوفة بإتقان على الرمال حتى محا كل الحسابات والمعادلات التي كتبها، ثم قال لفابْيَان:

- ربما تستطيع فهمي.. لأنك لا تفهم الآلات، يسمُّونني المُبتكِر، كما أنني عضو شرفي في خمس أكاديميات علمية، أحرزت في مجال التقدم التقنيّ خطوات هائلة، وعلى سبيل المثال يُعزى إليَّ الفضل في زيادة معدل إنتاج الأقمشة إلى خمسة أضعاف معدل الإنتاج اليومي أكثر مما كانت عليه من قبل في مجال المنسوجات، كسب كثير من الناس مالًا وفيرًا بسبب آلاتي التي اخترعتُها، حتى أنا...

سعل الكهل وشرع في نتف شعر ذقنه المدببة بحدة، ثم واصل حديثه:

- لقد اخترعت آلاف الآلات لأغراض سلمية، لكني اكتشفت بعد ذلك أنها صارت مدافع حربية، لقد تضاعف رأس المال بلا توقف، وازدادت معدلات الإنتاج في الشركات والمصانع، ولكن عدد العمال قد تقلَّص يا سيدي وتناقص، لقد كانت آلاتي التي اخترعتُها هي ذاتُ المدافع التي قصفت جيشًا كاملًا من العمال، لقد قضيتُ بتلك الآلات على حق مئات الآلاف في الوجود، لمَّا كنتُ في مانشستر رأيت رجال الشرطة يمتطون الأحصنة ويداهمونهم، ينقضُّون على رؤوسهم بالسيوف، دُهست إحدى الفتيات تحت أقدام الحصان، وأنا كنت السبب في كل هذا!

أزاح الرجل القبعة السميكة عن رأسه، ثم سعل من جديد، وتابع حديثه:

- عندما رجعتُ وضعتني أسرتي تحت الوصاية، لم يعجبهم أني بدأت في رفض كسب مزيد من الأموال، وأني أعلنت أني لن أبتكر أيَّ آلات جديدة، وأصررت على موقفي، لديهم ما يكفيهم في الحياة، يسكنون في منزلي على بحيرة شتارنبرج، أمَّا أنا فمنذ قرابة نصف عام معدودٌ ضمن المفقودين. قرأتُ في الصحف الأسبوع الماضي أنَّ ابنتي قد رُزقت طفلَها الأول، أيْ إني أصبحت جَدًّا، أصبحت جَدًّا وأنا أهيم في شوارع برلين كالصعاليك.

أجابه فابْيَان:

- تقدمك في السن لا يحُول دون ذكائك، يا للأسف! ليس كل المبتكرين عاطفيين مثلك!

- فكرت في السفر إلى روسيا، ولكنني بلا جواز سفر، ومن ثم لم أستطع السفر إلى هناك، وحتى لو سافرت؛ فبمجرد أن يسمع أحد اسمي فسوف أُعاد على الفور إلى ألمانيا، في حقيبتي هذه رسومات وحسابات لآلة نسيج جديدة سوف تُلغي كل آلات النسيج الحالية، هذه الرسومات والتصميمات التي في جيبي تُقدَّر أرباحها بالملايين؛ ولكني أفضِّل أن أظل جائعًا صعلوكا على تشريد مزيد من العمال!

شعر الرجل بالفخر مِما قاله، وربَّتَ بيده على صدره، ثم سعل من جديد، وواصل الحديث:

- سوف أبيت اليوم في المنزل رقم (93) بشارع يورك، قبل أن تُقفل البوابة بوقت قصير أدلف سريعًا إلى البيت، وحينما يسألني البواب إلى أين تذهب؟ أقول له: «سأزور عائلة جرونبيرج»، تسكن تلك العائلة في الطابق الرابع، ويعمل الرجل موظفًا بمصلحة البريد، أصعد كل يوم السُّلم ثم أمرُّ على باب بيته ثم أصعد إلى السطح، وأحيانًا أجد مرتبةً قديمةً في أحد الأركان فأجلس عليها، أبيت هناك، ثم أغادر المكان سريعًا في الصباح الباكر.

- كيف تعرَّفت إلى عائلة جرونبيرج؟

أجاب المخترع:

- من دليل العناوين، كان عليَّ أنْ أذكر اسم أحد السكان في حال سألني البواب لماذا أصعد إلى أعلى، وفي صباح اليوم التالي تنتهي الخدعة. فضلًا على أني أغيِّر عنواني كل يوم. وفي الشتاء أعطي درس فيزياء في إحدى المدارس الخاصة، وقد قادني ذلك الأمر إلى إعطاء دورة تنويرية عن معجزة التقنيات الحديثة المخادعة، لكنه لم يلقَ استحسانًا لا من التلاميذ ولا من المدير، لذلك آثرتُ أنْ أتدفأ طيلة ثلاثة أشهر في مكتب البريد. أمَّا الآن فلا حاجة بي إلى مكاتب البريد؛ الجو دافئ، أجلس ساعات طويلة في محطات القطار، وأراقب الناس الذين يتجمدون من البرد، بعضهم يصل إلى حيث أراد،

وبعضهم يتخلَّف عن السفر. كل هذه المشاهد تسليني. أنا أجلس هنا الآن سعيدًا، لأنني ما زلت على قيد الحياة.

كتب فابْيَان عنوانه وأعطاه للكهل قائلًا:

- احتفظ بهذه الورقة جيدًا، وإذا ما منعك أحد البوابين من الصعود فلتأت إليَّ، ويمكنك أنْ تبيت على الأريكة في غرفتي.

قرأ الكهل الورقة وسأل فابْيَان:

- ماذا ستقول صاحبة البيت عندما تراني؟

هز فابْيَان كتفيه عاجزًا عن الإجابة، فأردف الكهل:

- لا تخف بشأن السعال، حينما أجلس على السُّلَّم المظلم في الليل لا أسعل أبدًا، أسيطر على نفسي جدًّا كي لا أزعج سكان البيت، أليس نمط حياتي مضحكًا؟ بدأتُ حياتي فقيرًا معدمًا، ثم صرت ثريًّا بعد ذلك، أما الآن فأنا صعلوك معدم بائس لا يجد ما يأكله، لا أكترث لمكان سطوع الشمس، سواء في شرفتي في ليوني أم في كرويتسبرج هنا.

سعل الكهل ومدَّ ساقيه أمامه، فنهض فابْيَان واقفًا، وأخبره بأنه يجب أن يمضي، فسأله الرجل:

- ماذا تعمل؟

أجابه فابْيَان:

- عاطل.

وسار في الشارع المحفوف بالشجر على الجانبين المؤدي إلى شوارع برلين، وعندما عاد إلى غرفته في المساء مترنحًا متعبًا بسبب السير لساعات طويلة أراد في الحال أنْ يذهب إلى كُورْنِيلْيَا، كي يحكي لها عن الحدث المؤسف الذي حدث له اليوم. كان متأثرًا جدًّا لمجرد أنه تخيّل نفسه يحكي لكُورْنِيلْيَا بالفعل، ربما كان هذا الشعور بسبب الجوع أيضًا، لكن السيّدة هُوهِنْفِيلْد صاحبة البيت قد أفسدت عليه ما أراد فعله، إذ إنها وقفت في الردهة وهمست له قائلةً بطريقتها المعتادة إنَّ صديقه لَابُوْدَه هنا وينتظره.

جلس لَابُوْدَه في غرفة فابْيَان، لقد كان يعاني الصداع في الغالب، جاء معتذرًا عن تركه المنضدة ومغادرته المحل بدون أنْ يُحيّي فابْيَان؛ لكنه -في الواقع- كان يقصد من زيارته شيئًا آخرَ، فقد أراد أن يعرف انطباع فابْيَان عن علاقته بسِيلُوفْ.

الواقع أن لَابُوْدَه رجل أخلاقيٌّ، وظل طول عمره شغوفًا بأنْ تظلَّ سيرته الذاتية نظيفة بلا أخطاء، فهو -على سبيل المثال- لم يعبث قط بالمناديل الورقية في طفولته كسائر الأطفال، نشأ حبُّه للأخلاق نتيجة عشقه للنظام، أمَّا خطيبته في هامبورج فقد أضرَّت بنظامه الخاص به، وبالتالي أضرت بأخلاقه، فضلًا على تهديدها غير المباشر لجدوله الزمني العقلي، لقد فقدَتْ شخصيتُه زمامَها، ومن العجيب الآن أن يأتي عاشق الأهداف والمخطِط لها والساعي إلى تحديدها وتحقيقها.. يأتي إلى فابْيَان غير المكترث، محترفِ

الضياع والفوضى، يأتيه آملًا أن يتعلم منه كيف يبقى المرء هادئًا وهو يعايش القلق، قال له فابْيَان:

- إنك لا تبدو على ما يرام!

صدَّق صديقه على كلامه وقال:

- لم يغمض لي جفن طوال الليل، لقد تبين لي أن سِيلُوفْ كئيبة وحقيرة داعرة، فهي تجلس ساعات طويلة على الأريكة الوثيرة، وتهمهم بقذارتها كأنها تصلي وتبتهل، تشرب الخمر بكميات هائلة لدرجة أنك ستصير ثملًا خدِرًا لمجرد رؤية كمية ما تشربه، ثم تدرك أخيرًا أنها تجلس بمفرها في البيت مع رجل، هي من المؤكد ليست امرأةً عاديةً، تبدو كأنما هي سحاقية؛ ولكنها ليست كذلك، أعتقد ذلك حقًّا على الرغم من أن هذا مضحك.

استمع فابْيَان إلى حكاية صديقه المستفيضة، ولم يعجب لشيء منها، ومن ثم بقي لَابُوْدَه هادئًا مسترسلًا في حكايته، ثم أردف قائلًا:

- غدًا سأسافر إلى فرانكفورت لمدة يومين، سوف يأتي رَاسُوفْ أيضًا إلى هناك، سوف نؤسس مجموعة المبادرة، تقول الفتاة إنها راغبة في البقاء في منزلي الثاني طوال تلك الفترة، لقد ازدادت أحوالها سوءًا في الأشهر الأخيرة، يجب أنْ تستغرق في النوم، وتأخذ قسطًا وافرًا من الراحة، مع السلامة ياكوب.

ودَّع لَابُوْدَه صديقه فابْيَان، ثم مضى راحلًا، ومن ثمَّ دخل فابْيَان غرفة كُوْرنِيلْيَا، كان من الصعب جدًّا على نفسه أنْ يخبرها بخبر إقالته، لكن النحَّاتة رُوت رَايْتِر كانت تجلس عندها وبدت بائسة جدًّا، لم تتعجب لرؤية فابْيَان عندها، سمعها فابْيَان تكرِّر في إيجاز ما سبق لها أن قالته للآنسة باتينبيرج من قبل:

- نُقلت كُولْب إلى مستشفى شاريتيه بسبب عدة إصابات وكدمات داخلية، أمَّا فيلهلمي ذو الساق الخشبية المتهم بالشروع في قتلها فهو يرقد منذ أمس في الأتيليه، يتنفس بصعوبة، يتأوَّه وينتظر الموت.

أحضرت كُوْرنِيلْيَا بعض الفناجين والأطباق والشوكات والسكاكين من حقيبتها، وأعدت بعض الطعام، وجهّزت طاولة الأكل بشكل جميل، حتى باقة الورد كانت موجودة، وتهيأت رايتر للخروج، وقبل أن تقوم سألتهما:

- هل يعرف أحدكما عنوان لَابُوْدَه؟

كان واضحًا أنها جاءت لهذا السبب، كانت تأمل أنْ تعرف من زميلتها في الدراسة عنوان فابْيَان كيما يدلها على عنوان لَابُوْدَه؛ لأن الموظفين في الفيلا لم يعطوها أيّ معلومات عن لَابُوْدَه.

قال فابْيَان:

- أنا أعرف أين يسكن لَابُوْدَه، ثم إنه كان قبل عدة دقائق يجلس عندي في غرفتي؛ على أنه غير مسموح لي أن أخبرك بعنوانه.

صاحت النَحاتة:

- حقًّا هل كان هنا بالفعل؟ إلى اللقاء إذًا.

ثم هرولت إلى الخارج.

قالت كُوْرنيلْيَا:

- إنها تفتقد سِيلُوفْ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال فابْيَان:

- إذًا فهي تفتقد المعاملة السيئة.

ثم لثمته كُوْرنِيلْيَا، وجذبته نحو طاولة الطعام، فأعجبه جدًّا تلك التجهيزات التي أعدتها، وعقّبت كُوْرنِيلْيَا على كلامه قائلةً:

- بالنسبة إليَّ أنا.. لا.

ثم سألته مجدّدًا:

- ماذا عن الطعام؟ هل أعجبك؟

- عظيم، جميل جدًّا، هل من الممكن أن تسأليني في كل مرة حينما ينتظرني شيء عظيم كهذا؟ يعني مثلًا.. اسأليني إن كنتِ ترتدين فستانًا جديدًا، قولي لي: «هل رأيت هذا الحلق في أذني من قبل؟» لا بأس في أن تقولي لي: «هل كان الفرق في شعري أمس في المنتصف مثل اليوم؟»، أنا محتاج منك إلى مثل هذه الأسئلة، لأني لا ألاحظ ما يعجبني. يجب أنْ تنبهيني لهذه الأشياء دائمًا.

صاحت كُوْرنِيلْيَا:

- لا بأس عليك من ذلك، فأنت لم ترتكب خطأً، بالتأكيد أنت لا تخلو من بعض عيوب طفيفة قد تثير بغضي، لكنني أحبك في المجمل على كل حال.

في أثناء تناول الطعام حَكَتْ لفابْيَان أنها ستبدأ غدًا وظيفتها الجديدة، لقد قدَّمت نفسها اليوم أمام عدد من الزملاء والمسرحيين والمنتجين والمخرجين، ووصفت له البيت الغريب الرحب مترامي الأطراف الذي يجلس فيه حتى السطح أناسٌ ذوو شأن رفيع لحضور اجتماعات، ويتناقشون بشأن تطور الفيلم الصوتي، أجَّلَ فابْيَان ما أراد أنْ يقُصَّه عليها بشأن إقالته اليوم، وعندما فرغا من تناول الطعام أزاحتْ جانبًا طبقًا به شطيرتان، وقالت له:

- هذا هو «الإمداد العسكري الطارئ»[1].

صاح فابْيَان:

- لقد احمرّت وجنتاكِ من الشبع.

أومأت:

- أحيانًا تلاحظ بالفعل الأشياء التي تستحق الإعجاب.

---

(1) eiserne Ration: في الأصل، استعارة من عالم الحرب للإشارة إلى الإمدادات الضارية من طعام أو عتاد أو غيره لإبقاء الشخص على قيد الحياة أو استمرار كتيبة عسكرية وسط الحرب، وهكذا. (المحرر)

اقترح عليها الخروج معًا في نزهة للتجوال، فكر كثيرًا في اقتناص الفرصة المناسبة كي يقص عليها خبر الإقالة؛ ورأى أن هذه النزهة ربما هيّأت له ذلك. إلا أن تلك النزهة لم تتم؛ فما كادا يهمان بالخروج حتى سمعا سعال رجل آتٍ من خلف الباب، إنه العجوز المخترع في عباءته المنسدلة فوق كتفيه، قال العجوز:

- أتمنى لكما مساءً سعيدًا، معذرةً لقد أغراني العرض الذي قدمته لي اليوم بالمبيت على الأريكة عندك، ما أفقدني الرغبة في صعود كل السلالم التي أعرفها، لقد انعطفت في شارع يورك، ثم انحدرت مع الشارع حتى وصلت إلى هنا، في الحقيقة ألوم نفسي أني أزعجك خاصةً وأنك أيضًا عاطل.

بوغتت كُوْرنيلْيَا مما سمعت، فسألته:

- هل أنت عاطل؟ أحقًّا ما قاله الرجل؟ هل هذا حقيقي؟

اعتذر العجوز عن الحرج الذي تسبب فيه، لأنه اعتقد أن كُوْرنِيلْيَا تعرف خبر الإقالة، فقال فابْيَان بعد أن أفلت يده من ذراعها:

- لقد أُقِلتُ منٍ عملي صباح اليوم بالفعل! ولهذا منحوني مائتين وسبعين ماركًا، ولو دفعت منها الإيجار مقدمًا سيتبقى لنا مئة وتسعين ماركًا، لو أخبرني أحدهم أمسِ بما قد حدث لي اليوم لكنت سخرت منه وضحكتُ.

أعطى فابْيَان العجوز غطاءً كي يبيت على الأريكة، وأشعل النور بجواره، لأنه أراد أنْ يحسب بعض الحسابات، ثم تمنَّيَا له نومًا هانئًا وذهبا إلى غرفة كُوْرنِيلْيَا، وبعد وقتٍ قصير عاد فابْيَان يحمل بضع شطائر للعجوز، فهمس العجوز في أذن فابْيَان:

- أعدكما بأني لن أسعل.

- هنا مسموح لك أنْ تسعل كما تشاء، فجارك في الغرفة المجاورة يعربد بما يحلو له من ملذَّات من دون إخبار صاحبة البيت بما يفعل، غير أنني لا أعلم ما سيكون عليه الحال في صباحِ غدٍ؛ فالسيدة هُوهِنْفِيلْد صاحبة البيت ترى أنَّ قطع الأثاث عندها أنيقة غالية، ولا تسمح للغرباء بالمبيت عليها، ستغضب حقًّا لو علمت بمبيتك هنا، على كل حال نَمْ قرير العين هذه الليلة، وسوف أوقظك باكرًا وسنجد بالتأكيد فكرةً حتى الصباح.

قال العجوز وقد أخرج من جيبه بعض الأوراق وبدأ في تفحصها:

- تصبحان على خير يا أصدقائي الصغار.

وأردف قائلًا:

- هل ترشح لي هذه الآنسة لتصبح عروسًا لي؟

بدت السعادة على قسمات كُوْرنِيلْيَا لدرجة تهللت معها أسارير فابْيَان، وبعد مُضي ساعة افترس كلاهما الوجبة الحديدية. قالت كُوْرنِيلْيَا:

- إن الحياة جميلة.

بادرها فابْيَان:

- ماذا عن الوفاء؟ ولكن امضغي الطعام أولًا قبل أنْ تتفوهي بشيء مما يتعلق بمثل هذه الكلمات العظيمة.

جلس إلى جوارها، وثنى ركبته، وتطلع إلى الفتاة التي تمدَّدت بجانبه، ثم قال:

- أعتقد أني أنتظر فقط فرصة أُمنح فيها الوفاء، وفكرت في ذلك أمس، لكنني أعتقد أنني لا أستحق ذلك!

قالت بصوتٍ خفيض وقد اغرورقت عيناها:

- كلامكَ هذا يضمر اعترافًا لي بالحب.

مازحها فابْيَان مدّعيًا تهديدها:

- لو بكيتِ الآن فسوف أشدُّ سروالك.

تكورَّتْ في الفراش، وارتدت ملابسها الداخلية ذات الألوان الوردية، ثم وقفت أمام فابْيَان، وكانت تضحك، فيما الدموع تنهمر من عينيها، ثم همهمت:

- أنا لا أبكي وحسب؛ أنا أنتحب، يجب أن تنفِذ تهديدك إذًا.

ثم انحنت أمامه فجذبها إلى الفراش فقالت:

- يا حبيبي.. يا حبيبي لا تقلق!

الفصل الثاني عشر

المختِرع في الدولاب

البطالة عارٌ على صاحبها

الأم ضيف شـرف

عندما أراد فابْيَان إيقاظ العجوز المخترع في الصباح، كان الأخير قد استيقظ من تلقاء نفسه واغتسل وارتدى ملابسه، وجلس إلى الطاولة يحسب حساباته، فسأله فابْيَان:

- هل نمت جيدًا؟

كان مزاج العجوز في أحسن حال، ومدَّ يده مصافحًا فابْيَان وهو يقول:

- هذه الأريكة أفضل سرير.

واستطرد وهو يمسح بيديه على مسندَيْ الأريكة وظهرها البني كأنما يمسح على ظهر حصان:

- هل يجب أن أغادر المكان الآن؟

قال فابْيَان:

- ولذا أريد أن أقترح عليك شيئًا، ريثما أستحمُّ، ستحضر صاحبة البيت طعام الإفطار إلى هنا، ولا ينبغي لها أن تراك في الغرفة وإلا وقعت كارثة، وعندما تغادر صاحبة البيت يمكنك العودة، على أيِّ حال يمكنك البقاء سويعاتٍ أخرى، سوف أتركك بمفردكَ لأنه يتحتَّم عليَّ المغادرة للبحث عن عمل.

قال العجوز:

- لا بأس، سأتصفَّح هذه الكتب إنْ لم يكن لديك مانع. ولكن أين يجب أنْ أختبئ وأنت تستحم؟

أجابه فابْيَان:

- أفكِّر في الدولاب كمكان المناسب، لطالما كان الدولاب هو المكان المثالي للاختباء في التمثيليات الهزلية عن الخيانة الزوجية، دعنا نخرق هذه التقاليد يا ضيفي العزيز.. ما رأيك؟ هل يناسبكَ اقتراحي؟

فتح العجوز المخترعُ الدولاب وتفحَّصه بارتياب، وسأل فابْيَان:

- هل أنت معتاد أنْ تطيل وقت استحمامك؟

هدَّأ فابْيَان من روع الرجل، فأزاح المعطف الشتويَّ والبدلة الثانية التي يمتلكها إلى جانب، وترك الضيف يدلف إلى الدولاب، لف العجوز عليه عباءته، ووضع قبعته على رأسه، ووضع مظلة المطر تحت إبطه، وتسلل إلى الخزانة، فأحدَث ضجَّة عالية، ثم قال:

- ماذا ستفعل صاحبة البيت لو افترضنا أنها رأتني هنا؟

- عندها سيتحتَّم عليَّ البحث عن غرفة أخرى أول الشهر.

استند العجوز المخترِع إلى المظلة وأمأ برأسه ثم قال:

- فاذهب إلى الحمام، ولتبق هناك كما تشاء.

أوصد فابْيَان باب الدولاب، وأخذ معه المفتاح على سبيل الحيطة، ثم نادى في الردهة:

- مدام هُوهِنْفِيلْد، احضري وجبة الفطور من فضلك!

وما إن دلف إلى الحمام حتى طالع كُوْرنِيلْيَا وهي تجلس في البانيو تغطيها رغوة الصابون وهي تضحك، ثم همست لفابْيَان:

- لديَّ ذراعان قصيرتان جدًّا، ولذا يجب أن تَدْلُكَ لي ظهري بالصابون!

قال لها فابْيَان وهو يَدْلُكُ ظهرها:

- تريدين إذًا أنْ تجعلي الاستحمام لذيذًا وممتعًا!

وما إن فرغ فابْيَان حتى بدأت هي الأخرى -بدورها- تَدْلُك ظهره كما فعل معها، ومن ثمّ جلسا متقابلين، وراحا يلعبان ويتقاذفان الماء؛ وفجأةً تذكَّر فابْيَان فجأة أنَّ العجوز لا يزال في الخِزانة يتنظر أنْ يفتح له الباب، فصاح:

- العجوز ما زال في الدولاب ينتظر فتح الباب؛ يجب أنْ أُسرع!

قفز كلاهما خارجَ البانيو، وجفف كلٌّ منهما للآخر جسده تمامًا، ثم ودَّع بعضهما بعضًا. فهمست كُوْرنِيلْيَا:

- إلى اللقاء في المساء.

قبّلها فابْيَان في رقبتها وعينيها وشفتيها، وفي كل جزء من جسدها على حدة، ثم رجع إلى غرفته فوجد وجبة الفطور على الطاولة، أسرع وفتح الدولاب فخرج العجوز وقد تقوَّست ساقاه، وتنفس بصعوبة، فأخذ يسعل طويلًا ليعوِّض ما كتمه في صدره، قال فابْيَان:

- أمَّا الآن فالجزء الثاني لهذه الملهاة...

وخرج إلى الردهة، وفتح الباب ثم أغلقه وصاح:

- عظيم أنك أتيت لزيارتي يا عمي. تفضل!

قاد فابْيَان هذا الشخص الوهميَّ إلى الغرفة، وغَمَزَ للمخترع العظيم قائلًا:

- هكذا تكون هنا بشكلٍ رسميّ، تفضَّل، هنا فنجان آخر لك.

- فضلًا على أني حقًّا عمك.

- زيارات الأقارب لا تُغضب السيدة هُوهِنْفِيلْد، على العكس تقلل من سخطها.

- القهوة رائعة. هل لي أن آخذ شطيرة؟

وأخذ العجوز يتناسى ما لقيه داخل الدولاب، ومضى يستمتع بالفطور، ويأنس بدرجة القرابة الوهمية التي منحه إياها فابْيَان؛ فقال العجوز:

- لولا أني وكل ما أملكه تحت الوصاية لجعلتك حقًّا ابن أخي المحترم لطيلة حياتي.

أجابه فابْيَان.

- يُشرِّفني حتى أنك تفترض هذا.

ثم رفعا فنجاني القهوة في صحة العم الجديد وصاحا معًا:

- في صحتك.

اعترف العجوز لفابْيَان في حيرة واضطراب:

- أنا أحبُّ الحياة، أحبها بالفعل، حتى عندما كنتُ فقيرًا مُعدمًا، كنت أحيانًا أجلس تحت أشعة الشمس أو في الهواء الطلق حينما تهبُّ الريح في المتنزهات والحدائق، أقضم قطعة خبز وأنا في غاية السعادة، هل تعلم ما السبب في ذلك؟ أني أفكر دائمًا في الموت وأضعه نُصب عيني. مَن منكم يفكر فيه مثلي في هذه الأيام؟ لا أحد يفكر في الموت، كلكم تتركون أنفسكم تتفاجؤون حين يأتيكم كما يحدث في حادث تصادم قطار مثلًا، أو أي كارثة لا تُقدِّرون وقوعها، هل أصبحت البشرية غبية إلى هذا الحد؟ أمّا أنا فكلَّ يوم أفكر فيه، لأنه يمكن أنْ يأتيني أيَّ يوم، ولأني أفكر فيه أحبُّ الحياة. يا له من اختراع مذهل! وأنا خبيرٌ حاذق في كل ما هو مُبتكَر.

- وماذا عن سائر الناس؟

زمجر العجوز:

- لقد تفشى الجَرَب في الكرة الأرضية.

قال فابْيَان وقد هبّ واقفًا:

- هذان الضدان قلَّما يجتمعان؛ حبُّ الحياة واحتقار البشر في آن واحد!

ثم ترك ضيفه الذي لم يزل يحتسي قهوته، وسَألَ السيدة هُوهِنْفِيلْد ألَّا تُزعج عَمَّه، وتوجَّه إلى مصلحة العمل التابعة للمنطقة التي يسكن فيها.

قضى فابْيَان ساعتين عند ثلاثة موظفين مختلفين، وتبين له أنه توجَّه إلى المصلحة الخطأ، وأنه يجب أنْ يتوجه إلى مكتبٍ في الغرب متخصصٍ في توظيف موظفي المكاتب، وهكذا ركب الحافلة متوجهًا إلى ميدان فيتينبيرج؛ حيث المكتب الموسوم، ومع الأسف كانت المعلومات التي أُعطيت له خطأً، ووجد نفسه بين سربٍ من الممرضات، ومربيات الحضانة، وكاتبات الآلة الكاتبة العاطلات، وكان لافتًا جدًّا للنظر، لأنه كان الرجل الوحيد بينهنّ!

تراجع عن هذا الجمع الغفير، وخرج من المكان بسرعة، فوجد بعد بنايتين أخريين مبنًى يبدو كأنما هو جمعية استهلاكية، لكنه اكتشف أنه مصلحة العمل التي يجب أنْ يسجِّل نفسه فيها.

جلس أحد الموظفين وراء منضدة وأمامه طابورٌ طويلٌ من الموظفين العاطلين يختمون بطاقةً في أيديهم من هذا الموظف، ويحصلون على مُذكِرة التسجيل المطلوبة. تعجَّب فابْيَان من طريقة لبس هؤلاء العاطلين، فكان بعضهم مُهندمًا أنيقًا، ولو رآه أحد

على جسر كورفورست مصادفةً لاعتبره متعطلًا عن العمل طواعيةً وتكاسلًا منه.

من المحتمل أن هؤلاء القوم يذهبون كل يوم إلى مصلحة العمل للحصول على الختم، ويعتبرون هذا الأمر نزهتهم في شوارع الأثرياء التي تعجّ بالشركات والمتاجر، وحينما يتسكعون ويقفون أمام أبواب ونوافذ المحلات الزجاجية لا يكلفهم الأمر شيئًا؛ فمَن ذا الذي يعبأ بشأنهم، أو يريد أن يعرف ما إذا كانوا سيشترون ما يريدون أم ليس بإمكانهم شراء أيِّ شيء؟ لقد كانوا يرتدون الملابس التي يرتدونها أيام الاحتفالات والمناسبات، وهم مُحِقُّون في ذلك، فمَن يستمتع بأيام الإجازات والعطل مثلهم؟

كانوا يصطفُّون بعضهم وراء بعض في طوابير، وينتظرون حتى يُسمح لهم بختم بطاقاتهم، ثم يغادرون المكان كأنهم خرجوا توًّا من عيادة الأسنان. أحيانًا كان الموظف يوبخهم ويضع إحدى البطاقات على جانب الطاولة، فيأتي أحد المساعدين ويأخذها إلى غرفة مجاورة حيث يجلس أحد المفتشين كأنه يجلس على عرشه، فيحكم على بعض العاطلين بامتثالهم للمساءلة القانونية. ومن حين إلى آخر كان يدخل أحد المساعدين لينادي بعض الأسماء.

قرأ فابْيَان الملصقات المطبوعة المُعلقة على الحوائط، تتضمن تلك الملصقات كثيرًا من التعليمات من قبيل: حظر ارتداء شارات الذراع المميِّزة، أو الحصول على تذاكر تبديل وسائل المواصلات

من أصحابها الأصليين ثم استخدامها. كما كان من الممنوعات إثارة أيِّ جدلٍ سياسي، أو المشاركة في أيّ نقاشات تمتُّ للسياسة بصلة.

أُخْطِرَ الجميع بما ينبغي عليهم صنعه كيما يحصلوا على وجبة صحية للغداء في مقابل ثلاثين بْفِينْجًا فقط، وأخطر أصحابها بالأيام المخصصة لكل حرف من الحروف التي تبدأ بها أسماؤهم، وكذلك أُخطروا بأسماء المهن التي بُدِّلَت، والأوقات التي ينبغي على أصحابها الحضور فيها، أخطر الجميع بالتعليمات الإرشادية، والمحظورات التي ينبغي عليهم تجنُّبها. تمَّ الإخطار.. تم التنبيه بالحظر.. تمَّ الإخطار.. تمَّ التنبية بالحظر، وهكذا دواليك.

بدأ المكان يخلو من الزُوَّار شيئًا فشيئًا، وكان فابْيَان قد وضع أوراقه أمام الموظف، وأخبره الرجل بأنَّ القوائم الخاصة بوظائف الدعاية والإعلان ليست متاحةً هنا غالبًا، ونصح فابْيَان بضرورة التوجه إلى المكتب المختص بتوجيه المهن الحرة والعلماء والفنانين، وأعطاه العنوان.

ركب فابْيَان الحافلة قاصدًا ميدان ألكسندر - برلين. كان النهار قد انتصف تقريبًا. عند وصوله إلى المكان الجديد وجد نفسه وسط مجتمع جديد كليَّةً عليه. استدلَّ من المُلصقات التي تعلو الحائط أنه من الوارد أن يكون المكتب مُخصصًا لخدمة الأطباء والمحامين والمهندسين والدبلوماسيين ومدرِّسِي الموسيقا، وتناهت إلى سمعه بعض حوارات الحاضرين، فقال رجل قصير:

- أنا مُدرج الآن تحت رعاية ضحايا الأزمات.

وقال آخر:

- أحصل على أربعة وعشرين ماركًا ونصف، ولكل فرد من أسرتي أحصل أسبوعيًّا على ماركين واثنين وسبعين بْفِينْجًا، عندي وقت فراغ يكفي لحساب هذه الحسابات، ولو استمر الأمر على هذا المنوال فسَأَمْتَهِن السرقة واقتحام البيوت عما قريب.

تنفَّس الشاب قصير النظر الذي يجلس جانبه الصُّعَداء قائلًا:

- ليت امتهان السرقة أمرٌ سهل، حتى السرقة يجب أن تتعلمها، لقد مكثتَ عامًا في السجن، أي إنه توجد بيئة ستسعد بك.

قال الشاب الآخر في اضطراب وخجل:

- الأمر عادي، سواء، على الأقل قبل ذلك.. ماذا كان في وسعي أن أعمل. لم يعُد في إمكان زوجتي أن تعطي الأطفال قطعة خبز معهم وهم ذاهبون إلى المدرسة، لن أستطيع احتمال هذا الوضع طويلًا.

قال رجلٌ طويلٌ عريضٌ يرتكز إلى النافذة:

- تتحدثون كأن السرقة هي الحل! حينما لا يجد مواطنو الطبقة المتوسطة ما يسدُّون به رمقهم فسيصيرون على الفور من أفراد

البروليتاريا الرثة[1]، أي سيكونون في مرتبة أقل من مرتبة الطبقة العاملة! لماذا لا تفكرون بوعي طبقي أيها الحثالة؟ ألا تعلمون إلى أيِّ طبقة تنتمون؟ هل تساعد الثورة السياسية على التوغُّل والانتشار؟

وتداعت الردود، فقال أحدهم:

- حتى نصل إلى هذا الوعي سيكون أولادي قد تضوَّروا من الجوع!

قال الرجل الواقف أمام النافذة:

- حينما يُزجُّ بك في السجن لأنك سرقتَ سيجوع أولادك بشكل أسرع.

ضحك الشاب قصير النظر وهزَّ كتفيه آسفًا.

بعدها قال الرجل القصير:

---

(1) البروليتاريا الرثة (بالإنجليزية: Lumpenproletariat) أي ما دون أو تحت البروليتاريا، وهو مصطلح أطلقه كارل ماركس في بيان الحزب الشيوعي لوصف الطبقة التي تكون في مرتبة دون الطبقة العاملة، ولا يحظون بنوع من الوعي وغير مفيدين في العملية الإنتاجية أو اجتماعيًّا، ولا فائدة منهم في النضال الثوري، وربما يمثلون عائقًا أمام تحقيق مجتمع لا طبقي. عُرِفت البروليتاريا الرثة على أنهم حثالة الفئات الدنيا من المجتمع القديم، إذ إن هذه الطبقة قد تنجرف هنا وهناك في الحركة بفعل ثورة بروليتارية، لكنها بحكم وضعها الحياتي كله تصبح أكثر استعدادًا لبيع نفسها لمكايد الرجعية. (المترجمة)

- ليس لديّ نقود لدفع ثمن تذاكر المواصلات، ولقد اهترأ نعلا حذائي وتمزَّقا تمامًا، إن مجيئي ماشيًا كل يوم يجعلني محتاجًا إلى حذاء جديد كل أسبوع!

سأله الشاب قصير النظر:

- ألم تحصل على حذاء برقبة من مكتب الرعاية الاجتماعية؟

أجاب الرجل القصير:

- بلى، ولكن قدمي حساسة.

قال الرجل المائل بجسده إلى النافذة:

- فلتبقْ هنا إذًا!

وضع الشاب قطعتين نقديتين على الطاولة وراح يعدُّ ثروته وهو يقول:

- أنْفِقُ نصف دخلي بصورة منتظمة على طلبات التعيين، يجب إرسال الطلبات بالبريد وسداد رسوم الإرسال بالبريد، يجب تصوير الشهادات عشرين مرةً والمصادقة عليها كل أسبوع، لا تعيد أي شركة إليّ الطلبات في حال الرفض، كما أنهم لا يُرسلون إليّ حتى الرد. من الواضح أنَ المعُلنين عن الوظائف يمارسون هواية جمع طوابع البريد بدلًا من ردِّ أوراقي وشهاداتي إليّ مرة أخرى.

قال الرجل الذي يستند إلى النافذة:

- ولكن الإدارات تؤدي ما هو منوط بها من مهمات، بالإضافة إلى أنهم يقدمون دورات لتعليم الرسم مجانًا للعاطلين. يا لها من رفاهية يا سادة! في البداية يتعلم العاطل طريقة رسم التفاح وشريحة لحم البقر، ثم يشبع حينما يرى الصور؛ إنها التربية الفنية كوسيلة لسدِ الجوع!

قال الرجل القصير، الذي بدا أنه فقَدَ كل حس الفكاهة، بنبرة حزينة:

- هذا لا ينفعني ولا يغني من جوعي على الإطلاق، فأنا رسَّام.

قطع موظَّفٌ ردهة صالة الانتظار، فبادر فابْيَان ليستفسر منه بحذرٍ عمَّا إذا كان ثمة فرصة لتسجيل اسمه في هذا المكتب، فسأله الموظف عن بطاقة مصلحة العمل المحلية قائلًا:

- أنت لم تسجِّل نفسك بعد؟ يجب أن تفعل ذلك أولًا.

قال فابْيَان:

- هل معنى ذلك أنه ينبغي لي العودة الآن إلى المكتب الذي كنت فيه قبل خمس ساعات؟

ولكن الموظف غادر الغرفة على الفور بدون أن يجيب عن سؤاله.

قال أحد الشبان:

- من ناحية الخدمة؛ فهي على درجة عالية من الأدب واللطف، أمَّا من ناحية كون ما يخبروننا به صحيحًا، فلا يمكن لأحد أنْ يزعم ذلك.

أقلَّ الباصُ فابْيَان إلى مصلحة العمل التابعة لمحل سكنه، كلَفته تذكرة الحافلة ماركًا واحدًا؛ كان غاضبًا إلى درجة أنه لم ينظر عبر النافذة طول الطريق، وعند وصوله كانت مواعيد العمل الرسمية قد انتهت وأغلقت المصلحة أبوابها، فقال له الحارس:

- هل لي أنْ أساعدك؟ لطفًا أعطني أوراقك لو أحببتَ.

أعطاه فابْيَان رِزمة الأوراق، تفحَّص الرجل الأوراق ثم أردف:

- أنتَ لست عاطلًا إذًا، أنت مدفوع الأجر حتى نهاية الشهر، ألم تحصل على المال من الشركة؟

- بلى.

- إذًا تعال إلى هنا مرةً أخرى بعد أربعة عشر يومًا، وحتى انتهاء هذه المدة يمكنك إرسال مزيد من طلبات التوظيف، يمكنك إيجاد مزيد من الإعلانات التوظيفية في الجرائد، ليس الأمر ذا أهمية بالغة، ولكنه ضروري!

أخذ فابْيَان رِزمة الأوراق من الموظف، ثم توجّه إلى حديقة تيرجارتن حيث أراد أن يأكل بعض الشطائر، ثم راح يُطعم بقايا طعامه للإوَز في البحيرة، وعندما دخل إلى غرفته في المساء وجد أمه جالسة في انتظاره، جلست على الأريكة وفي يدها كتاب، فلمَّا رأته وضعت الكتاب جانبًا وقالت:

- هل فوجئتَ بزيارتي لك اليوم يا بني؟

تعانقا ثم واصلت كلامها:

- كان عليّ أنْ أرى ماذا تفعل. والدك مشغول حاليًّا بالمتجر، ساورني القلق على أحوالك؛ لأنك لا ترد رسائلي.. منذ عشرة أيام لم تكتب لي كلمة واحدة. لم يهدأ بالي بسببك يا ياكوب.

جلس إلى جانب والدته وربَّت على يديها، وهدَّأ من روعها، زاعمًا أنه بخير؛ فتفرَّست ملامحه بعينيها وتابعت تقول:

- هل أزعجكَ مجيئي؟

هزَّ فابْيَانْ رأسه نافيًا، ثم وقفت الأم وقالت:

- لقد رتبتُ لك ملابسك في الدولاب، حتى لا تراها صاحبة البيت ملقاةً هكذا. هل يمكنك تخمين ماذا أحضرتُ لك اليوم معي؟

فتحت السلة التي كانت معها، وأخرجت منها بعض اللفافات ووضعتها على المنضدة، وقالت:

- سجق الدم[1]، إنه رطل كامل اشتريته لك من شارع برايته، أنت تعلم أني أشتريه من هناك، وأيضًا شرائح لحم باردة؛ يا للأسف لا يمكن لي أن أشويها لك هنا في المطبخ، معي أيضًا شحم خنزير، ونصف واحدة من سُجق السلامي. خالتك مارته ترسل السلامات، كنت عندها أمس في حديقتها. أحضرتُ

---

(1) عبارة عن سجقٍ/ نقانق محشوَّة بالدم المطهو أو المجفَّف الممزوج مع مادة حشو حتى يصبح سميكًا. (المحرر)

لك قطعتي صابون من دكاننا، أتمنى أنْ تسير الأمور على ما يُرام في هذا المشروع الصغير، إذ من الواضح أنّ الناس ما عادوا يستحمون ويستعملون الصابون. وأخيرًا هذه رابطة عنق لك. هل أعجبتك؟

- أنتِ أطيب أم؛ لكن ما كان عليك إنفاق هذا المال لأجلي.

قالت الأم وهي تضع الطعام في طبقٍ كبير:

- كُفَّ عن هذا الهُراء، هل من الممكن أنْ تتكرم علينا صاحبة البيت وتصنع لنا شايًا؟ لقد أخبرتها أني عائدة غدًا في المساء، جئتكَ اليوم بالقطار، وقد مضى الوقت فيه سريعًا، كان معي في الكابينة طفل وضحكنا كثيرًا. فابْيَان.. هل قلبك سليم؟ أنت تفرط في التدخين، في كل مكان أجد علب السجائر الفارغة.

رمق فابْيَان أمه بناظريه وهي تتعامل معه كأنها شرطيّ يتفقد أحواله، وقال لها:

- لقد تذكّرت أمس عندما كنتُ في المدرسة الداخلية، وكنتِ أنتِ وقتذاك مريضة، وذات مساء ركضتُ إلى البيت لكي أطمئن عليكِ، عرفتُ أنكِ دفعتِ أحد الكراسي واتخذت منه متكأً تستندين إليه كي تتمكني من الوقوف وفتح الباب لي، وإلا ما فتحتِ لي الباب يومها.

طُرق الباب ثم دخلت السيدة هُوهِنْفِيلْد ومعها الشاي، وضعته على الطاولة ثم قالت:

- لقد جاء عمك.

سألته الأم في دهشة:

- عمكَ؟

أردفت صاحبة البيت:

- لقد اندهشتُ أنا أيضًا من هذا الأمر!

ردَّ عليها فابْيَان قائلًا:

- أتمنى ألا نكون قد سببنا لكِ إزعاجًا يا سيدتي.

شعرَتْ السيدة هُوهِنْفِيلْد بالحَرَج وغادرت الغرفة، ومن ثمَّ أدخل فابْيَان المخترع إلى غرفته، وقال لأمه:

- يا أمي، هذا صديق قديم نام بالأمس هنا على الأريكة، وزعمتُ لها أنه عمي كي أتجنب الشجار معها.

ثم التفت فابْيَان إلى المخترع وقال له:

- هذه أمي يا عمي العزيز، إنها أفضل سيدة في هذا القرن على الإطلاق، يا للأسف! لا أستطيع أنْ أعرض عليك اليوم المبيت عندي، ولكن غدًا سيتاح لك هذا الأمر من جديد لو أردتَ ذلك.

جلس العجوز وطَفِقَ يَسعُل، لفَّ القبعة على مقبض مظلة المطر ثم دسَّ في يد فابْيَان ظرفًا مُغلقًا، وقال له:

- ضعه بسرعة في جيبك؛ إنه تصميم لمَكِنَة جديدة، احتفظ به لنفسك، إنهم يركضون ورائي؛ تريد أسرتي أنْ تسلِّمني إلى مستشفى الأمراض العقلية؛ كي يأخذوا مني هذا التصميم ويحصلوا على مزيد من المال.

دسَّ فابْيَان الظرف سريعًا في جيبه، وقال للعجوز:

- هل يريدون إيداعك حقًّا مستشفى الأمراض العقلية؟

- لامانع لديَّ في ذلك، فهناك يجد المرء الراحة التي يبتغيها، والحديقة رائعة، والطبيب المعالج هناك شاب لطيف، وهو نفسه مُصابٌ بلوثة جنون، ويجيد لعب الشطرنج، لقد كنت هناك مرتين من قبل. وحينما أصير في غاية الحُمق يُخْلُون سبيلي. أعتذر إليكِ جدًّا سيدتي على الإزعاج.

تابع الشيخ حديثه موجِّهًا كلامه إلى والدة فابْيَان:

- لا تخافي حينما يقبضون عليَّ ويصحبونني، سوف يرنُّ جرس الباب حالًا، أنا مستعد لهم، لا سيما بعد أنْ سلَّمت الأوراق لفابْيَان. أنا لست مجنونًا، أنا أعقل من كل أقاربي. صديقي العزيز أرجو أن تكتب لي ما بين حين وآخر بعض السطور وترسلها إليَّ في المصحة في بورجندورف.

رن الجرس، صاح العجوز:

- ها هم إذًا!

أدخلت السيدة هُوهِنْفيلْد رجلين إلى الغرفة، فقال أحدهم وقد أحنى ظهره قليلًا:

- نعتذر عن الإزعاج، هل تسمح لي أنْ أصحبك معي يا بروفيسور كولريب، أرجو أن يتم ذلك وأنت بكامل إرادتك! فالعربة تنتظرك أسفل.

- لماذا كل هذا الإزعاج يا حضرة المستشار الطبي؟ بالمناسبة.. هل صرتَ أنحف؟ لقد رأيتك أمس وأنت تراقبني، أهلًا فنكلر، هل سنصعد إلى عربتك؟ كيف حال عائلتي الطيبة؟

هزَّ الطبيب كتفيه، ومضى العجوز نحو الدولاب ففتحه ونظر داخله، ثم أغلق بابه مرة أخرى، ثم توجَّه جهة فابْيَان ومدَّ يده مصافحًا، فأمسك فابْيَان يده بقوه، وقال العجوز:

- أشكرك جدًّا.

ثم مضى نحو باب الغرفة وقال لوالدته:

- لديك ابنٌ بارٌّ عطوف. هذا أمر لا يمكن الاختلاف عليه.

ثم غادر الغرفة وتبعه الطبيب ثم الحارس، نظر فابْيَان ووالدته من النافذة فوجدا عربةً أمام البيت تنتظره، خرج ثلاثتهم من باب البيت، وساعد السائقُ الشيخَ على ارتداء معطف الوقاية من الغبار، وقد اختفت تحته القلنسوة القصيرة.

قالت الأم:

- يا له من رجل غريب! لكن أليس مخبولًا حقًّا؟

انطلقت العربة من أمام البيت، وتابعت الأم:

- لكن لماذا كان ينظر دومًا داخل الدولاب؟

أجابها فابْيَان:

- لقد حبستُه اليوم في الصباح داخل الدولاب كي لا تراه صاحبة البيت.

صبَّت الأم الشاي وواصلت حديثها:

- ألا ترى أن استقبال غرباء وتركهم ينامون في غرفتك يُعدُّ طيشًا منك؟ من الممكن حدوث أيّ مكروه لك يا بني! أتمنى ألا يكون قد دنَّس ثيابك في الدولاب.

كتب فابْيَان عنوان المصحة النفسية على الظرف وأغلقه، ثم جلس ليتناول الطعام، وبعد تناوله الطعام قال:

- هيا يا أمي اجهزي.. سنذهب إلى السينما!

فيما كانت الأم ترتدي ملابسها ذهب فابْيَان سريعًا إلى كُوْرنِيلْيَا، وأخبرها بأنَّ أمه عنده في الغرفة، وكانت كُوْرنِيلْيَا متعبةً ومرهقةً وترقد بالفعل في الفراش، قالت هامسةً:

- سوف أنام حتى تعودا من السينما، هل ستأتي إليَّ مرة أخرى بعد عودتك؟

- أعدكِ بذلك.

كان الفيلم الذي رآه فابْيَان وأمه تصويرًا لتمثيلية سخيفة ذات فصلين، تعرض مظاهر الإسراف في الإنفاق والبذخ الذي تخطًى كل الحدود، وهو ما يعطي المشاهدين انطباعًا بأن السماء تُمطر ذهبًا وفضة، على أن الأم كانت تضحك باستمرار، ما أسعد فابْيَان، وجعله يضحك هو الآخر.

عادا بعد السينما إلى البيت سيرًا على الأقدام، وكانت الأم سعيدة جدًّا لذلك، وقالت لابنها:

- لو كانت صحتي فيما سبق موفورة مثل اليوم لكانت أحوالك قد تبدَّلت للأفضل يا ولدي.

- لم تكن أوضاعي سيئة للغاية يا أمي، وقد مرَّ السوء وانقضى أمره، فلا تشغلي بالك.

وفي المساء اختلفا حول موضع نوم كل واحد منهما، أصرَّ فابْيَان على أن ينام على الأريكة، وأن تنام أمه على سريره، والأم لا تريد أن تضايق ابنها، بَيْدَ أنها استجابت لرأي فابْيَان أخيرًا، فأعدَّت الأريكة لتكون موضع نومه. ولكنه استأذن منها للذهاب إلى جارته:

- تسكن بجواري إحدى الفتيات، وهي صديقتي.

ودَّع أمه وقبَّلها ثم فتح الباب في هدوء، وما هي إلا دقيقة واحدة حتى عاد إلى أمه، ثم رقد على الأريكة وهمس لها قائلًا:

- إنها تغط في النوم.

قالت أمه:

- لم يكن مسموحًا بمثل تلك الأمور من قبل!

قال فانْيَان وقد أدار وجهه إلى الحائط:

- أُمُّ صديقتي قالت لها هذا أيضًا.

وقبل أنْ يغيب في نومه وقف فجأةً، وذهب إلى السرير، وانحنى نحو أمه وقال لها:

- أحلامًا سعيدةً يا أمي.

فتحت عينيها وتمتمت هي الأخرى:

- ولك مثل ذلك أيضًا يا ولدي.

ثم تحسَّس الطريق في خطوات بطيئة ليعود إلى موضع نومه على الأريكة.

الفصل الثالث عشر

المتجر وأرتور شوبنهاور

الماخور

ورقتان قيمة كل منهما عشرون ماركًا

أيقظت الأم فابْيَان في الصباح التالي مبكرًا:

- استيقظ يا فابْيَان، ستتأخر على عملك.

تأهَّب فابْيَان سريعًا للخروج، وشرب قهوته واقفًا، ثم ودَّع أمه وخرج، وكانت الأم تقول:

- سأرتب لك كل شيء حتى تعود، وأزيل هذا الغبار الذي يغمر كل مكان، حتى المعطف الذي تمزق من الخطاف الذي تُعلقه عليه سوف أُصلِحه لك، لا بأس في خروجك بدون معطف اليوم، فالجو دافئ في الخارج.

استند فابْيَان إلى الباب وهو خارج، وراقب أمه وهي منهمكة في التنظيف والترتيب، كانت الأم تحب النظام، فضلًا على حبها لولدها، ما زاد شغفها بهذا التنظيف ليكون أكثر راحةً لولدها، وهكذا عملت بجد حتى سال العرق على جبينها، لقد أشعره وجود

أمه بالدفء والاحتواء اللذين افتقدهما، وكاد يشعر أنه جليس البيت معها، رمقها في حبور وهو يقول:

- أليس من الأفضل أنْ تجلسي خمس دقائق وتستريحي؟ ألم يكن من الأفضل ألَّا أذهب للعمل وأن أظلَّ معك أو نذهب إلى حديقة تيرجارتن معًا أو إلى حديقة الأسماك؟ كان في وسعنا أن نظل هنا، وتحكي لي من جديد كم كنتُ طفلًا مضحكًا حينما خَرَّمتُ جزءًا كاملًا من مرتبة السرير بالدبوس ثم ناديتكِ حتى تأتي وتشاهدي بنفسك هذه اللوحة الفنية، أتذكرين يوم أهديتكِ في عيد ميلادك خيوطًا سوداء وبيضاء ورِزمة من إبر الخياطة والأزرار؟

قاطعته الأم:

- وكومةً من الدبابيس، وخيوط حياكة حريرية لونها أبيض وأسود، ما زلت أذكر ذلك كله حتى هذه اللحظة.

تابعت الأم وهي تحاول تسوية كسور في قطعة من ملابس ابنها حملتها بين يديها:

- كان حريًّا بكَ أنْ تكوي هذه القطعة.

أضاف فابْيَان بصوت الحكيم المتبصِّر بأموره:

- أجل.. وكان من الواجب أنْ يكون لي زوجة وسبعة أطفال كذلك.

وضعت الأم يديها على خصرها ثم قالت:

- أمَّا الآن فاذهب إلى العمل! على أيِّ حال سأمرُّ عليك بعد الظهر وأنتظرك عند المكتب الذي تعمل به أمام الباب، كي توصلني إلى محطة القطار.

اقترب فابْيَان من والدته وهو يقول:

- خسارة كبيرة أنك ستبقين معي يومًا واحدًا فقط وليس أكثر!

لم تلتفت إليه الأم، وبدأت في ترتيب الأريكة وتنظيفها، ثم همهمت:

- لم أحتمل النوم على السرير وأنت هنا عليها، ومن اليوم ستنام أنت مجددًا عليه كي تنام قرير العين. يجب أنْ تنام كثيرًا، ولا تأخذ الحياة على هذا المأخذ الجدِّي الصعب؛ فهي لن تهون عليك ما لم تهوِّنها أنت على نفسك.

أردف فابْيَان.

- سأذهب حالًا وإلا وصلت متأخرًا جدًّا إلى العمل.

نظرت الأم من النافذة وأومأت إلى ولدها، لوَّح لها، وظلَّ يضحك وهو يسرِع الخطو حتى غاب البيت عن ناظريه، ثم تباطأ في خطواته حتى ظلَّ واقفًا، استراح قليلًا من تلك المسرحية التي لعبها توًّا مع أمه! وفرغ الآن منها، وفرغ من دوره في اللعبة.

مضى فابْيَان بدون أن يعلم له وجهةً، أو يحدد ما سوف يعمله في هذا الوقت، لقد ترك أمه وحيدةً في تلك الغرفة القبيحة، وتخلَّى طواعيةً عن تلك الساعات القليلة التي ينبغي أن يقضيها معها، مع أنه

يعلم أنها كانت على أتمِّ الاستعداد أنْ تستبدل كل ساعة تقضيها معه بعام كامل من حياتها!

سوف تنتظره بعد الظهيرة أمام المكتب، المفترض أنه ما زال يعمل به، لذا يتوجَّب عليه أنْ يواصل لعبته هذه فلا يجب أن تعلم أنه أُقيل من عمله.

الملبس الذي ارتداه اليوم هو الملبس الوحيد الذي اشتراه لنفسه طيلة اثنين وثلاثين عامًا، أي طيلة عمره! كم كدحت الأم طيلة حياتها وادَّخرت المال من أجله! ألم يأْنِ الوقت كي تستريح هذه المرأة أخيرًا؟

أمطرت السماء؛ فتسلَّل فابْيَان إلى متجر فيستن، مثل هذه المتاجر يكون بمنزلة المقهى بالنسبة إلى الأشخاص الذين لا يملكون مالًا، وليس في حوزتهم مظلة يحتمون بها من المطر، تغدو مكانًا جيدًا للترفيه. تطلع إلى إحدى البائعات وهي تلعب على البيانو ببراعة وإتقان، فرَّ فابْيَان من قسم المواد الغذائية بسبب رائحة السمك التي أزكمت أنفه؛ إنه ينفر من تلك الرائحة، ربما كان يكرهها منذ أن كان جنينًا في رحم أمه!

أمَّا في طابق الأثاث.. فحاول البائع الشاب إقناعه بجدوى بشراء خزانة ملابس، زاعمًا أن عليها خَصمًا كبيرًا، وأنها فرصة لا تعوَّض لأن سعرها مناسب جدًّا، تملص منه فابْيَان، وتوجَّه إلى قسم الكتب، وهناك توقف أمام أحد الكتب القديمة لشوبنهاور، وراح يتصفَّحه مفكرًا:

«كانت فكرة هذا الجدِ العجوز لتحقيق الخلاص للقارة الأوروبية -من خلال الاستعانة بالفلسفة الهندية- ضربًا من الطيش والحماقة، مثله في ذلك مَثَلُ جميع الاقتراحات الإيجابية التي طُرِحت حتى يومنا هذا، سواء نبعَتْ من اجتهادات فلاسفة القرن التاسع عشر أم من مساعي أساتذة الاقتصاد القومي في القرن العشرين. ولكن بصرف النظر عن ذلك كان الفيلسوف العتيق فلتةً لا نظير لها».

كان فابْيَان يقلِّب صفحات الكتاب، واستوقفته إحدى المحاورات فطفق يقرأ:

«ثمة فروق بين البشر عبَّر عنها أفلاطون في محاوراته، وهذه الفروق إنما هي ناتجة عن المهارات المختلفة التي اكتسبها كل إنسان في مواجهة التأثيرات الإيجابية أو السلبية، ولذا نجد الموقف الواحد يجعل بعض الناس يضحك عابثًا، ويجعل بعضهم الآخر ينهار فاقدًا الأمل! وفي نهاية كل أمر (سواء كانت النهاية سعيدةً أو حزينة) سنجد المتشائم حزينًا بطبيعة الحال للنهاية المأسوية؛ لكنه لن يفرح لو كانت النهاية سعيدةً؛ وعلى النقيض تمامًا، لن يغضب الصنف المتفائل بسبب النهاية الحزينة؛ ولكنه سيفرح للنهاية السعيدة. وهذا الصنف الأول السلبي التفكير من البشر إذا استطاع تحقيق تسعة أهداف من عشرة فلن يُسَرَّ بالأهداف التسعة التي أنجزها، بل سيشقى من أجل هدف خاب ظنه لأجله، أمَّا إيجابي التفكير فإنه في حالة الإخفاق يعلم كيف يُسَرِّي عن نفسه ويُسعدها، كما أن بإمكانه تخطي كل الصعاب والمشكلات وتجاوزها، ورؤية

الجانب الإيجابي في ذلك كله. مَن يَرَ العدمية وكل شيء بنظرة سوداء تشاؤمية فسيَخْشَى دومًا حدوث الأسوأ له، وسيظل متحفِزًا على الدوام لاتخاذ إجراءات الحيطة والحذر كي لا يقع ما يخشاه».

باغتت إحدى البائعات فابْيَان بسؤالها:

- ماذا تريد أنْ تشتري؟

سألها فابْيَان:

- هل عندكِ جوارب قطنية؟

حَدَجَته المرأة وأجابته باستياء:

- في الطابق الأرضي.

وضع فابْيَان الكتاب على المنضدة وهبط السلالم إلى أسفل وهو يفكر:

«هل كان شوبنهاور محقًّا في وضع هذا التصنيف بين البشر؟ ألم يدَّعِ في فلسفته النفسية أنَّ الشعور بالمتعة ليس إلا الحد الأدنى للشعورِ بالسَأم والتَثَاقُل؟».

وصل فابْيَان إلى قسم منتجات الخزف والصيني، وهناك وجد ضجةً احتشد حولها البائعون والبائعات، وكذلك المتسكعون بلا هدف مثله؛ كانت فتاة صغيرة تبلغ عشر سنوات تنتحب بصوتٍ عالٍ، وتحمل حقيبة المدرسة وترتدي ثيابًا رثَّة، وقد زادت الجماهير المحتشدة حول الفتاة من رعبها. إنها ترتجف لمرأى تلك الوجوه البشرية بالغة الشر والشراسة! تقدَّم مدير القسم نحو الزحام وسأل:

- ماذا يحدث هنا؟

أوضحت إحدى البائعات:

- لقد ضبطتُ هذه الفتاة الحقيرة وهي تحاول سرقة مِنْفَضَة سَجائر!

ثم رفعت المِنْفَضَة الملونة كي يراها رئيس القسم، فدفع الرجل الفتاة قائلًا:

- أمامي إلى مدير المتجر!

قالت إحدى النساء الواقفات:

- يا لِوضاعة شباب اليوم!

صاحت إحدى البائعات وقد أمسكت الفتاة من كتفها:

- هيا إلى المدير!

فانتحبت الفتاة بصوتٍ عالٍ، ومن ثَمّ زجَّ فابْيَان بنفسه وسط هذا الحشد وقال للبائعة:

- اتركي الفتاة لا تمسكيها هكذا!

سأله مدير القسم:

- معذرةً لو جاز لي أن أسألك هذا السؤال.. لماذا تتدخل وتقحم نفسك في هذا الشأن؟

خبط فابْيَان بإصبعه على يد البائعة كي تترك الفتاة، ثم جذب الفتاة نحوه وسألها بلطفٍ:

- لماذا أردتِ أنْ تسرقي مِنْفَضَة السَّجائرِ هذه بالذات؟ هل تدخنين؟

أجابته الفتاة:

- ليس معي أيّ نقود واليوم عيد ميلاد أبي.

قالت المرأة الواقفة:

- أهذا سبب مقنع يبرر لنا السرقة؟ نسرق لأننا ليس معنا نقود؟! جميل!

قال فابْيَان للبائعة:

- أعطيني وصل شراء بثمن هذه المِنْفَضَة! سوف نشتريها وندفع ثمنها.

قال رئيس القسم:

- لكن يجب عقاب هذه الطفلة.

اقترب فابْيَان منه:

- إنْ لم تُنفذ ما اقترحته عليك فسأحطم أنا كل ما في هذا القسم من منتجات خزفية وصينية.

هز رئيس القسم الذي كان يرتدي بدلة فخمةً مُطرّزة كتفيه، وكتب وصل شراء للمنفضة، وجهّزتها البائعة للتسليم. ذهب فابْيَان إلى الخزانة لدفع ثمنها، ثم استلمها، ومن ثمَّ اصطحب الفتاة حتى باب الخروج من المتجر وقال لها:

- هاكِ المنفضة التي أردتِ شراءها، لكن كوني حذِرةً ألا تكسريها. ذات مرة ذهب صبي لشراء قِدْر لطهو الطعام كي يُهديه إلى أمه عشية عيد الميلاد، وعندما وصل إلى البيت تسلّلَ الفتى من الباب الموارب. كانت شجرة عيد الميلاد تلمع. همَّ الفتى بإعطاء أمه الهدية، وفجأة وقع القِدر من يده على الأرض وتهشَّم إلى نصفين، ولم يتبق منه في يده سوى مقبض الغطاء؛ فقال لها: «تفضلي يا أمي.. هذا المقبض هو هديتي إليكِ».

نظرت الفتاة إلى فابْيَان، وأمسكت المنفضة بكلتا يديها، وقالت له:

- أمّا المنفضة فليس بها مقبض.

انحنت قليلًا أمامه، وجرت على الفور، ثم توقفت فجأةً ونظرت نحوه وصاحت قبل أن تغادر المكان:

- جزيلَ الشكر!

وخرج فابْيَان إلى الشارع. كان هطول المطر قد توقّف. وَقَف على عتبة باب المتجر، وراح يراقب السيارات، توقفت إحدى العربات أمامه. حاولت سيدة عجوز تحمل لفائف كثيرة الخروج من باب السيارة بصعوبة؛ ساعدها فابْيَان وفتح لها باب السيارة بكل أدب، ثم رفع قبعته تحيةً لها وأفسح لها الطريق. سمع صوت العجوز تقول له:

- تفضل..

كانت المرأة العجوز قد وضعت له شيئًا في يده وأطبقت عليه، أومأت له بلطفٍ ثم دلفت إلى المتجر، فتح يده فوجد فيها بعض عملات معدنية، لم يقصد ذلك البتَّة! هل بدا عليه أنه شحاذٌ؟ دسَّ العملة في جيبه، وفتح باب سيارة أخرى كانت قد توقفت بجانبه، وحصل على مزيد من العملات المعدِنيّة بنفس الطريقة، قال لنفسه:

- سيصل الأمر إلى أنْ تصبح هذه مهنتي إذًا!

فكَّر فابْيَان بجدية في هذا الأمر، وبعد مُضِيّ ربع ساعة تقريبًا كان معه خمسة وستون بْفِينْجًا، ثم تخيَّلَ لو مرَّ علَيه الآن لَابُوْدَه ورأى فاتح أبواب السيارات المثقف الجامعي، ماذا عساه سيفعل؟ لكن لم تزعجه هذه الفكرة، هذا لا يخجله، الوحيدان اللذان لا يحب أن يرياه في هذا الوضع المهين هما أمه وحبيبته كُوْرنِيلْيَا، قطع تفكيره صوت امرأة:

- ما رأيك في مساعدة أكبر؟

قدمت إليه المرأة عملةً معدنيةً أكبر مما أخذ من قبل، حدَّق فابْيَان إلى وجه المرأة؛ إنها السيدة إيرينه مول، قالت له السيدة وهي تضحك في شماتة:

- لقد راقبتكَ طويلًا يا عزيزي، من العجيب حقًّا أن تجمعنا المصادفة دائمًا بلا موعد. لماذا ساءت أحوالك هكذا؟ لقد تعجلت في رفض العرض الذي قدَّمه إليك زوجي، كما كان

في مقدورك الاحتفاظ بالمفتاح. انتظرتك طويلًا لتكون رفيق فراشي، والآن هل كان تردُّدكَ هذا في محله؟ هيا ساعدني في حمل هذه اللفائف كلها، لقد أعطيتك البقشيش مقدمًا.

حمل فابْيَان اللفائف ومضى خلفها في صمت، فكرت المرأة قليلًا ثم قالت:

- كيف يمكنني أنْ أساعدك؟ هل فقدت وظيفتك؟ أنا لا أضمر حقدًا أو ضغينة نحوك، هل تعلم.. زوجي مول لم يعد موجودًا، لقد سافر، ربما كانت رحلته إلى فرنسا.. ربما، أو إلى أيِّ مكان تحمله إليه الباخرة. ومنذ ذلك الحين والبوليس الجنائي يقيم عندي، فقد اختلس مول عهدته المالية من مكتب التوثيق الذي يعمل فيه، ثم اختفى، لم يكن عليَّ أن أثق به من سنين مضت!

سألها فابْيَان:

- وكيف تكسبين قوت يومك إذًا؟

أجابته:

- لقد أسستُ بنسيونًا، لأن عائد إيجار البيوت الكبيرة أقل في يومنا هذا، لقد أهداني الأثاث أحد معارفي القدامى، مع أني تعرَّفت إليه حديثًا. إن ما أقصد بقولي «قدامى» أنهم عجائز، فالرجل شيخ مُسنٌّ، ومع ذلك فهو لا يمتلك سوى ثقبين فقط في باب غرفته!

- ومَن يسكن إذًا في هذا البنسيون الذي يراقبه الرجل من ثقبي الباب؟

- رجال شبانٌ يا سيدي، أجرة السكن والطعام والشراب مجانًا، علاوةً على ذلك يحصلون على ثلاثين في المئة من الإيراد.

- أيَّ إيراد تقصدين ما دام ذلك كله مجانًا؟

- تتردد نساء من صفوة المجتمع على اتحاد الشباب غير المسيحي؛ يتمتعنَ بالرغبة الحقيقية والولع، في الغالب لا يَكُنَّ دائمًا رشيقات ولا جميلات، ومع أنهن متقدمات في العمر.. فلا يبدو عليهن ذلك، ولا يُصَدَّقُ أنهنَّ كن صغيرات السنِّ يومًا ما، لكنهنَّ -على كل حال- يدفعن أي مبلغ أطلبه. إنهنَّ يأتين حتى ولو تطلّب الأمر أنْ يسرقن المال من أزواجهنَّ أو يقتلنهم، وبهذه الطريقة يكسب الشبان قاطنو البنسيون المال. أمَّا تاجر الموبيليا العجوز فهو يكتفي بالتلصص. النساء يتبعنَ شهواتهن وأهوائهنَّ. ثلاثة من الشبان باعوا أنفسهم لي، ولهذا يكسبون مبالغ كبيرةً، عندهم مسكنهم الخاص بهم، وبعض الصديقات حولهم، وطبعًا كل شيء في السرّ. طلبت زوجة أحد رجال الصناعة شابًّا منهم، وهو يعيش الآن في نعيم وترف كأنه أمير، ولو بقي يستغل ذكاءه سيجني ثروة طائلةً في عامٍ واحد.

قال فابْيَان:

- هو بيت دعارة رجالي إذًا!

- بل هو معهد، وليس الوحيد، له أشباه كثيرة حاليًّا في كل مكان، وتأسيسه مشروع تمامًا مثل الملجأ النسائي الذي تقطنه سيدات بلا مأوى، أو سيدات تعرضن للعنف. طالما حلمت وأنا في صباي أنْ أصبح صاحبة مثل هذه المؤسسة. أنا سعيدة أني حققت حلمي. لديَّ الآن المال، وأنا أستقطب الرجال الجدد كل يوم من أجل شركتي، وكلُّ مَن يريد الالتحاق بالبنسيون يجب أنْ يخضع لاختبار القبول عندي. أنا لا أقبل أيَّ رجل عندي! فقليل هم الرجال الموهوبون حقًّا، سوف أقدِّم في المستقبل دورات تدريبية.

تسمَّرت مكانها ثم قالت:

- البنسيون في بيتٍ فخم وأنيق، أريد أنْ أعرض عليك مقترحًا، لا تتعجل الفهم، فأنت -بلا شك- لست من المقبولين يا عزيزي في البنسيون، ذلك لأنك انتقائي جدًّا يصعب إرضاؤك، كما أنك كبير في السن، ومعظم الزبونات يفضلنَ الشبان في العشرين عامًا. إلا أنه يمكنك أنْ تعمل عندي سكرتيرًا لأننا سنحتاج إليك عاجلًا أم آجلًا لقسم الحسابات، ويمكنك أنْ تعمل في الغرفة الخاصة بي، وتسكن أيضًا. ما رأيك في هذا العرض؟

قال فابْيَان وكانا قد وصلا إلى البيت:

- هذه هي اللفائف، لقد أصابني الغثيان، ولن أستطيع مغالبة القيء أكثر من ذلك.

وفي هذه اللحظة خرج شابَّان أنيقان من البيت، تردَّدَا لما رأَيَا السيدة مول؛ فرفعا القبعة تحيةً لها. نظرت مول نحو أحدهما وسألته:

- جاستون، هل لديك تصريح بالخروج اليوم؟

أجابها:

- رأتْ ماكي أنه ينبغي أنْ أرى السيارة التي وعدَتْ بها الزبونة رقم سبعة، سوف أعود في خلال عشرين دقيقة إلى البيت.

- جاستون، اذهب فورًا إلى غرفتك! دع ماكي تذهب وحدها؛ هذا ليس عملًا، هيا! لقد طلَبَتْكَ الزبونة رقم اثني عشر، فلتنم -إذًا- وتسترح حتى تأتي الساعة الثالثة!

عاد الشاب مسرعًا إلى البيت، أمَّا الآخر فواصل طريقه إلى الخارج، ومن ثَمَّ اتجهت السيدة مول نحو فابْيَان، وتناولت منه اللفائف وهي تقول:

- أما زلت ترفض العمل؟ سوف أعطيك مهلةً مدتها أسبوع كي تفكِر، وها أنت تعرف الآن العنوان. تمهَّلْ وفكِر جيدًا قبل أنْ ترد عليَّ، صحيحٌ أن اختيارك التضوُّرَ جوعًا هو أمر شخصي، لكن قبولك العرض سيصنع لي جميلًا حقًّا، أنت لا تعلم أنك كلَّما رفضتني زاد تعلقي بك ورغبتي فيك، لا تتسرَّع.

مضت إلى حال سبيلها، أما فابْيَان فقد جلس في إحدى الحانات، وأكل النقانق مع سلطة البطاطس، وقرأ الجرائد التي عُلقت في الحانة، والتقط من الصحف بيانات بعض الإعلانات عن الوظائف، ثم

اشترى من محل أوراقٍ تنبعث منه رائحة عفنٍ أدواتَ كتابة وكَتَبَ أربعة طلبات توظيف ورماها في صندوق البريد، ومن ثمَّ مضى وهو في أشد التعب إلى مصنع السجائر.

سأله البواب:

- هل سنراك هنا مجدَّدًا؟

أجابه فابْيَان:

- فقط.. أردت مقابلة أمي هنا.

أغلق البواب عينيه:

- لا تخف؛ يمكنك الاعتماد عليَّ.

كان الوضع محرجًا لفابْيَان، حتى البواب أشركه في تلك اللعبة! أسرع فابْيَان إلى داخل مبنى الإدارة، وجلس في ركنٍ بجانب النافذة، وأخذ ينظر كلَّ خمس دقائق في الساعة، وكلَّما سمع صوت خطوات الآخرين التصق أكثر بالنافذة، سيُغلق المكتب بعد عشر دقائق، كان الموظفون مسرعين ويهِمُّون بالذهاب إلى البيت، لذلك لم يلاحظوه، وعندما سمع مجددًا وقع خطوات وأصواتًا تقترب منه تدريجيًا قرر الفرار من مخبئه؛ لكنه سمع صوتًا يقول:

- عزيزي فِيشَر.. غدًا سوف أقدم في اجتماع مجلس الإدارة تقريرًا عن العروض الترويجية التي جهَّزتَها.

وسمع فابْيَان فِيشَر يقول:

- اقتراحك عظيم، وأنت جدير لذلك بالتقدير.

وأجابه صوت آخر:

- السيد المدير إنسان ودود.

فأجاب فِيشَر:

- في الحقيقة لقد أخذتُ فكرة هذا العرض من الدكتور فابْيَان.

فجاءه صوت المدير في عنف وقسوة:

- يا سيد فِيشَر هذا الاقتراح يُعد ملكًا لك مثل أي تَرِكة، هل ترفض اقتراحي؟ ألا يروقك أن يزيد مرتبك؟ أريد أن أقول لك إن هذا المشروع ما يزال في حاجة إلى مزيد من التحسينات، ولسوف أُملي على كاتب الآلة الكاتبة بعض الإضافات، صدقني سيكون لتلك (العروض الترويجية) التي صنعناها معًا أثر عظيم، كل ما عليك أن تصنعه أنت أن تذهب الآن إلى البيت وتستريح، لقد قمتَ بجميل الصُّنع. لقد بذلت قَصارى جُهدك يا سيّد فِيشَر، أيها الحاذق.

خرج فابْيَان من الركن الذي اختبأ فيه، ففَزِع فِيشَر لِمَرْآه وتراجع إلى الخلف، بينما تحسس المدير بْرَايتْكُوبْف ياقة قميصه في عدم مبالاة، فقال فابْيَان وهو يسرع في نزول السلم:

- أنا لست أقل انزعاجًا منك!

كان البواب يتحدّث مع والدة فابْيَان أمام الباب، وعندما رآه هتف قائلًا:

- لقد أتت والدتك. ها هي في انتظارك.

كانت الأم قد أنزلت حقيبة السفر على الأرض، وكذلك حقيبة يدها، ووضعت مظلة المطر فوقهما، ثم أومأت لابنها تسأله في لطف:

- هل كنت شديد الانشغال في عملك اليوم؟

ارتسمت على وجه البواب ابتسامة وديعة، ثم مضى نحو مجلسه المعتاد، فيما مدَّ فابْيَان يده إلى أمه وسلَّم عليها قائلًا:

- لدينا فقط نصف ساعة كي ندرك القطار.

حمل فابْيَان الحقائب، وكانت والدته قد حجزت لها مكانًا في العربات التي تقع في منتصف القطار، لأنها كانت ترى دائمًا أنه في حال حدوث حادثٍ فسيكون الضرر الأكبر في العربات الأمامية، ومن ثم أخذا يتمشيان أمام هذه العربة ذهابًا وإيابًا. أمسكت ابنها من كُمِّ قميصه ثم أردفت:

- لا تبتعد هكذا عن القطار، من السهل جدًّا أنْ تُسرق الحقائب، بمجرد أنْ تنشغل عنها وتلتفت لنْ تجدها بجوارك.

صار فابْيَان أكثر حذرًا من أمه وأخذ يراقب الحقائب بلا كلل من النافذة. ثم أردفت الأم:

- ستسير الأمور على ما يُرام في غرفتك، لقد أصلحتُ لك العُروة التي ستعلِّق منها المعطف، كما أنَّ الغرفة تبدو الآن صالحةً للاستخدام الآدمي. تصرَّفت السيّدة هُوهِنْفِيلْد بطريقة لا تخلو من إهانة، ولكني لم أُعِرْها أي اهتمام.

أسرع فابْيَان إلى البوفيه واشترى لأمه خبزًا محشوًّا بلحم الخنزير وعُلبة بسكويت وبرتقالتين، فقالت الأم:

- يا ولدي، أنت متهوّرِ دائمًا!

ضحك فابْيَان، وصعد إلى عربة القطار، ودسَّ في حقيبة يدها ورقة مالية فئة عشرين ماركًا بدون أنْ تدري، ثم نزل من القطار إلى الرصيف، سألته أمه:

- متى ستزور بيتك؟ سوف أطهو لك كل الوجبات التي تشتهيها، أعدك بأن أقدم لك كل يوم وجبةً جديدة، وسنذهب معًا إلى خالتك ماريا لنجلس في حديقة بيتها. في المحل الأمور لا تسير على ما يُرام هذه الأيام.

قال فابْيَان:

- سوف أجيء فور استطاعتي.

نظرت الأم نحوه من شباك القطار، ثم صاحت:

- انتبه لصحتك جيدًا، وإذا تأزّمت الأمور ولم تعد قادرًا على مواصلة الطريق فلتجمع أغراضك وترجع إلى بيتك.

أومأ لأمه موافقًا، نظر بعضهما إلى بعض، وابتسما كما هي الحال عند الوداع على أرصفة القطارات، أو كما يبدو في الصور التي يلتقطها المصورون، همس فابْيَان:

- ابقَيْ دومًا بخير، كما كان جميلًا ذلك الوقت الذي قضيته معك.

غادر القطار الرصيف، وركض فابْيَان وراءه مودعًا أمه، ثم ظل واقفًا يلوِّح إليها، وعندما رجع إلى غرفته وجد على الطاولة باقة ورد وبجانبها خطابٌ، فتح فابْيَان الخطاب؛ فوقعت منه ورقة مالية من فئة عشرين ماركًا، وورقة صغيرة مكتوبٌ عليها:

«هذا مال قليل، ولكنه مصحوب بكل الحب مني. تناول شرائح اللحم أولًا لأن النقانق يمكنها أنْ تظلَّ عدة أيام في ورق الزبدة من دون أنْ تفسد.

أمُّك»

دسَّ فابْيَان الورقة المالية في جيبه، وفي نفس الوقت سوف تجلس الأم في القطار، وستكتشف بعد وقت قصير تلك الورقة المالية فئة العشرين ماركًا التي دسَّها لها في حقيبة يدها بدون أنْ تدري، لو نظرنا إلى الأمر حسابيًّا فسوف نجد أنَّ المُحصلة صفر، كلاهما دفع عشرين ماركًا ورُدَّت إليه من جديد، أي لم يخسر أيُّهما شيئًا؛ ولكن العمل الصالح لكليهما لن يتوقف أثره عليهما، فهذه المُعادلة الأخلاقية لها أبعادٌ مختلفة تمامًا عن تلك الحسابيّة.

في الليلة نفسها سَألَتْهُ كُوْرنيلْيَا مئة مارك، كانت قد تقابلت مصادفةً في ردهة شركة الأفلام مع مَاكارْت الذي جاء إلى الشركة لإجراء بعض المفاوضات، تحدث معها وأخبرها أنَّه يبحث عن ممثلة لأداء دورٍ في فيلمه القادم، وأنها ستلعب الدور الأهم في هذا الفيلم الذي تنتجه شركته، وأنها يجب عليها الذهاب إليه بعد

الظهيرة في مكتبه، وسيكون مدير الإنتاج والمخرج مَوْجُودَين.
قالت كُوْرنِيلْيَا:

- يجب أنْ أشتري قبل الظهر قبعةً جديدةً وفستانًا، أعلم أنك لم يعد معك مالٌ كثيرٌ؛ ولكن يجب ألا تفوتني هذه الفرصة. هل تتخيَّل حياتنا حينما أصبح ممثلة سينما! هل يمكنك تخيُّل هذا معي!

قال لها وهو يعطيها آخر ورقة مالية معه فئة مئة مارك:

- بالتأكيد.. أتمنى أنْ تكون ذات فأل حسن لك وتجلب لكِ السعادة.

سألته:

- لي أنا فقط؟

صحَّح ما قاله:

- بل لنا معًا.

الفصل الرابع عشر

الطريق بدون باب

لسان الآنسة سِيلُوفْ

السلالم مع اللصوص

في هذه الليلة حَلَمَ فابْيَان. ربما حَلَمَ أحلامًا أكثر مما يظنُّ أنه فعل. أيقظته كُوْرنِيلْيَا في تلك الليلة، فتذكر جيدًا ما حَلَمَ به. قبل عدة أيام لم يكن إلى جواره من يوقظه. مَن إذًا كان سيفعل ذلك قبل أن ينام إلى جوار كُوْرنِيلْيَا؟ لقد عرف نساءً كثيرات، ونام معهنَّ، هذا صحيح، لكن هل نام بجوارهنَّ على هذا النحو العميق الذي يراه مع كُوْرنِيلْيَا؟

في الحُلم رأى نفسه يقطع طريقًا ممتدًا بلا نهاية، فيه بيوت عالية شاهقة الارتفاع، بلا أبواب أو نوافذ، خلت الشوارع من البشر، كانت السماء بعيدةً جدًا إلى حدٍ لا يمكن تخيله، وبدت غريبةً كما لو كانت فوق بئر ماء غائرة في الأرض، كان فابْيَان جائعًا وعطشا ومتعبًا جدًا، كان يعلم أنَ الطريق بلا نهاية، ولكنه واصل السير، وتعمَّد السير نحو النهاية التي بلا نهاية.

سمع صوتًا يقول:

- لا هدف لما تسعى إليه!

فتلفَّت حوله، فإذا به يجد العجوز المخترع مرتديًا عباءته على كتفيه، وكان يحمل مظلة المطر الملفوفة بطريقة غير مرتبة، وعلى رأسه القبعة الرمادية الحائلة اللون، قال له فابْيَان:

- نهارك سعيد، عزيزي البروفيسور. اعتقدت أنك في مستشفى المجانين.

قال العجوز:

- أجل.. إنها هنا.

ومضى العجوز يضرب أحد المباني العالية بمظلَّة المطر ضربةً سُمع لها صوت كأنما هو صوت دقاتٍ تتردد على صفيح، ففُتحت بوابة، ولم يظهر عندها أحد، فقال العجوز:

- إليك أحدث اختراعاتي، اسمح لي يا أخي العزيز أنْ أتقدمك، فأنا هنا في بيتي.

تبعه فابْيَان، فرأى في الفناء أمام البوَّابة السيد المدير بْرَايتْكُوبْف يجلس القُرفصاء، وكان يحمل بطنه المتضخمَ على يده ويتأوه قائلًا:

- سوف ألد طفلًا، لم تأخذ السكرتيرة حذرها من جديد!

ثم ضرب المدير نفسه ثلاث مرات على صلعته فدوَّى صوت جرسٍ. دسَّ البروفيسور مظلَّته غير الملفوفة بإتقان في حلق بْرَايتْكُوبْف وفتحها فجأةً فانفجر وجهه كالبالون. وعندها قال فابْيَان:

- خالص شكري وامتناني.

قال العجوز:

- لا داعي إلى الشكر.

ثم أردف قائلًا:

- هل رأيت المَكِنَة الجديدة؟

أمسك يد فابْيَان، وقاده عبر ممر مُضاء بالنِّيون يُفضي إلى الخلاء، وبدت لهما مَكِنَة عملاقة بحجم كاتدرائية كولونيا، وقف أمامها العمال نصف عُراة وهم مُسلَّحون بالمجارف، ويزجّون بمئات الآلاف من الأطفال في قِدرٍ كبير تتَّقد فيه نيران حمراء مشتعلة.

دُهِش فابْيَان، فقال المخترع وهما يمشيان على سيور متحركة في فناءٍ رمادي:

- تعال معي، سوف ننتقل إلى النهاية الأخرى، هناك...

وأشار المخترع إلى أعلى، فنظر فابْيَان إلى حيث أشار، فإذا بآنية ضخمة مُعلَّقة المفترض أن تكون وظيفتها صهر الحديد، بَيْدَ أنها كانت تصبُّ مزيجًا من الرجال والنساء فوق مِرآةٍ أفقية، وكان المقذوف الخارج من تلك الآنية يتساقط فوق الزجاج، فيهبُّ الرجال واقفين، وتهب النساء واقفات، ثم يسير الجميع في خط مستقيم، فيحدِّقون مشدوهين إلى صورهم وصورهنَّ الواضحة في المرآة، وكل واحد منهم يمدُّ يده نحو صورته عاجزًا عن الوصول إليها! طفق بعضهم يلوِّح بشدة إلى أسفل، كأنهم عرفوا أنفسهم،

وأخرج أحدهم مسدسًا من جيب صدريته وأطلق الرصاص فأصاب صورته في القلب أو في أصابع قدميه، ثم انتقل إلى وجهه، ورجل آخر أخذ يدور في دوائر حول نفسه، من الواضح أنه أراد أن يلتفت نحو ظهره، ولكن محاولاته باءت بالفشل.

قال المخترع:

- مئة ألف في اليوم، وبذلك أكون اختصرت عدد ساعات العمل، وأدخلت مبدأ العمل خمسة أيام فقط في الأسبوع.

سأله فابْيَان:

- هل أنت مجنون رسمي؟

أجابه المخترع:

- هذه مسألة مصطلحات، لحظة من فضلك.. لقد تعطّل المقبض.

مشى نحو الآلة ووخز بمظلته إحدى الفتحات، وفجأةً اختفت المظلَّة، ثم العباءة، وجذبت الآلة الرجل أيضًا إلى داخل فوهتها، اختفى المخترع، لقد ابتلعته الآلة التي اخترعها.

عاود فابْيَان أدراجه راجعًا على السَير في الفناء الرمادي وهو يقول:

- يا لها من كارثة!

صاح بصوتٍ عالٍ للعاملين نصف العراة، وفجأة انقلب طفل من القِدر الذي يغلي، كان الطفل يرتدي نظارةً إطارها مصنوع من قرن حيوان، وكان الطفل يحمل في يديه المظلّة غير الملفوفة بإتقان، أخذ العامل الرضيع على الجاروف وأرجعه إلى القِدر المتّقد، ومشى فابْيَان من جديد بطول الفناء وانتظر تحت آنية الصهر الضخمة المعلقة التي تهتز في الهواء حتى يعود صديقة المتحول من جديد.

انتظر فابْيَان طويلًا بلا جدوى، وإذا به يسقط فجأةً في نفس المكان، ليصبح فابْيَان الثاني، ولكنه كان مرتديًا العباءة وقبعة، كما أنه كان يحمل المظلّة من الصندوق القلّاب، وهكذا وجد نفسه مع باقي الرجال الواقفين يحملقون إلى الصور المنعكسة على المرآة، وبعد لحظات ظهر فابْيَان الثالث، كانت رأسه إلى أسفل، وقدماه إلى أعلى، وكان يحدِق في وجه فابْيَان الثاني في المرآة! ثم أشار بإصبعه الإبهام إلى الآلة وقال:

- الهجرة الميكانيكية للأرواح، صاحب براءة الاختراع كولريب.

وما لبث أن خَطَا نحو فابْيَان الحقيقي الذي كان يقف في الفناء، وإذا به يتخلله، ويبرح مكانه متسلِلًا إلى أعماقه، أخذ فابْيَان الحقيقي من إنسان الآلة الذي نَفَذَ إلى داخله المظلَة، ووضع العباءة مضبوطةً عليه، وصار النسخة الوحيدة لنفسه مجددًا، ثم قال:

- هذا مناسب تمامًا.

تطلع فابْيَان إلى المرآة من عَل، وراقب الناس الواقفين عليها الذين أخذوا يغوصون فيها فجأةً كما لو كانوا يسقطون في وحلٍ شفاف، وكانوا شاغرين أفواههم كأنهم يصرخون فزعين، ولكن لم تُسمع أصواتهم، واختفى جميعهم شيئًا فشيئًا تحت المرآة كالسَّمك في الماء، أما الناس الحقيقيون فقد كانوا أسفل المشهد كأنهم محبوسون في حَجَر كهرمان.

اقترب فابْيَان منهم، وغابت المِرآة عن ناظريه، لم يَرَ غير لوح من الزجاج، وأناسًا عادوا إلى الحياة من جديد، ركع فابْيَان على ركبتيه وتطلّع ببصره إلى الأعلى، فرأى نساء بدينات قد جلسنَ إلى الطاولات يحتسين الشاي، كن يرتدين جوارب طويلة فيها كثير من الثقوب، وفي رقابهنَّ قبعات مجدولة، وقد لمعت أقراطهن وأساورهن، وكانت إحداهن عجوزًا يتدلى من أنفها قرط ذهبي، وإلى طاولات أخرى جلس رجال بدينون نصف عراة، يكسو الشعر أجسادهم كالغوريلات، يرتدي بعضهم سراويل بنفسجية، وجميعهم يضعون سيجارةً بين شفاههم الغليظة.

كان الجميع -رجالًا ونساءً- يتطلّعون بشغف وتَرَقُّب إلى ستارة أُزيحت إلى الجانب، فخرج منها على الفور شبانٌ يتباهون بزينتهم، وقد علت مساحيق التجميل وجوههم، والجميع يختالون في مشيتهم على جسرٍ عالٍ كأنهم عارضو أزياء، ثم تبعهم فتيات ارتدين لباس فريق رياضيٍ، وكنَّ يضحكنَ بتَصَنُّع، تعرَّف فابْيَان إلى بعضهنَّ، وكان فيهن كُولْب، والنحَّاتة، وسِيلُوفُ.

كان العجزة من الرجال والنساء يرفعون الكؤوس، ويقفزون فوق الكراسي والطاولات، كانوا يضيِّقون الطريق على الشباب السائرين فوق ممشى العرض، ويضربون بعضهم، ويتزاحمون حتى يحظوا بمكانٍ في المقدمة.

والنساء البدينات المكبَّلات بالحُلي كنَّ يختطفن الشبانَ من فوق الممشى، ويركعن أمامهم وهن ينتحبنَ، ويخلعنَ حُليهن من أيديهن، وأقراطهنَّ من آذانهن، والخواتم من أصابعهن، ويتوسلن للشباب (تلك الكائنات الممسوخة) في خُبث العاهرات ودلالهن، أمَّا الرجال فكانوا يمدون أيديهم الطويلة كأيدي القردة نحو الفتيات ونحو الشبان أيضًا، وفي منتهى الإثارة يحضنون ما تطاله إياديهم.

كُسِيَت الأرض بالملابس الداخلية، وبجوارب دوالي الساقين، وحمالات الجوارب، وبفانيلات رياضية ملوَّنة وممزقة، وبأطراف رجال ونساء بدينة يتكوَّر جلدها منحنيًا، وتملؤها التجاعيد، وكذا وجوه مُشوَّهة، وأفواه مصبوغة ضاحكة، وبأذرع نحيفة لونها بني، وسيقان مُمدَّدة ترتعش بسبب نوبة التَّشَنُّج. بدا الأمر كما لو أنَ الأرض قد فُرشَت بسجادةٍ مُزركشة فارسية أصيلة.

وبدت في المشهد إيرينه مول، وكانت تجلس بجواره، وتأكُلُ الشباب من الرجال، كانت تستخرجهم من كيس كبير وضعته بين يديها، وتلتهمهم بعد أن تنزع ملابسهم وتجعلهم عراةً بين يديها، كانت تفعل ذلك بتلذُّذ كأنها تستخرج قطعةَ شوكولاتة من غلافها الورقيَ، وفجأةً صاحت في فابْيَان:

- حبيبتك كُوْرنِيلْيَا هنا أيضًا.

بحث فابْيَان عن كُوْرنِيلْيَا، وقد رآها بالفعل وهي تقف بمفردها على ممشى العرض، وتحاول حماية نفسها من رجل شرس سمين حاول دسَّ سيجارة مشتعلة في فمها بالقوة، وحاول بيده الأخرى إغلاق فمها على تلك السيجارة المشتعلة، تلفتت مول نحوه وهي تنبش بيدها في كيس الحلوى، ثم قالت:

- لن تستطيع تخليصها من هذا الرجل، إنه ماكارت صاحب شركة الأفلام، عنده أكداس من المال، وقد انتحرت زوجته بالسم!

ترنَّحت كُوْرنِيلْيَا، وهبطت بجانب ماكارت وسط هذه الضجَّة، فقالت مول لفابْيَان:

- هيا الحق بها واقفز عندها، لكنك خائف أنْ ينكسر الزجاج الحائل بينك وبين الآخرين، أنت تعتبر العالم واجهة عرض زجاجية.

لم يعد فابْيَان يرى كُوْرنِيلْيَا، ولكنَّه رأى فيلهلمي (ذلك الرجل الذي يتمنى الموت)، رآه عاريًا، وقد انكشفت ساقه الصناعية اليسرى. وقف فيلهلمي على سرير في السماء يموج فوق السُّحب، فأنزل عصاه التي يتكئ عليها، وضرب بها كُولْب على رأسها ويدها التي تعلقت في طرف السرير، حتى تفجَّرت الدماء من يديها وسال الدم حتى أعماق اللا نهاية.

ثبّت فيلهلمي رباطًا في عصاه، وفي نهاية الرباط ربط ورقة مالية، ورمى خُطّاف الصنارة إلى أسفل، تقافز الناس من تحته نحو الأعلى لالتقاط الورقة المالية، تمامًا كالسمك الذي يلتقط الطُّعم من الصنارة، لكنهم سرعان ما أخفقوا وعادوا أدرجاهم نحو الأعماق خاوِي الوفاض، على أن بعضهم عاود القفز نحو الصنارة محاولًا الإمساك بالورقة المالية، وأخيرًا استطاعت امرأة أنْ تلتقطها في فمها، فتعلقت بالصنارة، إنها سِيلُوفْ.

أخذت سِيلُوفْ تصرخ بحدَّة، تثقب بخُطاف الصنارة ثقبًا في لسانها، فسحبها فيلهلمي حتى دنت منه، وطالعت وجهه الممسوخ المشوَّه وهو قابع على سريره، لكن النَّحّاتة ظهرت فجأةً من خلفها، وشدت سِيلُوفْ بكلتا يديها، وأمسكتها بقوة، فتمدد لسان سِيلُوفْ طويلًا.

تجاذب كلٌّ من فيلهلمي والنحّاتة سِيلُوفْ، كل واحد منهما يريد شدها نحوه، فتمدَّد لسانها ليصير أطول وأطول، وصار أشبه ما يكون بحبلٍ مطاطيٍّ أحمر اللون، وكان فيلهلمي يترنَّح على سريره وهو يضحك.

صاحت إيرينه مول في وجه فابْيَان وهي تطوي كيس الحلوى الفارغ بين يديها:

- رائع.. والآن سوف أفترسكَ!

أزالت عنه العباءة، وقبضت عليه بإصبعيها اللذين صارا مقصًا، ومن ثم مزقت بدلة فابْيَان، فضربها بالمظلة على رأسها، ترنَّحت فسقط من يديها، وكانت تهمس قائلةً:

- من المؤكد أني أعشقك!

ثم انتحبت، فتفجَّرَت دموعها كفقاعات الصابون من زوايا عينيها، وكانت الدموع تكبر شيئًا فشيئًا، ثم تنفجر في الهواء. قام فابْيَان من مكانه وواصل السير، فدخل قاعةً بلا جدران، بها سلالم لا حصر لعددها تقود السائرين من طرفها الأول إلى طرفها الثاني أي إلى نهايتها.

وقف الناس على كل درجة سُلّم، وكانوا ينظرون بشغفٍ وتَرَقُّب إلى أعلى، وكل واحد منهم يضع يده في جيب الآخر، إنهم يسرقون بعضهم بعضًا، وكان كل واحد منهم يفتش في جيوب مَن يقف أمامه، فيما يسرقه هو مَن يقف خلفه. عمَّ السكون القاعة، مع أنَّ كل شيء فيها كان يتحرك، كان الكل يسرق بهمَّة، ويُسرَق هو بهمة أيضًا في نفس الوقت.

على درجة السُّلَّم الأخيرة وقفت فتاة تبلغ العاشرة من عمرها، كانت تأخذ منفضة سجائر مُلونة من جيب معطف الرجل الذي أمامها، فجأةً ظهر لَابُوْدَه على أعلى درجة سُلَم، رفع يديه إلى أعلى، وهبط السلالم فصاح:

- يا أصدقاء! يا رفاق! يجب أنْ تنتصر الأخلاق في النهاية.

صاح الجميع صيحةَ كورال وهم يسرقون بعضهم بعضًا، صاحوا قائلين:

«طبعًا! طبعًا!».

صاح لَابُوْدَه:

- مَن يوافقْ على هذا فليرفع يده.

رفع الجميع أيديهم، رفع كلٌ واحد منهم يدًا، فيما كان يسرق باليد الأخرى مَنْ هو أمامه، أما الفتاة التي وقفت على آخر درجة من السُّلَّم فقد كانت الوحيدة التي رفعت كلتا يديها.

قال لَابُوْدَه وقد دوَّي صوته بين جنبات المكان:

- أشكركم؛ لقد انقضى الزمان الذي كانت تصان فيه كرامة الإنسان، فلا تنسوا أبدًا هذه الساعة.

جذبت كُوْرنِيلْيَا رجلًا طويلًا جميلًا من أمامها ليصير خلفها، وأصبحت تقف الآن إلى جوار لَابُوْدَه، وصاحت بأعلى صوتها قائلةً:

- أنت مجنون!

فقال لَابُوْدَه وهو حزين:

- أَحَبُّ أصدقائي هم ألدُّ أعدائي، كل شيء عندي سواء، سينتصر العقل حتى إن سُحقتُ أنا وانتهيتُ.

وعندئذٍ تتابعت طلقات الرصاص، ونظر فابْيَان إلى أعلى، فرأى الشبابيك وأسقف البيوت ممتدة في كل مكان، وفي كل موضع منها أناس مسلحون بالمسدسات والأسلحة الآلية، رمى الناس بعضهم

بعضًا على السلالم فيما كانوا يواصلون السرقة، وسُمع صوت الطلقات النارية وهو يُدوِّي، مات الناس وأيديهم في جيوب بعضهم، وتكدست جثث الموتى على السلالم!

قال فابْيَان لصديقه:

- ألا يُعَدُّ هذا كله خسارة للبشرية؟

لكن لَابُوْدَه ظل واقفًا تحت هذا الوابل من الطلقات بدون مبالاة، وهو يقول هامسًا يجيل النظر بين الشبابيك وأسطح البيوت:

- أما الآن.. فتعالَ إلى هنا. إنها لم تعد تُطلق الرصاص حولي.

تساقطت الطلقات من فتحات في الأسقف إلى القاع، وعلى الشبابيك عُلق الجرحى، وعلى حافة سطح البيت القرميديِّ تقاتل رجلان يلعبان ألعاب القوى، كل واحد منهما يخنق صاحبه ويعضه، وترنح كلاهما وسقطا، ودوَّى عاليًا صوت ارتطام الجماجم المجوفة.

حامت المروحيات تحت سقف القاعة، وقذفت شُعلات مُتَّقدة على البيوت، بدأت الأسقف تشتعل، وتصاعدت ألسنة اللهب الخضراء من الشبابيك.

أمسكت الفتاة ذات عشرة الأعوام يد فابْيَان بقوة، وسألته قائلةً:

- لماذا يفعل هؤلاء الناس كلَّ هذا؟

أجابها فابْيَان وهو يحملها بين ذراعيه، ويصعد بها السلالم متخطيًا جثث الموتى المتناثرة:

- إنهم يريدون بناء بيوت جديدة.

وفي منتصف الدرج رأى رجلًا قصيرًا يَعد الجثث، ويدون بعض البيانات في مفكرته، سأله فابْيَان:

- ماذا تفعل هنا؟

أجابه الرجل القصير:

- أنا أشتري الأشلاء والبقايا. مقابل كل جثة كاملة أدفع ثلاثين بْفِينْجًا، أما الأعضاء المنفصلة فأشتريها بخمسة بْفِينْجات، هل أنت المفوّض هنا للتعامل معي؟

صاح فابْيَان:

- فلتذهب إلى الجحيم.

واصل الرجل حساباته وهو يعد الموتى، ويحسب قيمة الأشلاء، وتابع فابْيَان صعوده، وفي نهاية الدّرج أنزل فابْيَان الطفلة عن ذراعيه وقال لها:

- الآن اذهبي إلى بيتك.

ركضت الطفلة بعيدًا، وسُمع صوت غنائها، ثم صعد فابْيَان مجددًا السلالم، وتناهى إلى أذنيه صوت الرجل القصير وهو يقول مهمهمًا:

- أنا لا أكسب المال.

أسرع فابْيَان، ثم انهارت البيوت من حوله، وتصاعدت النيران والدخان منها، وكان دويُّ أصوات الطلقات يُسمع بوضوح. تسلَّل رجال يرتدون أقنعة واقية خلال الأنقاض، تلفَّت فابْيَان حوله يبحث عن لَابُوْدَه، وطفق يناديه:

- لَابُوْدَه.. لَابُوْدَه...

ثم سمع فابْيَان صوتًا يناديه:

- فابْيَان.. فابْيَان...

أيقظته كُوْرنِيلْيَا من هذا الكابوس، وهزَّته كي يفيق، وبالفعل أفاق فابْيَان، فراحت تمسح على جبينه في حنوٍّ ثم سألته:

- لماذا تنادي لَابُوْدَه؟

أجابها:

- كنت أحلُم، لَابُوْدَه في فرانكفورت.

- هل أُشعل المصباح؟

- بل نامي، يجب أنْ تتألقي غدًا في أبهى جمالك، تصبحين على خير.

- تصبح على خير.

ظل كلاهما عاجزًا عن النوم فترة طويلة، فكل واحد منهما كان يشعر بقلق صاحبه، غير أن حاجزًا من الصمت كان يفصل بينهما.

الفصل الخامس عشر

شابٌّ كما ينبغي أنْ يكون!

عن مغزى محطات القطار

كُوْرنِيلْيَا تكتب خطابًا.

في صباح اليوم التالي جلس فابْيَان إلى جوار النافذة المفتوحة بعد أنْ ذهبت كُوْرنِيلْيَا إلى مكتب شركة الأفلام، متأبطةً حافظة أوراق وهي مفعمة بالحماسة، ها هي ذي تجد عملًا تكسب منه المال.

كانت أشعة الشمس تدغدغ وجنتي فابْيَان وتداعبهما، وترسل إلى أعماقه دفئًا وسكينةً، كأنما كل أمور العالم على خير ما يُرام، ولا شيء بقادرٍ على إخراجه عن طوره.

مشت كُوْرنِيلْيَا وابتعدت ولم يعُد في مقدوره أنْ يناديها، تمنى لو استطاع أنْ يمد جسده عبر النافذة ويناديها:

- ارجعي إليَّ، لا أريدك أنْ تعملي في هذه الشركة، لا أريد أنْ تذهبي إلى مَاكارْت.

وتخيل أنها ترد عليه قائلةً:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- إذا كان هذا قرارك فأعطني ما أحتاج إليه من المال، وإلا فلا تفكر في هذا مرةً أخرى!

وعندها عجز عن تخيل نفسه وهو يناديها مرة أخرى، وازدرد ريقه تحت أشعة الشمس. اقتحمت السيدة هُوهِنْفِيلْد خلوته في الغرفة بدون أنْ يشعر، وفاجأته بقولها:

- ماذا تفعل هنا حتى الآن؟

أجابها فابْيَان بلا تردُّد:

- أصطاد الذباب، لقد صار عملاقًا ومُقرمشًا.

- ألن تذهب إلى عملك اليوم؟

- أنا متقاعد، واعتبارًا من الأول من الشهر القادم سأصيرُ عجزًا في الموازنة العامة ونفقة إضافية لم يُخطط لها.

أغلق النافذة وجلس على الأريكة، فبادرته بقولها:

- أنت عاطل الآن إذًا؟

أومأ لها مؤيدًا، ثم أخرج المال من حافظة نقوده، وقال لها:

- تفضلي، هذه ثمانون ماركًا إيجار الشهر القادم مقدمًا.

وضع لها آخر ورقات مالية يمتلكها على المنضدة، وشرع يعُد ما تبقى له من عملات معدنية، فأخذت منه النقود بلهفةٍ ثم قالت له:

- لماذا بهذه السرعة يا سيّد فابْيَان؟

أجابها:

- لو حفظت ثروتي في البنك فسأحصل على فائدة بنكية قيمتها ثلاثة ماركات فقط سنويًا، فلن أفعل ذلك.

اطمأنت صاحبة البيت لسداد إيجار الشهر القادم، فشرعَتْ في الحديث إليه:

- اقترح أحد المهندسين أمس في الجريدة خفض مستوى البحر المتوسط مائتي متر، وبذلك ستتوفر لنا أراضٍ جديدة كتلك التي كانت قبل العصر الجليدي، وبذلك يمكن لملايين البشر استيطان هذه الأراضي الجديدة، فضلًا على أنْه من الممكن مد خط السكة الحديد من برلين إلى مدينة كيب تاون.

اتقدت حماسة المرأة بسبب اقتراح هذا المهندس، وانبرت في الحديث بكل حيوية، إلا أن فابْيَان ضرب بيده على مسندِ الأريكة بقوة مرَّات متتابعة حتى تطاير الغبار منها، وقال لها:

- إذًا الحل هو أنْ أذهب إلى البحر المتوسط. دعينا نخفض مستوى البحر! تعالي معي سيدة هُوهِنْفِيلْد!

- عن طيب خاطر أسافر معك، فمنذ رحلة زواجي لم أسافر إلى هناك، إنها بقعة ساحرة.. (جنوا، مارسيليا، باريس)، علي أيِّ حال فإن باريس لا تقع على البحر المتوسط.

ثم غيَّرت دفة الحديث إلى موضوعٍ مختلف:

- لماذا بدت الآنسة كُوْرنِيلْيَا اليوم حزينة؟

- خسارة أنها ليست هنا الآن وإلا كنت سألتها بنفسك!

- إنها فتاة فاتنة الجمال، أعتقد أنها تُشبه ملكة رومانيا في فترة صباها.

هبّ فابْيَان واقفًا، وأخذ صاحبة البيت من يدها، وأوصلها إلى باب الغرفة وهو يقول:

- إنها ابنة الملكة، ولكن من فضلك لا تخبري أحدًا بهذا.

بعد الظهيرة جلس فابْيَان في مؤسسة صحفية مرموقة، منتظرًا السيّد زَاخارِيْس، وهو واحد من معارفه، كان يأمل أن يملك زَاخارِيْس متسعًا من الوقت لمقابلته، قال له ذات يومٍ بعد مناقشة طويلة تتعلق بالإعلانات:

- تعال إليّ دائمًا إذا ما احتجت إلى أيّ شيء.

تصفّح فابْيَان إحدى المجلات المرصوصة فوق في غرفة الانتظار، راح يقلِّب صفحاتها بشكل عشوائي، وطفق يتذكّر حديثه السابق مع زَاخارِيْس، وقد كان زَاخارِيْس آنذاك يتبنّى وجهة نظر الكاتب ه.ج. ويلز القائل إنَّ تنامي دور الكنيسة حديثًا لا يرجع إلى الدور المتميز للحملات الدعائية، قد دافع أيضًا عن مطالبة ه.ج. ويلز بأن الوقت قد حان لعدم قصر الإعلانات على زيادة استهلاك الصابون والعِلكة، ولكن ضرورة امتداد دور الإعلانات إلى خدمة المُثُل العليا. وهنالك أبدى فابْيَان رأيه بخصوص قابلية البشر للتربية، وقال إن ذلك أمر مشكوك في صحته، وكان من رأي فابْيَان أن صلاحية الدعاية لتربية الشعب، وكذا صلاحية المربِّي ليكون بوق

دعاية أمر مشكوك في صحته، لا يمكن تعليم التفكير العقلاني إلا لفئة قليلة بين البشر، وهي الفئة التي تتحلّى بالعقل فعلًا.

انغمس فابْيَان وزَاخارِيْس في جدال رسمي حتى تبيّن لهما أنَ اختلاف وجهات النظر قد اصطبغ بصبغة أكاديمية زاعقة، والسبب أن النتيجتين المحتملتين -سواء انتصار التنوير أو هزيمته- تستلزمان وفرة من الأموال، ولا أحد ينفق المال من أجل تحقيق المبادئ بطبيعة الحال.

كان السُّعاة يتحركون بين متاهة الرَّدهات وهم يحملون الأظرف الورقية، ووارد البريد، لم يتوقف جرس هاتف موظف الاستقبال عن الرنين. يأتي أُناس ويذهبون، ثم يأتي أُناس غيرهم، فيما يُهرول الموظفون بين المكاتب والغُرف. أسرع المدير مُحاطًا بثُلّة من المؤظفين الذين يعملون تحت إمرته وهبطوا جميعهم درج السُّلّم.

قال أحد السُّعاة وهو يقود فابْيَان إلى الباب:

- تفضَّل عند السيّد زَاخارِيْس.

مدّ فابْيَان يده وصافحه بحرارة، هذه هي السمة المميزة لهذا الشاب، لقد اعتاد أنْ يفعل كل شيء بحيويّة منقطعة النظير، ولكنه لم يجنِ ثمارًا من هذا الحماس المتقد، فقد كان يبذل قصارى جهده في أيِّ عمل.. سواء نظف أسنانه، أو تناقش في موضوع ما، أو اقترح شيئًا على رئيسه في العمل. ومَن يقترب منه ويتعامل معه فسيُصاب حتمًا بعدوى الجديَّة.

شرَعَا بغتة في مناقشة كيفية عَقْدِ ربطة العنق في هذه الأيام، لاحظ الرؤساء أنهم حين يناقشون مع زَاخارِيْس أحوال العمل سرعان ما يدركون الأهمية القصوى لوظيفتهم، والمكانة التي تحتلها دار النشر التي يعملون بها.

لم يقف عائقٌ أمام التدرج المهني لهذا الرجل، أما ما كان ينجزه زاخارياس شخصيًا فكان أمرًا بعيدًا عن الاحتمال، لأنه كان بمثابة العامل المحفز الذي يستنهض هِمم المحيطين به، كان وجوده لا غِنى عنه في دار النشر، وارتفع راتبه الشهريّ إلى ألفين وخمسمئة ماركٍ وهو لا يزال في الثامنة والعشرين من عمره.

بدأ فابْيَان في حكاية ما استطاع أنْ يحكيه، قاطعه زَاخارِيْس قائلًا:

- وقتي ضيّق، ولكني أودُّ أن أكون مجاملًا لك، فضلًا على أني مقتنع أن كلينا منسجم مع الآخر.

ضغط زَاخارِيْس بيديه على سوالف شعره المتدلية على صدغيه كما لو كان عرَّافًا منجمًا يقف أمام بلورته المسحورة، وأردف قائلًا:

- ما رأيك في ما سأقوله؟ أحتاجُ إلى موظفٍ جادٍّ مثلك، لو وظّفتك هنا موظفًا خاصًا فسأدفع لك راتبك من جيبي الخاص. في دار النشر ينتظرون مني كل يوم اقتراحات وترشيحات، هل أنا مَكِنَة؟ وهل يعاقبونني لأن الآخرين لا يفكرون مثلي؟ اشتريت من فترة قصيرة سيارةً صغيرة لطيفة، يمكننا أنْ نجول بها كل يوم عدة ساعات عبر المساحات الخضراء، سأقودها

أنا عن طيب خاطر، فقيادة السيارة أمر يريح أعصابي، انظر.. سأجعل راتبك ثلاثمئة مارك. وبمجرد أنْ تشغر وظيفة هنا فهي لك. ها! ما رأيك؟

قبل أنْ يجيب فابْيَان واصل الرجل كلامه:

- لا.. لن تستقيم الأمور هكذا، سَيُشِيعون أنَّ زَاخارِيْس يقتني لنفسه عبدًا أبيض اللون، لا أثق بواحدٍ من هؤلاء الواقفين خلف الباب؛ يتربصون بي الدوائر ويحملون خنجرًا لطعني في ظهري والنيل مني. وأنتَ أليست عندك أي أفكار؟

قال فابْيَان:

- يمكنني الوقوف في ميدان بوتسدامر وأنا أحمل لافتةً كبيرة أمامي مكتوبًا عليها «هذا الرجل الذي ترونه عاطل عن العمل، ولكن في مقدوركم أنْ تجرِّبوه وسوف ترون كيف يبرع في فعل أيِّ شيء»، يمكنني أيضًا أنْ أكتب هذا الكلام على بالون كبير لوَ أحببتَ!

قال زَاخارِيْس:

- إذا كنت جادًّا في ما قلتَه فإني أراه اقتراحًا وجيهًا، ولكنه ليس قيمًا، لأنك لست جادًّا في ما تقوله حقًّا، فأنت تأخذ الأشياء الحقيقية فقط مأخذ الجد. يا لك من بائس! لو كنتُ أتحلَّى بقدراتك هذه لشغلتُ الآن منصبًا مرموقًا، لقد لجأتُ إلى حيلة جيدة أسترضي بها الناس الذين يزعمون أنهم أفضل مني، لقد اعترفت بتفوقهم مُصِرًّا على إثبات ذلك.

سأل فابْيَان وهو مكلوم.

- وماذا سأستفيد إذا أثبتُّ للآخرين أني أكثر نبوغًا منهم؟

بوغت زَاخارِيْس بهذا التساؤل البلاغي غير المتوقع، ليت فَابْيَان كان يتحدث بشكل صريح ومباشر، إنه مراوغ، ومع ذلك جاء يطلب النصيحة! لاحظ فابْيَان استياء زَاخارِيْس فقال:

- معذرة لاستيائك من ملاحظتي، دعني أوضح لك، لم أقصد قطُّ إهانتك، أنا لا أعتمد على مواهبي المزعومة، فهذه المواهب صالحة فقط لتجويعي، سأكون أحمق لو اضطررت إلى الفخر بها، وهذا ما ستكون عليه حالي بعد أربعة عشر يومًا فقط!

هبّ زَاخارِيْس واقفًا، واصطحب الزائر حتى السُّلَّم بودٍّ وهو يقول:

- اتصل بي هاتفيًّا غدًا قرابة الساعة الثانية عشرة، لا.. في هذا الوقت عندي اجتماع، لِنَقُل بعد الساعة الثانية. مع السلامة.

تمنى فابْيَان لو استطاع الاتصال بصديقه لَابُوْدَه الذي كان في فرانكفورت، كان مترددًا في أنْ يبثّ له همومه، لأن لَابُوْدَه نفسه لديه من الهموم ما يكفي، لكنه أراد أنْ يسمع صوته فقط وفي سماع صوته الكفاية. ربما يكون الحديث بين الأصدقاء -ولو عن الطقس- سببًا في الراحة وإزالة التوتر.

لقد سافرت أمه وعادت إلى بيتها، ودخل المخترع العجوز إلى المستشفى النفسي هو وعباءته، وباعت كُوْرنِيلْيَا نفسها لرجل جديد كي تُعجِب منتجي الأفلام.

انتاب فابْيَان شعورٌ قوي بالوَحدة. لماذا لا يستطيع المرء الفرار من نفسه؟

انطلق فابْيَان للتمشية في شوارع المدينة لا يلوي على شيء، ومع ذلك قادته قدماه إلى باب المبنى الذي تعمل فيه كُوْرنِيلْيَا. واصل السير وهو حزين، واكتشف أنه يشيح ببصره عن أيّ متجر قبعات، هل تجلس الآن في المكتب؟ هل جرَّبت بالفعل القَبعات والفساتين الجديدة؟ اشترى الجريدة من محطة القطار. كان البائع الذي يجلس في الكشك مسترخيًا تمامًا، فسأله فابْيَان:

- هل تحتاج إلى مساعد يعمل معك؟

قال الرجل:

- إني أتعلم حياكة جوارب التريكو، قبل عام حققت ربحًا مضاعفًا، وهذا لم يكن ترفًا، ففي الوقت الحالي لا يقرأ الناس الجرائد إلا في المقاهي وصالونات الحلاقة. كان حريًا بي أنْ أعمل خبازًا، فالناس لا يحصلون على الخبز مجانًا في المقاهي وصالونات الحلاقة.

قال فابْيَان:

- بمناسبة كلامك هذا.. لقد اقترحوا أخيرًا أن تتكفَّل الدولة بإرسال الخبز إلى الناس في بيوتهم، تمامًا مثلما يزودون

البيوت بالمياه، يجب أن تأخذ حذرك، فلو تم ذلك لن يشبع الناس من الخبز ثانيةً!

سأله البائع في الكشك.

- هل تريد أن تأكل شطيرة؟

قال فابْيَان شاكرًا البائع:

- لدي ما يكفيني حتى نهاية الأسبوع القادم.

وشَكَر البائع ثم مضى صوب محطة القطار، تفحَّص خريطة القطارات وجدول المواعيد، هل ينبغي أنْ يشتري بآخرٍ نقود معه تذكرة ويسافر إلى أمه؟ «لكن ربما يجد لي زَاخارِنْس حلًا غدًا!».

خرج من محطة القطار وعاد مجددًا للتسكُع في الشوارع، وأمام واجهات البيوت، فوجد نفسه في هذه المتاهة التي لا ترحم مَن يدخلها. أحس بالدُّوار، استند إلى أقرب حائط له وأغلق عينيه، صارت الضوضاء تُعذِّبه، شعر كأن التِرامات والحافلات تمشي في منتصف معدته. عاد فابْيَان وصعد السلالم ليصل إلى صالة الانتظار ووضع رأسه على مقعد صلب، وبعد مُضي نصف ساعة شعر بتحسن، مشى إلى محطة الترام وركبه حتى رجع إلى غرفته، رمى نفسه على الأريكة ونام في الحال.

استيقظ في المساء. سمع صوت صرير باب في الخارج.

هل عادت كُوْرنيلْيَا؟ لا لم تعد، وإنما هو شخص ما يهرول هابطًا السلالم، دخل إلى غرفة كُوْرنِيلْيَا ففزع لمرآها. كانت الخزانة مفتوحة الأبواب وفارغة، لم تكن الحقائب موجودةً، أشعل فابْيَان المصباح فوجد على الطاولة خطابًا. التقطه، ورجع عائدًا به إلى غرفته، وهناك قرأ ما خطَّته يد كُوْرنِيلْيَا:

«عزيزي فابْيَان. أليس من الأفضل أنْ أتركك مبكرًا قبل أن يُفجعك هذا فيما بعد؟ وقفتُ توًّا بجانبك وأنت نائم على الأريكة، والآن أكتب لك فيما أنت نائم. أودُّ أنْ أظلَّ هنا بجانبك، ولكن لك أنْ تتخيل ما سنصير إليه لو حدث هذا! سيمضي أسبوعان فقط، وبعد ذلك سيكون كلانا تعيسًا، فأنت غير مهموم بمقدار ما نحتاج إليه وما يعوزنا، والفاقة التي نمر بها، بل يشغلك فقط فكرة أنّ الحاجة إلى المال أمرٌ قد يكون من ضروريات الحياة، وليس هدفًا يجب السعي لأجله، ولطالما عشتَ حياتك لا تحمل مسؤولية شخصٍ غيرك، ولذا فلن يحدث لك شيء، ها أنت الآن وحدك من جديد. هل هذا أمرٌ يحزنك؟

سوف أحصل على دورٍ في الفيلم الجديد، وسأوقّع العقد غدًا. استأجر لي مَاكارْت غرفتين. يبلغ مَاكارْت من العمر خمسين عامًا، ويبدو كما لو كان مُصارعًا في سن التقاعُد. أمّا أنا فقد يبدو أني بعتُ نفسي لعلم التشريح، وأتمنى لو استطعت أن أجيء في يومٍ ما مرةً أخرى إلى غرفتك وأوقظك من النوم!

سأتركك في نومك العميق، أما أنا فلن أموت، سأتخيّل أني ذاهبة إلى الطبيب ليفحصني، يجب عليه أنْ ينشغل بي ويُشخِّص ما أحتاج إليه، ألا تعلم يا حبيبي أنّ المرء يُنتشَل من الأوساخ والدَّنس فقط إذا ما دَنّس نفسه بنفسه. وكلانا يريد الخروج من مستنقع الدَّنَس هذا!

أنا أكتبُ «نحن»، هل تفهمني؟ سأهرب منك الآن كي أظلّ معك إلى الأبد. هل ستظل تعشقني؟ هل ستودُّ أنْ تراني مرةً أخرى وتأخذني بين ذراعيك، وتتمنى أنْ تُعانقني من شدة شوقك إليَّ، على الرغم من وجودِ الرجل الآخر؟ سأنتظرك غدًا بعد الظهيرة بدءًا من الساعة الرابعة في مقهى شوتينهالم. ليس في وسعك أن تتخيل إحساسي وانفعالاتي لو أنك لم تأتِ!

كُوْرنِيلْيَا».

جلس فابْيَان صامتًا. ازدادت ظلمة المكان حوله، شعر بآلام شديدة كأنما هي طعنات تُسدّد إلى قلبه، ظل متشبثًا بذراعي الكرسي كأنه يحمي نفسه من أشخاص لا يراهم يحاولون جذبه من فوق الكرسي، لكنه قَاوم. حاول الصمود، وضع الخطاب على السجادة. لمع الظرف في ظلمة الحجرة.

تهدّج صوته: «لقد أردتُ أنْ أغيِّر نفسي من أجلك أنتِ يا كُوْرنِيلْيَا!».

الفصل السادس عشر

فابْيَان يخوض مغامرة

طلقات رصاص في ميدان ويدنج

حديقة أونكل بيليس نودر

في عشية اليوم ذاته ركب فابْيَان مترو الأنفاق متجهًا إلى الشمال، وقف بجوار نافذة عربة المترو وصَوَّبَ عينيه ناحية الممر المظلم الذي يعتليه بعض المصابيح الصغيرة المبعثرة على مسافات متباعدة، ظل يتفحص أرصفة مترو الأنفاق التي تعجُّ بالناس في حيوية منقطعة النظير. أخذ يرنو إلى القطار وهو ينسلُ من الممر المظلم خارجًا إلى النور، وإلى البيوت الرمادية والشوارع المُعتمة الكئيبة، وإلى حجرة مُضيئة يجلس فيها أُناس غرباء حول طاولة، وينتظرون أقدارهم.

جعل يحدق إلى شبكة خطوط السكك الحديدية المتلألئة التي اجتازها، وإلى محطات قطار المسافات الطويلة حيث تتأوَّه عربات النوم الحمراء وهي تفكر في الرحلة الطويلة، وإلى مسرح المنوعات

الصامت، إلى جَمَلُونات المسرح النابضة بالحيوية بعلامات النيون الساطعة، وإلى السماء البنفسجية الخالية من النجوم فوق المدينة.

طوَف فابْيَان في تلك الليلة بكل تلك المشاهد في برلين بعينيه وأذنيه فقط، أمّا هو نفسه فقد كان في عالم آخر. كانت نظراته مفعمة بالشغف والتَّرَقُّب، أمّا قلبه فكان فاقد الوعي، جلس طويلًا وحده في غرفته المفروشة. في مكان ما في هذه المدينة ترقد كُوْرنِيلْيَا الآن في الفراش إلى جانب رجل ناهز الخمسين من عمره، مغلقةً عينيها باستسلام. تُرى أين هي الآن؟ تمنى لو كان في استطاعته هدم جدران كل هذه البيوت حتى يجدهما.

ترى أين أنت يا كُوْرنِيلْيَا؟ لماذا حَكَمَتْ عليه بالتقاعس وقلَّة الحيلة؟ ولماذا قررت هجرَه في واحدة من اللحظات النادرة التي انتابته فيها رغبة حقيقية في نفض غبار التقاعس.. والإقدام على الفعل؟ لقد آثـرَتْ إساءة التصرُّف على أن تقول له «افعل الصواب!».

«اعتقدتِ أنني مغلوب على أمري، أحتمل آلاف الضربات في صمت، ولا أجرؤ مرةً واحدةً على رفع ذراعي لتسديد ضربة واحدة! ألم تعلمي أنني طالما كنت أتوق إلى إيجاد عمل وتحمُّل المسؤولية؟

أين كان الناس الذين وجب عليَّ أن أعولهم؟ أين كانت كُوْرنِيلْيَا؟ إنها ترقد الآن تحت رجل ثري، صيّرت نفسها عاهرةً ريثما يتوفر للحبيب فابْيَان الوقت والرغبة لفعل أشياء غير مُجدية. إنها على كل حال أهدتني طواعيةً حريتي من جديد. لقد رمت بي المصادفة إلى

أحضان امرأة أردت أنْ أغيّر نفسي من أجلها، لكنها سرعان ما رمت بي إلى حريتي الملعونة التي زهدت فيها! وفي اللحظة التي أدركت خلالها مغزى العمل في حياتي.. فقدتُ عملي، ولأنني فقدت وظيفتي فقدتُ أيضًا كُورنِيلْيَا».

كان ظامئًا يحمل بين يديه كأسًا فارغة، كان ظامئًا يتوق إلى الرِّيِّ، فكان القدر رحيمًا به، وأترع كأسه، وعندما ارتشف القطرات الأُولى، وسرت النشوة في روحه، عندها قال له القدر: «يكفيك هذا.. فأنت لم تحمل كأس الماء عن طيب خاطر»، وهكذا سقط الإناء من يديه، فتهشَّم وسال الماء على الأرض.

الآن صار فابْيَان حرًّا، طفق يضحك بصوت عالٍ، أطلق ضحكةً شريرةً أزعجت باقي ركاب المترو، فأداروا له ظهورهم. نزل من المترو. أيُّ محطة هذه؟ سواء.. الأمر سواء؛ إنه حُرٌّ، وكُورْنِيلْيَا ماتت، الشيطان وحده يعلم أين هي.

الوظيفة أو اليأس أو كلاهما. في شارع شاوزيه رأى عند ثكنات الشرطة عربات خضراء تبرق مصابيحها، مضى رجال الشرطة نحو هذه العربات ووقفوا أمامها في مجموعات صامتة، بعض العربات تحرَّك نحو الشمال، فتبعهُ فابْيَان مترجلًا. كان الشارع يعجُّ بالناس، تعالت هتافاتهم، ودوَّت في المكان، كأنها حجارة تُقذف من أفواههم. نظر كلا الفريقين إلى الأمام. في ميدان ويدنج أُغلق شارع رايندورفر بسبب توافد جموع العمال إليه، انتظرت شرطة الفرسان أمر الهجوم وظلَّت خلف الجَنزير العازل، كما انتظر العمال المتأهبون

في ملابسهم الرسمية ممثلي طبقة البروليتاريا، الجميع يشدُّون حزام السلامة تحت أذقانهم، ها هي ذي مجموعات البروليتارية المدنيين. مَن يتناحر ضد مَن؟

اقترب العُمَّال ودوَّت أصوات أغانيهم الحماسية، وهنا تقدَّم رجال الشرطة، واقتربت الجموع حتى صارت المسافة بين الفريقين كيلومترًا واحدًا، فتفاقم الغضب وصارت الأغاني صرخات غضب. ومَن يطالع المنظر العام، ويستمع إلى هذه الضجة المتزايدة يقع في خاطره أنَّ اشتباكًا وشيكًا سيقع على الفور بين العُمال ورجال الشرطة. ولم تكد تمضي دقيقة واحدة حتى صح هذا الظن، إذ انقضَّت الخيول على حشود العُمال، وسُمع صوت اصطكاك حوافرها المعدنية على الأرض الرخامية، ومن الأمام دوَّت طلقة رصاص وجلجلت الأحصنة بصوتٍ عالٍ.

أراد الناس في ميدان ويدنج التزاحم والرجوع إلى الخلف، طفقت مجموعة أخرى من الحرس تغلق مدخل شارع راينيكيندورفر، ثم زحفت ببطء إلى الأمام ونظَّفت الميدان، ومن ثم تطايرت الحجارة، وأُصيب أحد الحُرّاس المسؤولين عن الأمن.

رفع رجال الشرطة الهراوات المطاطية وتحركوا في صفوف، ثم توافدت تعزيزات أَمنية إلى المكان على متن ثلاث عربات نقل كبيرة. وعندما وصلت نزل منها رجال انضموا إلى الفريقين، فَهَمَّ العمال بالفرار إلى أطراف الميدان، وتجمعوا من جديد في مداخل الطرق.

دسَّ فابْيَان نفسه بين تلك الحشود كي يجد مخرجًا منها، ومضى في طريقه وحده، أخذت الضوضاء تتلاشى شيئًا فشيئًا، عمَّ الهدوء والنظام، وبدت الشوارع التي مشى فيها وحده كأن شيئًا لم يحدث في ميدان ويدنج.

وقفت سيدتان أمام أحد البيوت، قالت إحداهما:

- أنت يا هذا.. هل هذا صحيح؟ هل ضُرب الناس في ميدان ويدنج بالهراوات حقًّا؟

أجاب فابْيَان بسخريته المعهودة:

- كلا، إنهم فقط يقيسون أطوال بعضهم بعضًا.

صاحت امرأة أخرى:

- يا للويل! فرانتس.. أنت هناك بينهم، تعال! ارجع إلى البيت فورًا!

على ناصية النصف الأول من الشارع ملهًى اسمه «أونكل بيليس نوردبارك»، على مدخله تداعى عزفٌ منبعث من صندوق موسيقيّ، وقد غطت أصوات الموسيقا على أصوات أحاديث الصبايا اللواتي تجمعنَ أمام المدخل بجوار مجموعة من الشبان المتهوِّرين، أمال أولئك الشبان قبعاتهم فوق رؤوسهم، ومضوا يغازلون البنات ويتلفظون بألفاظٍ وقحة، أما البنات فقد تضاحكن بميوعةٍ، وتبادلن الردَّ على الشُّبان بجرأة مماثلة.

اجتاز فابْيَان البوابة، كانت الأرض لزجةً مُغطاةً بالعُشبِ، وقد ألقيت فوق الأرجوحة الدوَّارة خيمة عسكرية لقلة الطلب عليها. ارتدى الرجال معاطف ثقيلة خشنة والنساء العجائز غطين رؤوسهن بأغطية الرأس، أما الأطفال الذين كان من المفترض أنهم نائمون الآن في أَسِرَّتهم.. فهم يلهون ويتسكعون في الشارع طولًا وعرضًا بلا هدف. سُمع صوت خشخشة «عجلة الحظ»، وقف الناس وتحلَّقوا حولها، وتعلقت أنظارهم بالقرص الدَّوَّار، دار القرص على الأرقام ثم توقف. صاح المُنادي:

- خمسة وعشرون.

صاحت امرأة عجوز تتدلى نظارتها على أنفها، وقد رفعت ورقة اليانصيب:

- إنه أنا.. هنا! هنا!

فناولها أحدهم ما كسبته. وماذا كسبت يا ترى؟ إنه رطل من سكر المكعبات، ثم سُمع صوت حشرجة العجلة مجدَّدًا، وصاح المُنادي:

- سبعة عشر!

لوَّح شاب بورقة اليانصيب التي في يده:

- أنا هنا!

حصل -بدوره- على ربع رطل من حبوب القهوة.

صاح المُنادي:

- والآن الجائزة الكبرى، من حق الفائز أنْ يختار ما يريد.

دارت العجلة ثم توقفت بين رقمين، صاح المنادي:

- لا؛ يجب أن تدور من جديد، نريد رقمًا جديدًا.

دارت العجلة، وصاح المُنادي:

- إنه الرقم تسعة.

صفقت فتاة قائلةً:

- هنا هنا! إنه أنا.

وقرأت الفتاة قواعد اليانصيب: «الجائزة الرئيسية: خمسة أرطال من دقيق القمح الممتاز، أو رطل زبدة، أو رطل إلا ربعًا من حبوب القهوة، أو ربع رطل من الشحم قليل الدسم»، طلبت الفتاة رطل زبدة، ثم صاح المنادي:

- والآن مع السحب التالي، مَن منكم لم يسحب بعد؟ مَن يريد أنْ يجرب حظه؟ أنتِ أيتها الجدة! لن تدفعي ماركًا، ولا حتى نصف مارك، إنها فقط عملات معدنية زهيدة القيمة!

في الجهة المقابلة وقفت عجلة حظ تتبع شركةً أخرى، ولكن جوائز السحب عندها كانت من (النقانق واللحم فقط)، ولذا فثمن المشاركة فيها كان يماثل ضعف ما تطلبه الشركة الأخرى، ونادى المنادي:

- الجائزة الرئيسية أيها السادة، الجائزة الرئيسية هذه المرة عبارة عن نصف إوزة من هامبورج. صاحت زوجة الجزار:

- إنها عشرون بْفِينْجًا فقط، تشجع وأقدِم أيها الشعب!

كانت في يد المساعد سكين كبيرة، استخدمها في تقطيع شرائح رقيقة من النقانق، ثم وزعها على مشترِيْ ورق اليانصيب كي يتذوقوها ويجربوها، وعندئذٍ سال لعابهم لها، فأخرجوا النقود فورًا من حافظة نقودهم، وشرعوا في الشراء. سأل رجل يرتدي قميصًا بدون ياقة ولا رابطة عنق زوجته:

- ما رأيك في إوزة مشوية؟

قالت المرأة:

- خسارة! ليس معنا نقود كافية، وليس لدينا حظ يا ويليم.

أردف الرجل:

- بل دعينا نجرّب مرةً أخرى.

وأخذ ورقة يانصيب، ووضع شريحة النقانق التي حصل عليها من المـُنادي في فم المرأة، ونظر بكل أمل وشوق إلى عجلة الحظ. صاحت زوجة الجزار وهي تدير العَجَلة:

- بداية السحب تبدأ هكذا.

دارت عجلة الحظ وسُمع صوت صريرها. واصل فابْيَان السير، فطالع خيمةً كبيرةً عُلقت عليها لافتة مكتوب عليها (مضمار الرقص - الدخول عشرون بْفِينْجًا)، دخل فابْيَان الخيمة، وكان المكان مقسومًا إلى دائرتين، واحدة في مكانٍ عالٍ بدا كأنه بيت ذو أوتادٍ خشبية قد غُرز في الماء. وفي هذا الجزء كان الناس يرقصون،

وقد جلس في منتصفه جوقة تعزف بطريقة نشاز، كأن الموسيقيين يتشاجر بعضهم مع بعض، وقد اتكأت الفتيات على الأرض فاقترب منهن الشبان بلا أدنى حرج أو إزعاج. أمَّا الجزء الثاني فكان حلقة سيرك مفروشةً بالرمال، تركض فيها ثلاثة أحصنة هزيلة معًا على أنغام الجوقة المنشزة، ويسوقها سائس الإسطبل الذي يرفع عصاه ما بين حين وآخر صائحًا في الخيل الهزيلة: «هيا.. هيا...» محفزًا إياها لمواصلة التقدم وعدم الخمول، وقد جلست إحدى السيدات على حصانٍ أعور أبيض اللون، وأخذت اللجام في يدها، وقد رُفعت تنورتها حتى وصلت إلى ما فوق الركبة، ركض الحصان، وأغرقت في الضحك حتى سقطت عن السرج.

جلس فابْيَان بجانب السيرك، وشرع يشرب الجعة، وفي كل مرة كانت المرأة التي تعتلي الحصان تمر بجانبه وهي تشد تنورتها إلى أسفل، ولكن تلك المحاولات كانت تبوء بالفشل، فسرعان ما كانت التنورة تعود مجددًا إلى مكانها فوق ركبتها، وعندما مرت بحصانها للمرة الرابعة ابتسمت له قليلًا، وتركت التنورة مرفوعة، وفي المرة الخامسة ظل الحصان واقفًا أمام طاولة فابْيَان وجحظت عيناه وحدَّق إلى كأس الجعة بعينه العمياء، فقالت المرأة وقد تفرَّست في وجه فابْيَان:

- هنا لا يوجد سُكَّر!

دوَّت عصا السائس من جديد، فركض الحصان بعيدًا عن فابْيَان، وبمجرد نزول الفارسة عن الحصان جلست إلى طاولة مجاورة له بشكلٍ مائل، وكان مجلسها يحول دون غضِّ فابْيَان لبصره عن

مفاتن جسدها البارزة، ومن ثَمَّ تسمَّرت عيناه على جسدها لفترة، وسرعان ما تداعت أوجاعه المطمورة، وسرت في أوصاله، وتداعت خواطره الموجوعة:

«أين كانت كُوْرنِيلْيَا؟ هل كرهت عناقي لها ووجودها بين ذراعيَّ؟ هل ستجد متعتها في سريرٍ آخر فيما أنا أجلس هنا؟».

هبَّ فابْيَان واقفًا، فسقط الكرسي الذي كان يجلس عليه، حملقت تلك المرأة الجالسة على الطاولة بجواره إليه من جديد، زمَّت شفتيها في دلالٍ ثم فتحتهما ببطء، وأخرجت طرف لسانها المعسول بلعابها، ومررته على شفتها السفلية. سألها فابْيَان ممتعضًا:

- هل تأتين معي؟

ذهبا معًا إلى المسرح بدون أن يتحدثا كثيرًا، لم يكن ذلك المسرح إلا ثكنة بائسة من ألواح الخشب، وقد عُلِّقت على الجدران لافتات تقول: «عرض لأشهر المغنيِّن. التدخين مسموح. لا أماكن لجلوس الأطفال في أثناء العروض المسائية». كانت القاعة نصف ممتلئة. خلع الحاضرون قبعاتهم، ودخنوا سجائرهم، واستمتعوا حتى الثُّمالة بالرومانسية الزائفة السخيفة التي أُتيحت لهم في هذا المكان المظلم مقابل ثلاثين بْفِينْجًا فقط، وبدا أن جلَّ الحضور كانوا يعانون أزمات شخصية تَلَهَّوْا عنها بما مارسوه من ابتذال في كواليس هذا المكان.

طوّق فابْيَان المرأة الغريبة، فاحتضنته وتنهَّدَت بعمق حتى يَسْمعَ صوت أنفاسها، وكان العرض المسرحي حزينًا مغرِقًا في المأساوية.

كان بطل المسرحية طالبًا أنيقًا مُفعمًا بالحيوية (ومن المفارقات أن الذي لعب دور البطولة هو المخرج الكهل بلازيمان الذي يبلغ خمسين عامًا)، وكان البطل يعود كل يوم مخمورًا إلى بيته، لأنه يعاقر شراب النبيذ الفوّار اللعين. غنَّى الطالب أغاني الشباب، وطلب سمك الرنجة ذا الطعم الحامض. أهانته الحارسة التي تقف عند الباب، أهدى مغنية البلاط العجوز المريضة بالنقْرس آخر قرش معه. وهنا داهمته لعبة القدر أسرع مما نتصور، مَن عساها تكون هذه المغنية؟ من ستكون سوى والدة هذا الطالب الذي يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا! لم يرها منذ اثني عشر عامًا، كان يحصل منها على المال بصفة شهرية، واعتقد أنها ما زالت مُغنية البلاط الأولى. بالطبع لم يعرفها للوهلة الأولى، ولكن عيون الأمهات تُبصر ما لا يراه الأبناء، ومن ثَمَّ عرفت على الفور أنه ابنها.

طالت الحبكة الدرامية بسبب نشوء علاقة حب، عَشِقَ الطالب وعُشِقَ في آن واحد. أما معشوقته فكانت الآنسة مارتن، الخيَّاطة الفاتنة التي تسكن أمامه، وقَدَمُها لا تتوقف عن الضغط على تِرس مَكِنَة الخياطة، وتغني بصوت عذب كأن طائر القُبَّرَة يصدح.

إنها إلين مارتن.. الطائر المغرِد، التي يبلغ وزنها قنطارين! قفزت من الكواليس حتى مالت خشبة المسرح وغنت مع بلازيمان، الطالب الشطرة الأولى من هذا الدويتو:

يا حبيبي،
أنت حبيبي، وأنا حبيبك
هل يجب أن نتَّحد معًا ونصير كِيانًا واحدًا،
جسدًا واحدًا يجمع كلينا معًا!

تراجع الحبيبان إلى الفناء الذي يجب أن يدور فيه المشهد التالي. ثم وعد الطالب حبيبته بالزواج، لكنها حزنت لسماعها الخبر، لأنها يجب أن ترعى عجوزًا كانت المغنية الأولى في البلاط سابقًا. ثم شَرَعَا في غناء الجزء التالي من الأغنية.

صفق الجمهور بحرارة. استدارت السيّدة التي طوَّقت فابْيَان بذراعيها بحيث كان وجهه أمام نهديها، فقالت له:

- أليس هذا جميلًا؟

كان كلامها حمَّال أوجه، أكانت تقصد المسرحية أم جسدها؟ على كل حال غشي الصمتُ من جديد الجمهور. وتمايلت المغنية العجوز من خلف الكواليس، التي كانت السبب في أنْ يدرس ابنها الطب ويصير من أفراد المجتمع الإقْطاعيّ حتى وصلت إلى الفناء بشقِّ الأنفس، ورفعت إصبع السَّبَّابَة، وأنصتت إلى عازف البيانو، وشرعت في غناء أغنية أمَ مرهفة العواطف، أغنية تمسُّ شغاف القلب. وفي أثناء تلك الأغَنية كان فابْيَان يعبث بحمالة صدر المرأة الغريبة حتى أسقطها، ثم قال لها:

- فلنذهب إذًا!

سألته باستنكار مصطنع:

- حقًّا؟

لكنها لم تلبث أن تبعته في الحال، وسارا معًا حتى وقفا أمام بيت كبير في شارع موللر، قالت المرأة:

- إنني أسكن هنا.

فتحت الباب، فقال لها:

- سأصعد معكِ إلى أعلى.

كان فابْيَان يقف عند الباب مُغرِيًا إياها بالدخول، لكنها تظاهرت بالصدِّ، فضمها إليه في الرَّدهة، فقالت في خوف:

- لا لا! ماذا سيقول عني أصحاب البيت؟ إنهم غير ودودين! من فضلك اخفض صوتك.

دَخَلا غرفتها، فصاح فابْيَان متسائلًا:

- لماذا تتضمن غرفتك سريرين؟

همست له:

- اخفض صوتك، سيسمعوننا هكذا، لم يجد أصحاب البيت مكانًا للسرير الثاني، فوضعوه عندي.

خلع فابْيَان ملابسه. ثم قال لها:

- لا تخجلي.

تدلَّلَت وتزَيَّنت، ثم اقتربت منه أخيرًا، وتمددت بجانبه في السرير، أطفأت المصباح ثم تعرَّت تمامًا، لكنها همست له:

- لحظة من فضلك، ولا تغضب مني أرجوك.

أشعلت ضوء كشّاف جيب صغير، وغطّت وجه فابْيَان بملاءة السرير، ثم طفقت تفحص جسده على ضوء الكشّاف كما لو كانت طبيب التأمين الصحي، وقالت:

- أنا آسفة، ولكن في هذه الأيام يجب أنْ نكون حذرين بقدرٍ كافٍ، أنت معافًى، والآن ليس ثمة ما يمنع.

استطردت بعد وقتٍ قصير:

- أنا أعمل بائعة في محل قفازات لليد.

وبعد مرور نصف ساعة قالت له:

- هل تودُّ أنْ تبقى معي حتى صباح غدٍ؟

أومأ موافقًا، فنهضت من السرير، ودخلت إلى المطبخ، سمعها تغسل إناءً، ثم شاهدها وقد أحضرت فيه ماءً دافئًا، وضعت فيه صابونًا، ثم مسحت جسد فابْيَان به قبل أن تلتصق به مجدَّدًا في السرير.

سألها فابْيَان:

- ألا يُزعج أصحاب البيت أنك تُسخِّنينَ الماء الآن؟

تابع حديثه:

- من فضلك.. اتركي المصباح مُضاءً.

أخذت تحكي أشياءَ خارجةً عن الموضوع، وليس لها علاقة بسؤاله، وسألته عن عنوان سكنه، ونادته بقولها «حبيبي»، حدَّق فابْيَان إلى أثاث الغرفة، بجانب السريرين وُضعت أريكة مكسوَّة بفراش ناعم، لكنها لم تكن ثابتةً، وإنما كانت تتأرجح على الأرض، وبالقرب منها حوض اغتسال مُثبت على لوح رخامي، مطبوع عليه رسوم بألوان فظيعة، إنها صورة امرأة تلعب مع طفل رضيع لون بشرته ورديٍّ.

تداعت أفكاره من جديد: «أين كُوْرنِيلْيَا؟».

وسرعان ما تجاوز تفكيره، ثم اعتلى من جديد تلك البائعة العارية الممددة أمامه، فهمست في أذنيه:

- يجب أن أخاف منك، هل تريد أنْ تقتلني؟ ممارسة الحب رائعة معك.

ثم جثت على ركبتيها بجانبه، وحدجت وجهه غير المكترث بعينين هائمتين، ثم لثَمَته، وناما بعدها من شدة الإعياء. استغرقت هي في نومها، لكن خواطره المتداعية غالبت نومه في غرفة المرأة الغريبة، وراح يحدق في الظلمة متسائلًا: «كُوْرنِيلْيَا، ماذا فعلنا بأنفسنا؟!».

الفصل السابع عشر

كبد عجل، خالٍ من اللحم!

قال لها رأيه

مسافرٌ نـفـد صبره

في صباح اليوم التالي قالت له البائعة:

- لقد كذبتُ عليك، أنا لا أعمل في أيِّ محل، والبيت ليس له صاحب غيري، نحن بمفردنا هنا في البيت. تعال إليَّ هنا في المطبخ.

صبَّت له القهوة، وضعت بين يديه شرائح خبز مطليَّة بالزبد، فربت على وجنتيها في حنوٍّ، حلَّتْ حزام مِريلة المطبخ، ثم ذهبت لتجالسه إلى طاولة المطبخ، وقالت له:

- هل أعجبتكَ القهوة؟ أنت لم تأكل شيئًا، تبدو شاحبًا مُتعبًا يا حبيبي، هيا.. يجب أنْ تأكل كي تستعيد عافيتك وحيويتك.

وضعت رأسها على كتفه، ومدت شفتيها نحوه كأنها فتاة مُراهِقة، قال لها فابْيَان:

- هل كنت تخافين أنْ أسرق هذه الأريكة أو أشقَّ بطنك؟ ولماذا هذان السريران في غرفتك إذًا؟

- أنا امرأة متزوجة، يسافر زوجي دائمًا في رحلات عمل، وهو الآن في راينلاند، وسيمكث هناك عشرة أيام. هل تريد أن تظل معي هنا طوال هذه المدة؟

احتسى قهوته، ولم ينبس ببنت شفة، فواصلت حديثها قائلةً له بحدَّة كأن أحدًا عارَضَها:

- أريد أن يبقى معي أي شخص، زوجي قلَّما يأتي إلى هنا، وحينما يكون هنا أكون مرغمةً على وجوده معي، ابقَ معي عشرةَ الأيام هذه. استرح، فأنا أجيد الطهو، وعندي المال. ماذا تريد أنْ تأكل اليوم على الغداء؟

بدأت تحسب ما معها، وتُدَبِّر أمر الطعام، ثم نظرت إليه في ريبٍ وتوجس وهي تقول:

- هل تودّ أنْ تأكل كبد عجل صغير وبطاطس محمرة؟ لماذا لا ترد عليّ؟

- هل عندكم تليفون؟

- لا، لماذا تسأل؟ هل تريد المغادرة؟ ابق من فضلك. كان كل شيء معك جميلًا. لم أشعر بهذا الجمال من قبل!

نشَّفت يديها ومرَّرتهما على شعره، فقال لها:

- سأبقى معكِ، ولكن يجب أنْ أجري اتصالًا هاتفيًا يتعلق ببعض شؤوني.

- حسنًا، يمكنك الاتصال هاتفيًّا من عند الجزار راريش، وليتك تحضر معك وأنت عائد نصف رطل من كبد عجل صغير، ولكن بدون غشاء عليها.

أعطته النقود، ثم فتحت الباب بحذرٍ، وخرج عندما تيقَّن من فراغ المكان، وأنه لا أحد على السُّلَّم، وتوجه من فوره نحو الجزار، وهناك قال له:

- أريد نصف رطل من كبد عجل صغير، أريده منزوع الغشاء، وبدون دهون. هل لي أن أستخدم الهاتف؟

في الوقت الذي كان الجزار يحضر له الكبد تناول الهاتف الذي كانت تعلوه طبقة كثيفة من الدهون، اتصل بزَاخارِيْس، وجاءه الصوت عبر الهاتف:

- لا، لم أوفَّقْ في إيجاد عمل لك، لكني لست يائسًا، ما زال الأمل قائمًا يا عزيزي، يمكنك أنْ تزورني غدًا في المكتب، فإن لم أكن قد وجدت لك عملًا، فلا بأس من أن نتحادث قليلًا. هل أنت موافق؟ مع السلامة.

تسلم فابْيَان لفافة الكبد، وكان الورق الذي لُفَّ فيه الكبد ملطخًا بالدم، دفع الحساب، ثم حمل اللفافة بحذرٍ عائدًا إلى البيت. وعندما كان أمام شقتها وجد الجارة تنظف مقبض الباب، فصعد حتى الدور الرابع، ثم نزل السُّلَم من جديد عندما أصبح المكان آمنًا، دخلت الجارة منزلها. فالتقطته المرأة التي قضى ليلته معها أمسِ بدون أنْ يرنَّ جرس الباب. همست قائلةً:

- الحمد لله، خشيت أنْ تراك هذه السيدة النمَّامة. اجلس في غرفة المعيشة يا حبيبي. هل تريد قراءة الجريدة؟ أنا مشغولة الآن بالترتيب والتنظيف.

وضع باقي النقود التي أخذها من الجزار على الطاولة ثم جلس في غرفة المعيشة، سمعها تغني في المطبخ، بعد فترة عادت وهي تحمل علبة سجائر وكأسًا من عصير الكريز. رمقته وقالت له:

- سوف نتناول الغداء الساعة الواحدة. آمل أن تكون مرتاحًا.

غابت عن عينيه، لكنه سمعها وهي تغني، طالع في الجريدة تقرير الشرطة عن التظاهرات التي قعت في شارع راينيكين. مات الموظف المسؤول عن الأمن في المشفى بسبب طعنة سكين، وأُصيب ثلاثة من المتظاهرين إصابات حرجة. زعمت الجريدة أنَّ الجُناة عناصر غير مسؤولة حاولت تحريض العاطلين عن العمل، وكانت مهمتهم مداهمة رجال الشرطة. الواقع أن هذا ليس صحيحًا، مع أن بعض الجماعات قد حاولت بالفعل تقليص ميزانية الأمن المركزي. إن أحداث أمس يجب أنْ تنبهنا إلى أهمية التفكير في الإجراءات الوقائية دائمًا.

تلفَّت فابْيَان حوله في هذه الحجرة الصغيرة، كان الأثاث مُزخرفًا، ثمة خِزانة قصيرة مُزخرفة يعلوها ثلاثة مُجلدات، وعلى الطاولة لمع طبقٌ مُلونٌ به بطاقات بريدية. سحب فابْيَان أول بطاقة فكانت صورةً لكاتدرائية كولن فتذكَّر مُلصقات السجائر، وشرع يقرأ ما دُوِّن في البطاقة:

«حبيبتي موكي، هل أنت بخير؟ وهل تكفيك النقود التي تركتها لكِ؟ لقد أنجزت صفقات جيدة وغدًا سأتوجه إلى دوسلدورف. تحياتي وقبلاتي»

أرجع البطاقة إلى موضعها في الطبق، وشرب كأسًا من عصير الكريز، وفي موعد الغداء جالس موكي إلى طاولة الطعام، وأكل كُلًّ ما في الصحن كي لا يُغضبها، سُرَّت لذلك كثيرًا، وبدا كأنه كلبها المدلل الذي أسعدها بتناول طعامه. أعدَّت القهوة بعد الطعام، وسألته:

- ألا تريد أنْ تحكي لي شيئًا عنك يا حبيبي؟

- لا، لست راغبًا في ذلك.

ومضى إلى غرفة المعيشة. مشت وراءه. وقف عند النافذة، فقالت له:

- تعال استرح هنا إلى جواري على الأريكة، أريد أن أملأ عيني منك، أرجوك لا تغضب مني.

أحضرت القهوة، وأعطته قهوته، ثم جلست بجواره، وفتحت أزرار البلوزة، وراحت تقول:

- قد أكلنا، والآن جاء وقت التحلية، لكن لا تعض مرةً ثانية.

غادر منزلها قرابة الساعة الثالثة، وقفت أمامه وهي تهندم ملابسها، ثم نظرت إليه في استعطاف:

- من المؤكد أنك ستأتي مرة أخرى، احلف لي إنك ستأتي مرة أخرى.

أجابها:

- ربما أمرُّ عليك بالفعل، ولكني لا أستطيع أن أعدك.

قالت له وهي تفتح الباب:

- سأنتظرك على العشاء.

ثم همست له:

- هيا أسرِع قبل أن يراك أحد.

قفز على درجات السلم في عجالة، وشعر بالحرج وهو يغادر هذا البيت. مشى عبر حديقة تيرجارتن حتى وصل إلى بوابة براندنبورج، ضلَّ طريقه بين المتنزهات المكسوة بأزهار رودودندرون، ثم توقف أمام مقهى شوتنهالم حيث كان موعده مع كُوْرنيلْيَا، فكر قليلًا ثم قال لنفسه: «وما جدوى حديثي معها؟ لا فائدة من أي كلام، لقد انتهى كل شيء!».

واصل السير حتى وصل إلى ميدان بوتسدام، ثم مشى إلى أعلى شارع بيالوفو، فوجد نفسه من جديد أمام نفس المقهى، دلف إلى المقهى، فوجد كُوْرنيلْيَا تجلس في انتظاره، وبدا له أنها تنتظره منذ أعوام طوال، لوَّحت إليه بشيء من التردد، فجلس إلى طاولتها. أمسكت يده وقالت على استحياء:

- ظننت أنني أخادع نفسي، وما كنت لأصدق مجيئك!

لم يجبها، ونظر إليها نظرات غير مكترثة، فمضت تهمس له وهي مطرقة برأسها:

- لم أكن محقةً في ما فعلته، أليس كذلك؟

تساقطت دموعها، وتدلت قطرات منها في فنجان القهوة أمامها، فأزاحت الفنجان وجففت عينيها. أشاح فابْيَان بناظريه عنها، وحدَّق إلى الجدران التي بين السُّلَّمين، يا لها من تحفة بُنيت بإتقان الفن الباروكي وإبداعه! هما سُلَّمان يؤديان إلى الطابق العلوي، وكانت الجدران مُزينةً برسوم لطائري الببغاء والطنَّان المزركشين. كان الطائران يقفزان فوق أفرع شجر زجاجية، وينتظران المساء ومصابيحه التي تُضيء الغابة المعتمة. همست كُوْرنِيلْيَا:

- لماذا لا تنظر إليَّ؟

ثم أطبقت بالمنديل على شفتيها، وانهمرت دموعها. كان صوت بكائها المكتوم كصوت طفل صغير يتنهّد بأنفاس سريعة متتالية. كان المقهى فارغًا. جلس الزُوَّار في الخارج تحت مظلّات كبيرة حمراء. وقف نادل وحيد بجانبهم. حوّل فابْيَان نظره إلى وجهها. ارتعدت عيناها من التوتر وهي تقول له بصوتٍ خفيض:

- قل ولو كلمة واحدة فقط!

جفَّ حلقه وانكمشت حنجرته، وكان يحاول ازدراد ريقه بلا جدوى، كررت مطلبها بصوتٍ خفيض، وأطبقت يدها على منديلها:

- انطق كلمةً واحدةً!

ظل جالسًا في صمت، ثم قال:

- ماذا في وسعي أن أقول إذًا؟

همست كأنها وحيدة لا يجالسها أحد:

- «ماذا يمكنني أنْ أقول؟»!

نطق أخيرًا بصوتٍ عالٍ:

- أنت الآن امرأة سعيدة، كل أمورها تسير على ما يرام، هذه ليست مفاجأة طبعًا، أليس هذا هو طموحك الذي قادك إلى برلين؟ ها أنت قد غيّرتِ مبادئك، لا بأس فمَن يُرِدِ الحصول على مصلحته يجبْ أن يستسلم ويقدم التنازلات.

تمددت لحظات قصيرة من الصمت، بدت كأنها أزمنة، أخذت علبة البودرة من حقيبة يدها ووضعتها أمامها بدون أن تفتحها، وانتابه شعور جارف بالقوة، وانته الرغبة في الحديث، وتبدد شعوره بالإعياء والاضْطراب. استرجع أمام عينيه ما حدث له، تراءت له الأحداث كأنما ينظر إلى أطلال غرفة هُدِمت وصارت مكانًا خَرِبًا. هدأ تمامًا، وغَدَا باردًا للغاية، وراح يطلق الكلمات المُنمّقة:

- أنتِ جئتِ إلى هنا لغرضٍ معين وقد بدأ يتحقق سريعًا أكثر مما كنت تتمنينْ، وجدتِ رجلًا ثريًا صاحب نفوذ، وسيغدق عليكِ بأمواله، وهو لن يزوِّدك بالمال فقط، بل ستحصلين منه على فرصة العمر في مجال عملك. أنا لا أشك أبدًا في أنك ستحققين نجاحًا باهرًا، ولكنه سيستغل نجاحك ويسترد كل ما

دفعه إليكِ، وأنتِ أيضًا ستكسبين المال، وسيكون في وسعكِ أن تقولي له عندئذٍ «نحن متساويان تمامًا الآن يا سيدي!».

تعجَّب فابْيَان من ذلاقة لسانه، وفَزِع من كلماته المُنمّقة، فقال في نفسه: «لا ينقصني سوى أنْ أضع علامات الترقيم وأنا أتكلم!».

استخدمت كُورنِيلْيَا مسحوق البودرة الأبيض الناعم كي تُواري أثر الدموع والبكاء على قسمات وجهها، وكانت بذلك كأنما تُعطي فابْيَان الفرصة كي يكمل كلامه. قال:

- ماذا سيحدث الآن؟ أو بالأحرى.. ماذا سيحدث إذًا إن لم تكوني في حاجة إلى مَاكارْت؟ هذا أمرٌ لا يمكن التنبؤ به، كما أنه غير مطروح للنقاش الآن. ستعلمين غدًا أن ما سيتبقى من شعورك بأنوثتك هو أقل القليل. ستزيد أعمالك الناجحة، وفي المقابل سيزداد ولعك وطموحك بالعمل، ولكن احتمال السقوط والإخفاق يزداد أيضًا كلَّما عَلَا الإنسان وتطلَّع. ربما لن يكون طموحك الزائد هو الشيء الوحيد الذي ستسلِّمين إليه نفسك، سيكون هناك دائمًا الرجل الذي يحاول أنْ يَعُوق امرأةً عن تحقيق طموحها، ومن ثَمَّ يكون عليها دائمًا أن تتمدَّد بجانبه إذا ما أرادت أن تتخطَّاه، سوف تعتادين تكرار ما تفعلينه، وتنسين مثلما نسيتِ ما فعلتِهِ بي أمس.

تعجبَّت كُورْنِيلْيَا منه، وقالت لنفسها: «يرى بكائي، ولا يَرِقُّ لدموعي، ويصفعني بكلماته بكل قسوة!».

تابع فابْيَان وهو يشيح بيديه كأنما يخنق فكرةً لمعت في خياله قبل أن تتهيأ لها فرصة الظهور:

- لكن مستقبلكِ ليس من شأني، إذًا ما يمكن أنْ نناقشه الآن هو الماضي. أنت لم تتشاوري معي أمس عندما تركتني، فلماذا تريدينَ اليوم إجابةً مني إذًا؟ أنا لم أخبرك قطُّ بأنك كنت حملًا زائدًا عليَّ! ولم أُشعِرْك قطُّ بأنني أبادر إلى التخلي عنكِ، هل كنتِ تعلمين عني أنني ذلك الرجل الذي يتوق إلى حبيبة تنام في فراش الغرباء وتكسب منهم المال الذي أعجز عن امتلاكه؟ إذا كان ذلك صحيحًا فهو يخوِّل لك الحق في ما فعلتِه، وأنا إذًا وغد. أما إذا أقررتِ بأنني لم أكن وغدًا معكِ إذًا فكل ما فعلتِه ليس صحيحًا.

قالت له وقد هبَّت واقفةً:

- أجل، كل شيء فعلتُه ليس صحيحًا، فلتبق بخير يا فابْيَان.

استاء فابْيَان من قسوته معها، لقد أحرجها بالفعل، ولكن ألم يكن له الحق في ذلك، ولكن هل هذا يبرر قسوته؟ تبعها مسرعًا، زاد من سرعته، ولحق بها في حديقة تيرجارتن. مشى بعضهما بجانب بعض في صمتٍ، وشعر كل واحد منهما بالأسف تجاه الآخر. وكان فابْيَان يطرح على نفسه سؤالًا صعبًا: «بم أجيبها لو أنها طلبت أنْ ترجع لي؟ ليس معي في جيبي سوى ستة وخمسين ماركًا!».

قالت فجأة:

- ما حدث بيننا أمس كان فظيعًا، لقد كان بغيضًا جدًّا! ما أهون ذلك علينا لو أني كنت موقنةً من أنك لا تحبني، أو أنك مَلَلْتَني، لو كان الأمر كذلك لما تألمنا، لقد انتهى كل شيء، علينا أن نطوي تلك الصفحة، ولن يقلق أي منا لهذا الأمر، لا جدوى من تفكيري في عاقبة افتراقنا، فلن أجني من ذلك شيئًا!

أمسك ذراعها بقوة، وقال لها:

- اصمدي! بدايةً وقبل كل شيء أقول لك إن الوصفة العلاجيّة قديمة جدًّا، ولكنها قابلة للاستخدام. لقد قطعتِ رأسكِ بمحض إرادتكِ، فحذار من أن تكون تضحيتكِ هذه من دون أي مقابل، وعمومًا.. أعتذر إليك عن إهانتي لك اليوم.

كانت حزينةً جدًّا، لكنها سرعان ما سُرَّت بسبب كلماته تلك، قالت له:

- أجل أجل.. أنا مدركة لذلك، ولكن هل تسمح لي بأنْ أزورك غدًا عندك بعد الظهر.

أجابها:

- نعم.. بكل سرور.

ألقت بنفسها بين ذراعيه، وطمرت وجهها في صدره، وطفقت تعانقه وسط الشارع، لثمته سريعًا، وهمست له:

- أشكرك!

هرولت وهي تنتحب وتتنفس بصوتٍ عالٍ، فيما ظل هو واقفًا مكانه، نظر إليه أحد المشاة، ثم صاح قائلًا:

- لماذا أنت حزين وفي وسعك أنْ تضحك؟

مسح فابْيَان فمه بيده وهو يشعر باشمئزاز شديد، كان مستاءً بسبب سوء نظافته الشخصية، وقال لنفسه: «يا إلهي! لقد كانت أسنان كُوْرنِيلْيَا نظيفة، فكيف مسَّت شفتاها شفتيَّ؟».

اجتاز الشارع ودخل الحديقة، الأخلاق تجعل الإنسان نظيفًا بالفعل، لكنها ليست الوسيلة المثلى لنظافة الجسد، ولا هي بالبديل الذي يُغني عن محلول بيروكسيد الهيدروجين للغرغرة. لم يُرِدْ أنْ يرجع إلى شارع موللر، لكن مجرد التفكير في غرفته وفضول الأرملة هُوهِنْفِيلْد وغرفة كُوْرنِيلْيَا الفارغة والليلة التي في انتظاره وسيقضيها وحده فيما تخونه كُوْرنِيلْيَا للمرة الثانية- كل ذلك جَعَله يواصل سيره في الشوارع نحو الشمال حتى وصل إلأى شارع موللر، وقادته قدماه إلى ذلك البيت الذي تسكنه المرأة التي لم يُرد أنْ يراها مرة أخرى.

أشرق وجه المرأة إذ رأته وشعرت بالزهو لأنه عاد إليها. حياها قائلًا:

- وجدت بيتك مناسبًا لي.

- أُدخل، فمن المؤكد أنك جائع، سنأكل في المطبخ.

أعدَّت الطعام سريعًا، أطباقًا من سجق ولحم خنزير وجبن كامبير، فجأةً نحَّت الشوكة والسكين جانبًا، ثم أخرجت زجاجة نبيذ «موزل»، صبت له ولها وشرِبا وهي تقول:

- في صحة طفلنا، يجب أن يكون لي ابن مثلك، لا بد أن يكون ابنًا ذكرًا، يجب عليك أن تتمرَّن على ذلك.

شربت كأسها كلها، فصبت من جديد، وظلت تشرب حتى برقت عيناها، فمضت تقول:

- من حسن حظي أني قابلتك، الخمر تُثيرني بشكلٍ مخيف.

راحت تعبُّ من كؤوس الخمر ثم انقضَّت على رقبته تُقبِّلها، وفجأة سُمع صوت خشخشة المفتاح في الباب خارجًا ثم صوت خطوات أقدام بطول الرَّدهة تقترب منهما. فُتح باب المنزل. فدخل رجلٌ متوسط الطول ممتلئ. هبَّت المرأة واقفةً، اكفهر وجه الرجل وقال لهما:

- أتمنى لكما وجبة شهية.

ثم اقترب منها، فتراجعت بجسدها بعيدًا عنه، وقبل أن يلمسها فتحت باب غرفة النوم، فدخلت وأغلقت الباب بالمفتاح، صاح فيها:

- سوف أضربك على مؤخرتك.

ثم التفت إلى فابْيَان الذي وقف مضطربًا وقال له:

- لتبق مكانك. أنا زوجها.

جلسا متواجهين بدون أن يتفوَّه أحدهما بأيِّ كلمة، ثم أمسك الرجل بزجاجة الخمر، قرأ الملصق المدون عليه نوعها، ثم ملأ لنفسه كأسًا، شرب الكأس ثم قال:

- كل القطارات مكتظة بالركاب في الوقت الحالي بشكلٍ مرعب.

أومأ فابْيَان موافقًا، فسأله الزوج:

- لكن هذه الخمر من نوع ممتاز. هل أعجبتك؟

هبّ فابْيَان واقفًا وهو يقول:

- لا أحب النبيذ الأبيض كثيرًا.

تبعه الزوج وسأله:

- هل تحب أن تذهب الآن؟

أجابه فابْيَان:

- لا أريد أنْ أسبب إزعاجًا أكثر من ذلك.

وفجأةً قفز الزوج ممسكًا فابْيَان من رقبته، وأراد أنْ يخنقه، لكن فابْيَان لكمه لكمةً قويةً في أسنانه، فتركه الرجل يفلت، وجلس الرجل على الكرسي وهو ممسك بصدغه النازف.

قال له فابْيَان وهو حزين:

- أعتذر جدًّا جدًّا.

انشغل الرجل في الدم الذي سال منه، وكان يبصقه في منديله، في حين غادر فابْيَان المنزل على الفور. إلى أين يجب أنْ يذهب الآن؟ لا مفر من أن يذهب إلى حجرته.

الفصل الثامن عشر

عائد إلى حجرته من فرط اليأس

ماذا تريد منه الشرطة؟

مشهد حزين

فتح الباب بهدوءٍ وحذر، ومع ذلك وجد السيدة هُوهِنْفِيلْد في استقباله في الرَّدْهة، كانت ترتدي سترة النوم، لأن الوقت مساء، وبدت عليها ملامح الاضطراب غير العادي، قالت له:

- لقد تركتُ بابي مفتوحًا كي أسمعكَ حينما ترجع، لقد جاء رجال الشرطة الجنائية إلى هنا وأرادوا أنْ يقبضوا عليك.

سألها مستنكرًا:

- الشرطة الجنائية؟ ومتى جاؤوا إلى هنا؟

- قبل ثلاث ساعات، ثم عادوا مرةً أخرى قبل ساعة، من المؤكد أنهم سيأتون مرةً ثالثة، لقد أخبرتهم بأنك لم تَبِتْ في غرفتك الليلة الماضية، وأنْ الآنسة باتينبيرج أخذت كل أغراضها من غرفتها أمس واختفت بدون أن تقول كلمة.

أرادت الأرملة أنْ تتقدم نحو فابْيَان خطوةً، لكنها تراجعت إلى الخلف، ثم همست له متأثرةً:

- يا له من أمرٍ مخيف! ماذا فعلت؟

أجابها فابْيَان:

- عزيزتي السيّدة هُوهِنْفِيلْد، لقد أُصيب خيالك بالسُّل، لعلّك تنسجين الآن خيوط الدراما المأساوية بصفتك الشاهدة فيها، فكلا المستأجِرَيْنِ عندك ستظهر صورته غدًا في الجرائد، فابْيَان القاتل وهو يجلس في قفص الاتهام. لا تتوهَّمي مثل هذه الخزعبلات!

شعرت بالإهانة بسبب رد فابْيَان القاسي المجحف، فقد سكن هذا الشاب عندها سنتين كاملتين، وطالما اعتبرته في منزلة ابنها، قالت في حزم:

- هذا الأمر لا يهمني في شيء، ولكن عليك أن تذهب فورًا وبأقصى سرعة إليهم، إنهم ينتظرونك هناك.

سألها:

- أذهب إلى أين؟

أعطته ورقةً صغيرة في يده، قرأ الورقة المكتوب فيها العنوان. أردفت الأرملة:

- هذا هو العنوان، لماذا تبدو شاحبًا هكذا؟

فتح فابْيَان الباب سريعًا، ووثب على درجات السُّلَّم، ومنها إلى التاكسي الذي التقطه من ميدان نورنبرج. أبرز فابْيَان العنوان للسائق قائلًا:

- أوصلني إلى هنا من فضلك بأقصى سرعة ممكنة.

كانت السيارة قديمةً متهالكةً، تمشي باضطراب فوق الأسفلت. فتح فابْيَان النافذة، وقال للسائق:

- أسرع من فضلك.

حاول التدخين، ولكن يديه ارتجفتا، وأطفأت الرياح عود الثقاب، رجع إلى الوراء بظهره في مقعد العربة وأسبل عينيه مسترخيًا، على أنه كان يفتحهما ما بين حين وآخر ليتحقق من الموضع الذي بلغته السيارة، وهكذا مضت السيارة تمر على الأماكن في بطء شديد، حديقة تيرجارتن.. تيرجارتن.. تيرجارتن.. بوابة براندنبورج.. شارع أونتردين لندن. وكانت سيارة الأجرة العجوز تتوقف تقريبًا في كلِ شارع، وتتراخى سرعتها تدريجيًّا قبل أن تعبر إشارة مرور مفتوحة، حتى إذا بلغت موضع العبور توهجت الإشارة باللون الأحمر!

كان الأمر بالنسبة إليه كما لو أن العربة تسير متعثرة في طمي لزج كثيف، وأخيرًا في شارع فريدريش تحَسَّنت الحالة المرورية، اجتازت العربة أخيرًا الجامعة.. الأوبرا.. الكاتدرائية.. والقصر، ثم انعطفت يمينًا ثم توقفت. أعطى فابْيَان السائق أجرته وانطلق إلى داخل المبنى مسرعًا.

فتح له الباب رجل غريب، وما إن قال له فابْيَان اسمه حتى قال الرجل:

- أخيرًا! أنا المـُفتش الجنائي دونات. انتظرناك كثيرًا، وما كنا لنبدأ عمل اليوم بدون حضورك.

طالع فابْيَان خمس سيِدات في الغرفة، وبجانبهن شرطيّ، تعرَّف من بينهنَّ على سِيلُوفْ والنحَّاتة. قالت سِيلُوفْ:

- أخيرًا!

كانت الغُرفة التي دخل إليها فابْيَان مقلوبةً رأسًا على عقب، وقد تبعثر ما فيها بشكل فوضوي، وكان لَابُوْدَه مطروحًا على الأريكة وقد أُسبلت عيناه، وكانت بشرته بيضاء كالطبشور، وفي جبهته ثقب يتدفق منه الدم المتخثِّر الذي اختلط بشعره، ما جعل الشعر ملتصقًا بعضه ببعض. صُعِقَ فابْيَان لمَّا رأى الجثة، ووضع يده على يد لَابُوْدَه المـُتَجَلِّدة، وهزَّ رأسه، ثم جلس إلى جواره حزينًا وهو يقول بصوتٍ خفيض:

- شْتِيفان.. ما هكذا يفعل المرءُ بنفسه!

اقترب موظفان من النافذة، فيما قال المفتش:

- ترك لك الدكتور لَابُوْدَه رسالة، نرجوك أنْ تقرأها جيدًا وتخبرنا بما فيها. نحن نشاطرك الرأي أنها حالة انتحار. وأولئك النساء الخمس اللواتي نحتجزهن حاليًا بصفة مؤقتة ادَّعينَ أنهنَّ كُنَّ في الغرفة المجاورة عندما أقدم على الانتحار، ولكن الأمر

برمته غامضٌ بالنسبة إلينا، فأنت ترى أنَّ الحجرة المجاورة قد صار عاليها سافلها! نريد أنْ نعرف ما الذي جرى. أعطى مساعد المفتش فابْيَان ظرفًا، وقال له:

- هل من الممكن أنْ تفتحه وتقرأه؟ فهؤلاء النسوة ادعين أنَّ حالة الفوضى العارمة التي وجدنا الغرفة عليها إنما وقعت بسبب مجرد اختلاف في الآراء ووجهات النظر، وأنهن لم يشاركنه في ذلك، بل قال إنه يريد أنْ يكتب خطابًا ثم ذهب إلى هذه الحجرة، كما أنني استقيت من التحقيق الذي أجريته معهن أنهن جميعًا على علاقة قوية به، ولذا أُخمن أنّ المشاجرة بينهن قد وقعت بسبب الغيرة، إنهنَ غير مُدانات، والدليل على ذلك أنهن أبلغن الشرطة فورًا بمجرد وقوع الحادث، ولم يلُذنَ بالفرار من مكان الحادث. هلا تلطَّفتَ من فضلك لتقرأ الخطاب؟

أخذ فابْيَان الظرف، ثم سحب منه ورقةً مطوية فسقطت منها حزمةٌ من الأوراق المالية، التقطها المفتش عن الأرض ووضعها على الطاولة. قال المفتش بودٍ مُراعيًا الظرف الذي فيه فابْيَان:

- نحن ننتظر فراغك من قراءة الرسالة.

تُرك فابْيَان وحيدًا، أضاء المصباح، ثم جلس مرة أخرى إلى جوار جثة صديقه، وألقى عليها نظرة طويلةً، بدا وجه لَابُوْدَه تحت ضوء المصباح أصفر شاحبًا مُتجلَدًا. كان الفم فاغرًا قليلًا، والفك السفلي مُتدليًا إلى أسفل. فتح فابْيَان الورقة وشرع في القراءة:

«عزيزي ياكوب!

لمَّا ذهبت اليوم إلى المعهد لكي أستعلم عن أمور تخص الرسالة، لم يكن عضو لجنة التحكيم السريَّة هناك، لكنني التقيت مساعده فيكهِيرْلِين، وقال لي «إنَّ رسالة التأهل للأستاذية قد رُفضت من قِبل المشرف العلميّ»، مُعللًا ذلك بأنها غير مستوفية لشروط الأستاذية، ولا يمكن تحويلها إلى إدارة الجامعة، علاوة على ذلك.. «لَهَذِه فضيحة لا طائل من إعلانها على الملأ، وأنا أخبرك بصفة شخصية»! لقد استغرقتُ في كتابة هذه الأطروحة خمسة أعوام، أتراني عملت جاهدًا طيلة خمسة أعوام من أجل فضيحة يجب أنْ تُدفن في السرِّ ولا يعلم بها أحد شفقةً بي ورأفةً بحالي؟

فكَّرت مليًا في أنْ أهاتفك، لكني خجلت من نفسي، وآثرت أنْ أظلَّ وحدي، فليس في وسعي استقبال كلمات المواساة الداعية إلى الصبر والسلوان. حتى في هذا الحدث لم أكن بارعًا في ذلك! اعذرني فحديثنا السابق قبل عدة أيام عن علاقتي بِلِيدَا قد أثبت لي ذلك. ما كان في مقدورك إلا أنْ توضح لي الأهمية الدقيقة لرسالتي التي ربما لا يدركها أحد سواك، وما كان في الوسع إلا أن أوافق رأيك بطبيعة الحال، أوافق رأيك بدون أي قناعة داخلية. ستكون جلسة مجاملة يكذب كل واحد فيها على الآخر.

أتدري.. كان رفض أطروحتي قد حطَّم نفسيتي حقًّا أكثر مما فعلته لِيدَا بي، لقد رفضتني لِيدَا. والجامعة رفضتني، من كل النواحي لم ألق التقدير الذي أستحقه. لم يصمد طموحي أمام هذه

الإخفاقات والانتكاسات، أشعر بانكسار في قلبي وخمود في عقلي. قُضي الأمر ياكوب. صدقني، فكل الإحصائيات الدالَّة على كثرة التلاميذ السيئين، والمبرِزة لتفشي علاقات الحب الفاشلة.. لم تكن لتهون عليَّ أبدًا.

كما كانت رحلتي السياسية إلى فرانكفورت مُخزيةً، فقد تعارك الجميع بعضهم مع بعض، ولمَّا رجعت أمس وجدت سِيلُوفْ تضاجع النحَّاتة في سريري مع وجود عدة نساء أخريات معهنَّ، وقد تركتهن يتراشقنَ في الغرفة المجاورة بالكؤوس والزهريات، لو تأملت الوضع الذي أنا فيه الآن يمكنني أن أقول لك إن كلًّ ما يحدث حولي لا يناسبني! تخلَّت عني كل الدوائر التي وددت الانتماء إليها، واحتضنتني كل النواحي التي لم أودُّ البقاء فيها!

لا تغضب مني يا صديقي، سأغادر، ستظل أوروبا أيضًا بدوني على قيد الحياة، فلتسقط أوروبا، أنا لست مهمًّا. نحن نحيا في عصرٍ لن تُغيِّر فيه أفكاري شيئًا، لا أستطيع أن أحُوْلَ دون الانهيار السريع، وليس في وسعي حتى تقليصه.

نحن نقف على أعتابِ نقطة تحوُّل تاريخية، ويجب أنْ تتبلور فلسفة جديدة ورؤية جديدة، وما عدا ذلك فلا قيمة له. ليس عندي الشجاعة الكافية لأحتملَ سخرية الساسة مني، فهم يحاولون علاج القارة العجوز بوسائلَ ستودي بها إلى النهاية.

أعلم أني مُحق رغم أني صرت مثار ضحك الجميع وسخريتهم، صرت كائنًا فشل في الحب والعمل. دعني أقتل هذا الكائن المسخ داخلي. المُسدس الذي أخذته من الشيوعيّ في المَتحف سيحقق الآن هدفًا نبيلًا. لقد استوليت عليه كي لا يقوم صاحبه بأي مصائب. كان حريًّا بي أنْ أصير معلم أطفال، لأن الأطفال هم وحدهم مَن يدركون قيمة الأخلاق.

إذًا، ابق أنت بخير يا كوب. سأظلّ أذكرك. ولكن يجب أنْ أُنهي كل شيء الآن. ولتنس أني خيّبتُ أملنا. أنت الإنسان الوحيد الذي أحبُّه من كل قلبي مع معرفتي بكل شيء فيك وعنك. أبلغ سلامي لوالدَيَّ ولوالدتكَ. وحينما تقابل لِيدَا مصادفة ذات مرة لا تَحْكِ لها عن شدة ما أصابني من يأسٍ بسبب خيانتها لي، فإن في ذلك إهانةً لي، لا يجب أن يعلم الجميع بجراحي وآلامي.

كما أني أودُّ أنْ أطلب أن تسوِّيَ كل أموري ومعاملاتي. يجب أنْ يفسخٍ والدايَ عقد منزلي الثاني، ويتصرَّفا في أثاث البيت كيفما شاءَا. كلّ كتبي لك أنت. وجدت في درج مكتبي ألفي مارك؛ خذ المال لك، إنه ليس مبلغًا كبيرًا، ولكنه يكفي لقيامك برحلة قصيرة.

ابق بخير يا صديقي. ولتنعم بحياةٍ أفضل مني.

شْتِيفان».

مسح فابْيَان على جبين صديقه في حنوٍ بالغ، وكان فكّاه قد تباعدا، وبدا فاغرًا فاه، همس فابْيَان مبتسمًا لصديقه، كأنه يواسيه:

- أنْ يأتي الإنسان إلى الحياة فهذه محض مصادفة، أمَّا الموت فهذا هو الشيء المؤكد.

فتح المفتش الباب في هدوء وهو يقول:

- أعتذر لإزعاجك مجدَّدًا.

أعطاه فابْيَان الخطاب، فقرأه المفتش، ثم ردَّه إليه، ومضى إلى الغرفة المجاورة، ثم قال للسيدات الخمس:

- لقد اتضح كل شيء، في وسعكن الانصراف الآن.

قالت إحداهنَّ:

- لحظة من فضلك، نريد أنْ نودِّع الميت فقد كان عزيزًا علينا.

تزاحمت النساء على الباب، ووقفنْ أمام الأريكة التي رقد عليها لَابُوْدَه، قالت واحدة منهن لا يعرفها فابْيَان:

- يجب ربط الفكين.

جرت النحَّاتة إلى غرفة أخرى، وأحضرت منديل مائدة ربطت به فكيه لأعلى، حتى أُغلق فمه تمامًا، ومن ثمّ عَقَدَت طرفَيْ المنديل فوق رأسه.

قالت سِلُوفْ ساخرةً وهي تضحك ضحكةً شريرة:

- يا له من ميت يعاني آلام الأسنان!

قالت رُوت رَايْتِر:

- إنه من المحزن حقًّا أنْ يجلس عندي في الأتيليه ذلك الخنزير فيلهلمي كل يوم، وتتحسن صحته مع ما يقوله الأطباء من كونهم قد يئسوا من حالته، وينتحر هذا الشاب القويّ!

أخرج مساعدُ المفتش النساءَ من الحجرة، وجلس إلى الطاولة ليكتب تقريره عن الحادثة. عاد المساعد وقال:

- أليس من الأفضل أنْ نطلب سيارةً تنقل الجثمان إلى فيلا والديه؟

ثم انحنى، وجمع الأوراق المالية التي سقطت على الأرض، ومن ثَمَّ دسَّها في جيب فابْيَان. سأله فابْيَان:

- هل علم والداه بموته؟

أجاب المساعد:

- لم نستطع حتى الآن الوصول إليهما، فالمحامي لَابُوْدَه الأب في رحلة الآن، والخدم في الفيلا لا يعرفون مكانه، أمَّا الأم فهي في لوجانو وقد أرسلنا إليها برقية.

- حسنًا، لنرجعه إلى بيت أبويه.

اتصل المساعد هاتفيًّا بعربة الإسعاف، وانتظر ثلاثتهم في صمت حتى وصلت العربة، حمل رجال الإسعاف جثمان لَابُوْدَه على النَّقالة، وأنزلوه درج السُّلَّم. تجمع أمام البيت حشدٌ من الجيران يريدون استطلاع ما يحدث. زجوا بالنقّالة في العربة وجلس فابْيَان بجانب جثمان صديقه، ودَّعه المفتش والمعاون. مدّ فابْيَان لهما يده

وصافحهما. أغلق رجل الإسعاف باب العربة وانطلق الصديقان معًا من جديد يجوبان شوارع برلين.

كان زجاج النافذة مُنْزَلًا إلى أسفل، فظهرت من ورائه الكاتدرائية، ثم توالت الصور من وراء الزجاج، الجامعة.. المكتبة.. مر زمن طويل على الصديقين لم يستقلا فيه حافلة معًا كما يحدث الآن! في عشيّة ما تشبه تلك الليلة كانا معًا، وانتزعا مسدسًا من بين يدي اثنين من الهمجيين يتشاجران، إنه نفس المسدس الذي قتل به لَابُوْدَه نفسه، وها هو الآن جثة هامدة مُقيّدة بحزامين في إحكام، جثه هامدة لا تعلم شيئًا عما يدور حولها!

مال رأس فابْيَان على جثة صديقه قليلًا، عدَّل من وضع رأس الجثة ليتوسط الوسادة، ووضع يده فوق جثة صديقه، وراح يهمس لها بصوت خفيض:

- ها؟ تفكر في شيء الآن يا شْتِيفان؟

وقفت العربية أمام الفيلا، كان الخدم أمام البيت في انتظارها، انتحبت مديرة المنزل، وتقدم الخادم رجال الإسعاف وهم يحملون الجثمان إلى داخل الفيلا في خطواتٍ متثاقلة، وُضِع لَابُوْدَه في غرفته على الأريكة، فتح الخادم النافذة على مصراعيها، وأغرق جميع طاقم الخدم في الانتحاب والعويل، وبادر أحدهم قائلًا:

- ستأتي مُغسِلة الموتي غدًا في الصباح الباكر.

أعطى فابْيَان رجال الإسعاف نقودًا فانصرفوا.

قال الخادم:

- لَابُوْدَه الأب، السيِّد المحامي ليس هنا، ليس لدي فكرة عن مكان وجوده، لكن بالتأكيد سيعرف الخبر من الجريدة.

سأله فابْيَان:

- هل نُشر الخبر بالفعل في الجريدة؟

أجاب الخادم:

- نعم، كما أنَ السيدة الوالدة الموقرة قد أحيطَتْ علمًا، وستصل غدًا إلى برلين في حال سماح وضعها بالسفر، فالقطار حاليًّا في بيلينتسونا.

قال فابْيَان للخادم:

- اذهب أنت إذًا للنوم، سأظلّ هذه الليلة إلى جواره.

سحب فابْيَان كرسيًّا إلى جانب الأريكة، وظل بمفرده في الغرفة جالسًا في مواجهة جثمان صديقه، وراح يفكر: «والدة لَابُوْدَه في بيلينتسونا الآن، فأي عقوبة تنتظر هذه الأم الثكلى عند عودتها؟

الفصل التاسع عشر

فابْيَان يدافع عن صديقه

انقسام بورتريه ليسنج إلى نصفين

الوَحدة في بحيرة هاين

تغيّرت ملامح وجه لَابْوْدَه، فقد تجمعت أجزاء الوجه بسبب المنديل الذي عقدته النحَّاتة فوق رأسه، صار اللحم كتلةً لزْجة كأنها تتسرَّب وتتداخل شيئًا فشيئًا داخل الجسد، ولهذا السبب برزت عظمتا الوجه للخارج، وهبطت العينان داخل التجويفين الأسودين الغائرين، كما هبط جناحَا الأنف واختفيا. انحنى فابْيَان أمام جثة صديقه، وسأله:

- لماذا تُبدِّل شكلك؟ هل تريد أنْ تُسهِّل عليَّ وداعك؟ وددتُ لو كان بإمكانك أنْ تتكلم الآن يا عزيزي، فلدي أسئلة كثيرة. هل تشعر الآن بارتياح؟ هل أنت سعيد الآن بعد أن صرت في عداد الأموات؟ أم أنك نادم على ما فعلته بنفسك؟ وإذا واتتك الفرصة هل كنت تقدم على ما فعلته أمس، وهو ما سينفذ أمره إلى الأبد؟ لقد كنت أعتقد دائمًا أني لن أستطيع

الاقتراب من جثة مَن أحب ولن أعي معنى الموت، ولن أدرك معنى أنّ مَن أُحبُ قد مات. كيف يمكن للمرء أنْ يُدرك أن شخصًا ما لم يعد موجودًا، على الرغم من أنه يمكن رؤية جسده المسجّى داخل قميص أنيق تعلوه رابطة العنق كما كنت أنت منذ وقت قصير؟ كيف للمرء أنْ يُصدَق أنّه لمجرد أن أحدهم لم يتنفس لبضع ثوانٍ يصير الجسد كتلةً من اللحم يجب أنْ تُدفَن قبل أقل من ثلاثة أيام؟ هل سيصيحون إذا ما حدث ذلك: «النجدة.. إنه يختنق!»؟ شْتِيفان! يجب أنْ أقول لك.. أنا أفهم خوفي وتوجسي، لم يعد المرء يشك في الموت وتبعاته. أنت الآن ميت يا عزيزي وها أنت مسجى هنا كصورة مُثبَّتة بشكل غير جيد، أنت تزداد اصفرارًا بشكلٍ ملحوظ، سوف يلقون بصورتك هذه في مكانٍ يطلقون عليه «فُرْنٌ لِإحْراقِ جُثَثِ المَوْتَى»، سوف تحترق ولن يطلب أحد نجدتك أو مساعدتك، وأنا سأكون إلى جوارك ساعتها، لكنني سأظل صامتًا.

اقترب فابْيَان من المكتب، والتقط سيجارةً من الصندوق الأصفر الخشبيّ الذي وُضع هناك منذ سنوات. عُلق على الحائط بورتريه لِلِيسِنْج، تطلع فابْيَان إلى صورة الفيلسوف لِيسِنْج، ذلك الرجل مجدول الشعر، وأشار إلى جثة صديقه قائلًا:

- أنتَ السبب في كل هذا!

لكن (جوتهولد إفرايم لِيسّنْج) تجاهل ما قاله لَابُوْدَه، ولم يُبْدِ اهتمامًا بتلك التُّهمة التي أُلصقت به بعد وفاته بمئة وخمسين عامًا، ظل مُثبتًا نظره إلى الأمام بكل شموخ، ولم تتحرك قسمات وجهه العريض التي تُبرز أصوله الريفية. قال فابْيَان:

- حسنًا!

وأدار وجهه إلى الصورة وجلس من جديد بجانب جثة صديقه، ثم أشار بيده مبرزًا إبهامه للصورة من ورائه وتحدث إلى الجثة قائلًا:

- هل ترى؟ لقد كان هذا محسوبًا مِن الرجال! لقد عضَّ وقاتل وضرب بالقلم الحبر مَن حوله كما لو كان يسحب السيف المغوار من غِمده، لقد خُلق في الحياة كي يقاتل، أمّا أنت فلا، لم تكن له أغراض وأهداف خاصه لنفسه، وعندما فكّر ذات مرة في نفسه وتمنى من القدر أنْ يهب له الزوجة والابن تقوَّضت الأحلام فوق رأسه، وذهبت به أدراج الرياح، وعُدَّ ذلك أمرًا طبيعيًا، مَن يُرِد أنْ يهبَ حياته للآخرين يتوجَّب عليه أنْ يظل بقية حياته غريبًا، سيكون أشبه ما يكون بالطبيب الذي تكتظ غرفة الانتظار في عيادته بالرجال والنساء الغرباء ليلًا ونهارًا، ويتوجَّب على شخص ما أنْ يجلس بينهم، فيما هو شخصيًا لا يأتي دوره أبدًا للفحص، ولا يُسمح له بالشكوى من آلامه. هذه حقيقة الأمر وفحواه، هل كنت تودُّ أن تحيا بهذه الطريقة يا شْتِيفان؟

مسح فابْيَان على ركبتَيْ صديقة في حنوٍ وهزَّ رأسه قائلًا:

- أتمنى لك السعادة لأنك ميّت الآن، لقد كنت إنسانًا حسن الخلق، طيب القلب، وكنت صديقي الوحيد.. أمّا من كنتَ تريد أنْ تكونه فلم يكن أنت، لقد اخترعت في خيالك أنت وحدك شخصًا غريبًا عنك، ثم تهاوت تلك الشخصية الغريبة، فلم يبق بعدما تهاوت إلا تلك الجثة المتيبسة على الأريكة. ألا ترى كيف تسير الحياة؟ يبدأ النزاع بدايةً على لقمة العيش، ثم يتصاعد النزاع ويتفاقم ليكون حول الكرسي الذي يتصارع حوله الجبابرة، ويريد كل واحد منهم الاحتفاظ به مدى الحياة، ستطول المعركة، ويتبادلون الصفعات، ويتعاون الجميع على تحطيم ذلك الكرسي حتى لا يستأثر به أحد! في الأسواق سيهتف السماسرة مبتكرين شعارات واهمة، وهتافات تدعو إلى الفخر، ستعلو ضجة المخمورين، قد يكون في خضمّ ذلك الجمع المعتوه رجلان أو ثلاثة هم المحقون، إلا أن قولَ الحقيقة قد يقودهم إلى الإعدام، والكذب أيضًا يقودهم إلى المصير عينه! أمَّا أنت يا صديقي فما كانوا ليفعلوا ذلك بك، جُلّ ما سيصنعونه لك أنهم سيسخرون منك ضاحكين، بل مفرطين في الضحك، أنت لم تكن يا صديقي إصلاحيًّا، ولم تكن ثائرًا.. فلا تشغل بالك ولا تقلق.

لم تزل جثة لَابُوْدَه ممددةً فوق الأريكة في صمت كأنما تستمع إلى حديث فابْيَان في إنصات واقتناع، تكلم فابْيَان كثيرًا، تعب من الكلام، لكنه واصل:

- لماذا لم تكتفِ بتذوق الجمال، وتستمتع بكل ما هو جميل؟ لو أنك اكتفيت بذلك لما قادك سوء حظك إلى لِيسِّنْج، لعلّك كنت تجلس الآن في باريس بدلًا من رقدتك هذه، لعلّك كنت قد فتحت عينيك الآن وكنت تطالع الآن الشوارع العريضة التي تتلألأ فيها الأضواء وتكتنفها الأشجار من النافذة العلويّة في «كنيسة القلب المقدس» في مونمارتر، أو لعلنا كنا نجوب معًا شوارع برلين من جديد. لقد طُلِيَت الأشجار من جديد، واختلطت زُرقة السماء باللون الذهبي، والفتيات الجميلات يفتحن الشهية، ولو باتت إحداهن عند صاحب شركة الأفلام فلا بأس من أن نبحث عن غيرها. إنَّ صديقي العجوز المخترع الذي أحبَّ الحياة -لم أحْكِ لك بعدُ عنه- حين وضعته في خزانة الملابس اِعتَمَرَ قبعته وأمسك المظلّة في يده كأنه خائف من أنْ تُمطر السماء في الخزانة!

أرَّقت الضجة التي ضربت الشارع منام فابْيَان، فهبَّ واقفًا ومشى نحو النافذة. توقفت عربة أمام باب الفيلا، فأسرع الخادم وفتح الباب، وخرج المستشار القانونيُّ لَابُوْدَه وطوّح بالجريدة في وجهه متسائلًا عن حقيقة ما طالعه، فأومأ الخادم، وأشار إلى الغرفة العلوية التي يرقد فيها فابْيَان مع الجثة، ومن ورائه أرادَت امرأة أنْ تَخرج من العربة، لكنه أزاحها بيده إلى الداخل، وانطلقت بها العربة، ألصقت المرأة وجهها بزجاج النافذة فيما مضى المستشار القانوني إلى داخل الفيلا. تبعه الخادم وظلَّ على أهبة الاستعداد رافعًا ذراعَيْهِ إلى أعلى في حال احتاج المستشار القانوني إلى من يسنده وهو يسير مترنِّحًا.

خرج فابْيَان من الغرفة إلى الرَّدهة، لأنه لم يُرِدْ أنْ يكون موجودًا عندما يرى الأبُ ابنَه شْتِيفان، صعد الأب الدَّرج متكئًا على الدرابزين، والخادم يتبعه باسطًا ذراعيه، لكن والد لَابُوْدَه كان ثابِتَ الجَنَان، حتى بعد دخوله إلى الغرفة المضاءة، لكنه لم يلحظ وجود فابْيَان.

أغلق الخادم الباب وراءه، وظل مسترقًا السمع، ليكون جاهزًا في حال طلب الأب مساعدته. عمَّ الصمت الردهة والغرفة. وقف الخادم وفابْيَان كلاهما متوَاجِهَين، وكلٌّ واحد منهما مُتسمِّر في مكانه، كان ينظر بعضهما إلى بعض في صمتٍ، ويسترقان السمع وهما على أهبة الاستعداد حال صدور أي صوت من الغرفة، لكنهما لم يتلقَّيا أيَّ استغاثة، لم يكن في وسعهما تخمين شيء يتعلق بالمشهد الذي تدور أحداثه وراء الباب الموصد!

قُرِع الجرس، فأسرع الخادم إلى الغرفة، وعاد إلى الردهة ثم قال لفابْيَان:

- السيِّد المستشار يودُّ أنْ يتحدث إليك.

دخل فابْيَان إلى الغرفة. كان الأب يجلس إلى المكتب واضعًا رأسه بين كفيه، وبعد برهة اعتدل في جلسته، ثم وقف ليصافح فابْيَان صديق ابنه، وحيَّاهُ بابتسامة مُتصنَّعة، وهو يقول:

- ليس لي علاقة بالأحداث المأساوية التي وقعت لابني، حاولتُ أن أشاطرَكَ الحزن بالقدر الذي سمحَتْ به أنانيتي، فقد كنتُ مشغولًا على الدوام بالمرَافَعَات الكثيرة، وبالإجراءات

القانونية الروتينية التي يقوم عليها عملي، وكل ذلك كان يمنحني بريقًا خلَّابًا أعمى عينيَّ عن المشاركة الحقيقية في شؤون حياة عائلتي!

استدار في مكانه وحملق إلى جثة ابنه وبدا كأنه يعتذر إلى الميت، ثم واصل حديثه:

- لا طائل من إلقاء اللوم على أيِّ شخص، لم أكن الأب الذي يعيش من أجل ابنه، أنا رجل عجوز مُحبٌّ للحياة، عجوز يبحث دائمًا عن متعته، وينساق وراء شهوته. تفقد هذه الحياة مغزاها بأي حال من الأحوال بسبب هذه الحقيقة!

واصل حديثه وهو يشير بيده نحو جثة ولده:

- كان ابني يعرف تمامًا طريقه وأهدافه من الحياة، لو رأى أن ما فعله هو الأصح والأصوب فعلى الآخرين تقبُّل ذلك وعدم البكاء عليه.

قال فابْيَان:

- إذا كنتَ تلوم نفسك الآن فلا تفكر بهذه الطريقة، وأَصْدُقُك القول.. إن الدافع الرئيسي وراء انتحار فابْيَان بعيد جدًّا عن محيطنا جميعًا.

أخفى فابْيَان الخطاب وأردف:

- في الخطاب ملاحظة تفيد بأن أطروحة الأستاذية لشْتِيفان قد رُفضت لأنها غير مكتملة.

سأله الأب:

- لم أقرأها. لم يكن عندي الوقت لذلك. هل هي حقًّا سيئة؟

أجاب فابْيَان:

- إنه واحد من أفضل الباحثين في مجال تاريخ الأدب الذين عرفتهم.

أخذ فابْيَان نسخةً من أطروحة صديقه التي تعتلي رف الكتب، ووضعها أمام الأب قائلًا:

- ها هي ذي الرسالة.

تصفَّح المستشار الأطروحة، ثم رنَّ الجرسَ فوافاه الخادم، وسَأَلَهُ دليلَ التليفون، ثم شرع يبحث عن رقم ما بين الصفحات، لكنه استدرك قائلًا:

- يا للأسف؛ فات الوقت لهذا الاتصال، فليس من ورائه طائل.

لكنه -رغم ذلك- سار نحو التليفون، وطلب رقمًا، ثم أردف:

- هل من الممكن أن أتحدث مع المشرف العلميّ؟ حسنًا، إذًا أعطِ الهاتف للسيّدة زوجته، حتى لو كانت نائمةً، أودّ التحدث معها، أنا المستشار القانوني لَابُوْدَه.

انتظر الأب على الهاتف، ثم تابع:

- أعتذر عن الإزعاج، سمعت أنَّ زوجك في الطريق إلى مدينة فايمار.. إلى جمعية شكسبير، متى سيرجع؟ سوف أزوره غدًا

في المعهد، نعم أودّ مقابلته، هل لديك سابق معرفة إذا ما قرأ أطروحة الأستاذية الخاصة بابني أم لا؟

أصغى إلى كلام طويل على الطرف الآخر، ثم أنهى المكالمة، ووضع السمّاعة، التفت إلى فابْيَان ثم سأله:

- هل تفهم هذا؟ لقد ذكر المشرف العلميُّ لزوجته في أثناء الأكل أنَ الرسالة عن لِيسَنْج شائقة جدًّا وأنه اقترب من النهاية ويراها ممتعةً، ويبدو أنه وزوجته لا يعلمان شيئًا عن موت شْتِيفان حتى الآن!

وقف فابْيَان مضطربًا، ومضى يقول:

- هل مدح الأطروحة؟ هل تُرفض الرسائل التي تُمدح؟

قال المستشار القانونيّ لَابُوْدَه:

- إنه لأمرٌ شائع أنْ تُقبل الأبحاث، حتى لو رآها البعض سيئةً! هل لك أنْ تتركني الآن بمفردي مع ابني. أريد أنْ أقرأ رسالته التي عكف على كتابتها في ما يقرب خمسة أعوام.

أومأ إليه فابْيَان وصافحه، فقال لَابُوْدَه الأب وهو يشير إلى بورتريه لِيسِنْج المُعلق على الحائط:

- هنا إذًا يكمن سبب الانتحار!

أخذ الصورة عن الحائط، حدَّق إليها، ثم هوى عليها بيمينه محطمًا إياها حتى سال الدم من يده، فأخذ الصورة، وطوَح بها على الأرض. واستدعى الخادم برنين الجرس. فجاءه مسرعًا، وقال له:

- اكنس هذه القاذورات من هنا وأحضر لي لاصقةً طبية.

ألقى فابْيَان مرةً أخرى نظرةً على صديقه، ثم خرج من الغرفة وتركهما بمفردهما. شعر بإعياءٍ شديد جعله عاجزًا عن النوم، لقد أنهكه التعب جرَّاء ما تحمّله من الحزن طوال اليوم، مثلت أحداث هذا اليوم الطويل على هيئة صور مُجسمة أمام عيني فابْيَان، يا لها من أحداث جسام! لقد أمسك زوج المرأة التي بات عندها في شارع موللر صدغيه! لم تكن زوجته سعيدة معه في الفراش. كُوْرنِيلْيَا ذهبت لليلة الثانية إلى ماركات. حتى موت لَابُوْدَه وجثته الممددة على الأريكة ليست بالنسبة إليه إلا فكرة تتقافز مع غيرها من الأفكار!

شعر فابْيَان بوخز مؤلم يتواتر مجيئه وذهابه مثل عود ثقاب يشتعل ثم يُطفأ. تذكَّر أحداثًا مشابهةً وقعت له أيام طفولته، لقد بكى طويلًا بسبب حزنٍ ظنَّ أنه لن يبرأ منه أبدًا، واليوم لا يجد لتلك الأحزان المزعومة أدنى أثر، هل مات الإحساس في داخله وجفت ينابيعه مثلما كان يحدث معه بعد ذلك؟ كم أوجعته آلام لا حصر لها كانت تصرعه وتعتصر قلبه! وكانت الحياة في خِضَمّ تلك الأحزان تتفلت من بين يديه، وماذا بعد؟ إلى أين مضت تلك الأَحزان التي فاضت بها جوانحه في تلك الأيام البعيدة؟ لقد صار الألم الآن باردًا لا يُلهب قلبه.

قطع شارع كونيجسأليه بطوله، ومرَّ بشجرة البلّوط التي يستظل بها شاهد قبر (فالتر راتيناو)[1]، عُلق عليها إكليلان، ودُوِّن على

---

(1) مهندس وكاتب وسياسي ألماني ذو أصل يهودي. شغل منصبًا مرموقًا في وزارة الخارجية الألمانية، مات سنة 1922م. (المحرر)

شاهد القبر عبارة تقول: «هنا يرقد رجلٌ حكيمٌ أُغتِيل». وفي مرة من المرات قال له أحد الكُتّاب النازيين: «راتيناو يستحق القتل، إنه متعجرف ومتكبر، فضلًا على كونه يهوديًا خسيسًا يتطلع إلى منصب وزير الخارجية».

مضى فابْيَان في جولته المسائية وحيدًا، السياسة والحب، الطموح والصداقة، الموت والحياة، كل ذلك لم يترك أثرًا في صديقه. كانت الألعاب النارية تتلوى صاعدةً إلى عنان السماء، ثم ما تلبث أن تسقط إلى الأرض على هيئة حزم ضوئية ملونة، وفي منتصف الطريق تفتَّت هذه الحزم الضوئية، وتتلاشى بلا أثر، فيما تلُوح في الأفق صواريخ جديدة تتهيأ لتكرر الحدث نفسه. عُلقت لافتة على مدخل الحديقة: «فرناندو، بطل العالم في الرقص المستمر، إنه يتخطى رقمه القياسيّ، يريد أنْ يرقص مائتي ساعة باستمرار، لا يجب احتساء الخمر».

جلس فابْيَان في إحدى الحانات بالقرب من نفقٍ تحت محطة هاينيزيه للسكة الحديدية. بدت له كل أحاديث الجالسين من حوله هراءً، حلَّق منطادٌ مكتوبٌ عليه بخطٍ كبير «شيكولاتة النصر» فوق المدينة، ومضى قطارٌ من تحت الجسر، وكانت نوافذه المضاءة يلوح بريقها من بعيد. على الطاولة المجاورة شرع رجلٌ في حكاية نكتة، فصرخت النساء اللواتي تحلَّقن حوله كأنما تركض الفئران المذعورة تحت أثوابهن! قال فابْيَان في مرارة:

- يا إلهي! ما هذا كله؟

ثم حاسب النادل، وعاد مُسرعًا إلى غرفته، وهناك داهمته عِدَّة خطابات مبثوثة على الطاولة، لقد أُعيدت إليه طلبات التوظيف التي أرسلها، رُفضت جميعًا، ولم يحصل على أيِّ موافقة من أي جهة! لاقى فابْيَان ذلك كله بإحساس متبلد، ثم قام ليغتسل، واستلقى على الأريكة بعد أن جفف وجهه بالمنشفة، وقد خفف اغتساله من تعب اليوم وإرهاقه، مرَّر فابْيَان المنشفة على باقي جسده، ثم استغرقه النوم على الأريكة، وراح يغط في نوم عميق، فيما ظل ضوء الغرفة مشتعلًا طوال الليل!

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل العشرون

كُوْرنِيلْيَا في عربتها الخاصة

المشرف العلمي لا يعرف شيئًا

سقوط السيدة لَابُوْدَه مغشيًّا عليها

ولمّا استيقظ فابْيَان في اليوم التالي ورأى مصباح الغرفة مشتعلًا، تلاشت أحداث الأمس من ذاكرته. انتابه شعور بالاكتئاب والبؤس، لكنه لم يعرف لذلك سببًا. أغمض عينيه، وعندها بدأت أحزانه في التجسُّد أمامه. وخطر بباله أنَّ ما حدث له كأن أحدًا ألقى به من النافذة.

فما لبث أن تذكَّر ما نسيه بسبب فرط التعب والإعياء، عندها بدأت ذكرياته تهبط عميقًا وتتحوَّل وتتبدّل، كأن وزنها يزداد وهي تهبط حتى غدت حجارة ثقيلة تجثم على قلبه. أدار وجهه إلى الحائط وأغلق أذنيه.

عندما أتت السيدة هُوهِنْفِيلْد حاملةً وجبة الفطور، لم تُثِر جلبة بسبب ترك فابْيَان مصباح الغرفة مشتعلًا وأنه نام على الأريكة لا السرير. وضعت صِينِيَّة الفطور على الطاولة. ثم أطفأت النور، كانت

تتصرف كأنها ممرضة تقوم بطقوس عملها الروتينية في مستشفى، توجهت إلى فابْيَان قائلةً:

- خالص عزائي لك، لقد قرأت الخبر في الجريدة. من المؤكد أنها صدمة شديدة لك. ولوالديه المكلومين.

كان صوتها هادئًا طيبًا، وبدا حزنها صادقًا لا رياء فيه. تماسك فابْيَان وتمتم:

- أشكرك.

لم يبرح فابْيَان موضع نومه على الأريكة حتى تركت الغرفة، لكنه هبَّ واقفًا بعد خروجها، وارتدى ملابسه. لقد أراد أن يقابل المشرف العلميَّ، فمنذ أمس وهو يتعذَّب لأنه لم يتكلم معه بعدُ بخصوص أطروحة شْتِيفان. يجب أن يذهب إلى الجامعة، وبمجرد أن خرج من البيت توقفت أمامه سيارة خاصة شديدة الفخامة، وأطلت من شباكها الخلفي كُوْرنِيلْيَا وهي تصيح:

- فابْيَان.. فابْيَان..

أجل إنها هي، لقد جلست في العربة ولوَّحت إليه بيديها، وعندما اقترب منها شيئًا فشيئًا خرجت من السيارة لتصافحه، قالت له وهي تربت على يديه في رقة وادعة:

- مسكين أنت يا فابْيَان! لم أستطع انتظارك حتى بعد الظهر، أعارني مَاكارْت سيارته. هل أزعجتك رؤيتي؟

ثم همست قائلةً:

- السائق يراقبني، إلى أين تريد أنْ تذهب؟

- إلى الجامعة. لقد انتحر شْتِيفان لأن أطروحته رُفضت. يجب أن أتحدث مع المشرف العلميّ.

- سوف أوصلك إلى هناك.

التفتت إلى السائق وقالت له:

- أوصلنا حتى الجامعة من فضلك.

ركبا السيارة معًا، وانطلقت بهما صوب المدينة. سألها فابْيَان:

- وكيف كان مساؤك أمس؟

رجته قائلة:

- من فضلك.. لا تسألني عن أمس! كنت أتوقع ما سيحدث، وتحدِّثني نفسي أنك لستَ بخير، وأنّ فاجعةً ما ستحدث لك، لقد حدّثني مَاكارْت عن دوري في الفيلم القادم. لم أصغ إليه جيدًا، فقد كان عقلي يفكر في هواجس حديثنا، وفي ما ألمَّ بك.

كان فابْيَان يبغض في العادة طريقة تعامل البُلْهِ مع المستقبل كأنه غطاء سرير يرفعونه بكل سهولة ليطالعوا ما تحته! والأعجب أن بعضَ الناس يحسبون أنهم قادرون على ذلك بالفعل، أو أن لهم الحق في ذلك فعلًا! وينسحب هذا الرأي أيضًا على ما يتعلق بأمور القضاء والقَدر، رفْضُه لهذه العادة لم يكن متعلقًا بوجود هواجس من عدمه. كان يجد في هذه النزعة الروحانية نوعًا من التعالي على

الواقع، ورفضًا للتعامل مع الوضع القائم، ومع ذلك فقد اعتاد هو أيضًا أن يكون سلبيًّا في أمورٍ كثيرة، ومن ذلك تَعَلُّله بالقضاء والقدر في ما تحتَّم حدوثه ولا مفر من حلوله. سألها بدون أنْ يُعير هواجسها المزعومة أدنى اهتمام.

- أيَّ دور ستلعبين في الفيلم؟

أجابته:

- إنه دور غريب للغاية، هل لك أنْ تتخيَّل أني سألعب دور زوجة رجل يفعل أي شيء من أجل إرضاء خياله غريب الأطوار، فيطلب أنْ أتحوَّل في الشخصية باستمرار، فهو إنسان مريض، ويحتاج مني إلى أن أكون مرةً فتاة بلا خبرة على سجيتها، وأحيانًا امرأةً يافعةً، أو في أوقات أخرى مومسًا داعرةً، ثم أرجع مرةً أخرى لأكون كائنًا لطيفًا ساذجًا يحيا حياة فخمة. وفي النهاية سيُفاجأ كلانا (أنا وهو) بأنني أتغير في النهاية بدون رغبة منه لأغدو تلك المرأة التي تمنيتُ دائمًا أن أكونها، وسيتضح أني صرت حقيرةً ومتسلطةً في الصراع الذي ينشأ بيننا بسبب أوامره لي، ومحاولات إخضاعي له، لكنه في النهاية سيرضخ لي ويستسلم بطريقة مأساوية.

- هل هذه فكرة مَاكارْت؟ كوني حَذِرة؛ هذا الرجل موضع خطر عليكِ، سيجعلك تلعبين هذه التحولات في بادئ الأمر، ولكنه يراهن بينه وبين نفسه أنكِ ستصيرين هكذا في الواقع.

- لن يكون ضير في ذلك يا فابْيَان، هؤلاء الرجال يحتاجون إلى مَن يدوس عليهم ويدعسهم، الفيلم كله ليس إلَّا دورةً تعليميةً للحياة بأكملها.

نبش فابْيَان في جيبه فوجد حزمة الأوراق المالية التي تركها له شْتِيفان، عدَّ ألف مارك منها وأعطاها لكُورنِيلْيَا قائلًا:

- لقد ترك لَابُوْدَه لي هذا المال، فلكِ نصفه. هذا أمرٌ يُريحني.

أردفت:

- لو كنا نمتلك ألفي مارك قبل ثلاثة أيام!

لاحظ فابْيَان أن السائق يراقبهما من خلال مطالعة المرآة الأمامية، صاح فابْيَان قائلًا له:

- سوف تُؤدي مراقبتك لنا إلى اصطدامنا بشجرة، من فضلك انظر أمامك.

فصرف السائق نظره عنهما، وعندها قالت له:

- سوف أزورك اليوم بعد الظهر بدونه.

أردف قائلًا:

- ليس في مقدوري أن أحدد إذا ما كان في وسعي أن أنتظرك أم لا!

مالت بجسدها نحوه شاردةً خجلةً من نفسها:

- سأمرَ تحسبًا للظروف، فلعلك تحتاج إليَّ.

نزل فابْيَان من السيارة أمام الجامعة، وبقيت هي في مقعدها تحت ملاحظة المُراقب السري الذي يقود السيارة. فتح الخادم باب المعهد لفابْيَان، لم يكن المشرف العلميّ قد وصل بعد، لكن عودته من رحلته متوقعة في أي لحظة. سأل فابْيَان عن المساعد إن كان موجودًا، فاقتيد إلى الغرفة الأمامية، وهناك لاحظ وجود السيّد لَابُوْدَه وزوجته. بدت ملامح العجز والشيخوخة على ملامحها، وأجهشتْ في البكاء بمجرد أن رأت فابْيَان، وقالت له:

- لم نشمله بالرعاية والحنان كما ينبغي.

أجابها فابْيَان:

- لا فائدة من توجيه التهم إلى نفسكِ.

سألها المستشار القانوني لَابُوْدَه:

- ألم يكن بالغًا بالقدر الكافي ليعتني هو بنفسه؟

انتحبت زوجته بصوتٍ عال وهي تقول:

- لقد قرأتُ في الليل رسالة شْتِيفان، لكني لا أفهم كثيرًا من تخصصكم، هل أساسيات البحث صحيحة أم لا؟ لكني أجد الاستنتاجات جادةً، وذات قيمة بلا شك.

أردف فابْيَان:

- لكن أسس البحث العلمي سليمة، والعمل في مجمله ممتاز، أنا في انتظار رأي المشرف العلمي! ليته يأتينا الآن!

زاد نحيب الأم وعلا صوتها:

- لماذا مات شْتِيفان إذًا ما دام كلاكما ينفي السبب الذي انتحر لأجله؟! هيا.. يجب أنْ نرحل من هنا.

هبَّت واقفةً، وأمسكت بالرجُلين وهي تقول:

- اتركاه في سلام.

قال لها المستشار القانوني:

- اجلسي يا لويزة.

وأخيرًا وصل المشرف العلمي، وكان يرتدي ملابس أنيقة على الطراز الكلاسيكي، وتبرز عيناه بعيدًا عن رأسه. طلع الخادم الدَّرج وراءه وحمل له حقيبته اليدوية. بدا المشرف العلميّ منكّس الرأس، وانحنى نحو والدَيْ شْتِيفان وهو يقول:

- هذا أمر مفزع!

وقبض الرجل على يدي الأم ليواسيها، فانتحبت الأم وزاد بكاؤها، وتأثر الأب بذلك أيضًا بشدة. التفت المشرف العلمي مؤرخ الأدب نحو فابْيَان وقال له:

- نحن يعرف بعضنا بعضًا، أنت صديق شْتِيفان.

أغلق الرجل باب الحجرة، وطلب إليهم جميعًا الجلوس، استأذنهم للحظة يغسل فيها يديه كما أمره الطبيب، فيما تحلَّق الباقون صامتين حول الطاولة. أمسك الخادم المنشفة له. أخذ المشرف العلميُّ ينشف يديه وهو يقول:

- لقد اشتريت الجريدة اليوم صباحًا في مدينة نورنبيرج، وأول ما وقعت عينيّ عليه هو خبر هذا الحادث الأليم لولدكما. لا أعلم إن كان سؤالي لكما مناسبًا في الوقت الحالي أم غير مُراعٍ لهذا الظرف الحزين.. بحق السماء، ما الذي دفع ابنكما إلى فعل هذا؟

قبض الأب لَابُوْدَه يده التي كانت على الطاولة بشدة، وقال:

- ألا يمكنك أنْ تتخيل السبب؟

هزّ المشرف العلمي رأسه نافيًا:

- ليس لديَّ إجابة تتعلق بهذا الدافع.

رفعت الأم يدها وبسطتها في الهواء. كانت نظراتها تتوسل الرجال أن يتمهّلوا، لكن الأب لَابُوْدَه مدّ جسده إلى الأمام وقال:

- لقد أطلق ابني على نفسه الرصاص لأن أطروحته قد رُفضت.

سحب المشرف العلميّ منديله الحريري من جيب صدريته، ومسح به جبينه الذي تفصّد عرقًا، ثم وقف محدقًا إلى الجالسين حوله بعينيه الجاحظتين خشية أن يكونوا أصابهم الجنون، وقال:

- ماذا؟

ثم همس لنفسه قائلًا: «لكن هذا أمر مستحيل، من غير الممكن أن يفعل ذلك؟»

صاح المستشار القانوني:

- بالتأكيد فعلها! هذا أمر ممكن، من فضلك هات معطفك وتعال معي، وألق نظرةً بنفسك على جثة ابننا، ولتطالع جثمانه الممدد على الأريكة!

نظرت إليه الأم بعينين مفتوحتين متسمِّرتين وقالت له:

- ستقتله للمرة الثانية.

همهم المشرف العلميُّ بكلمات مبهمة، ثم أمسك ذراع السيِّد لَابُوْدَه وصاح فيه:

- هذا أمر فظيع، مَن قال لك إني رفضت الأطروحة؟ مَن ادّعى ذلك؟ لقد كتبت تقريرًا للجامعة عن رسالته، لقد قلت فيه إنها أهم رسالة كُتبت في تخصص تاريخ الأدب في السنوات الأخيرة. كما ذكرت في توصيتي بالموافقة على هذا البحث العلمي المكتمل أن الدكتور شْتِيفان لَابُوْدَه ينتمي -بموجب هذا البحث- إلى أهم متخصصي تاريخ الأدب، وأنَّه قدَّم إنجازات لا تُقدَّر بثمن، استطاع من خلالها تعديل سُبل البحث الحديث، كما أني كتبت أني لم أقرأ بحثًا مماثلًا، وأوصيت بنشر رسالته في دورية المعهد، وإصدارها في عدد خاص يليق بأهميتها. كيف لكما أنْ تدَّعيا أني رفضت رسالة ولدكما إذًا؟

ظلَّ والدا شْتِيفان متسمِّرين مكانهما، فيما وقف فابْيَان وهو يشعر برجفةٍ تسري في كلِّ جسده، وقال:

- لحظةً واحدةً من فضلك، سأحضره فورًا.

ثم أسرع إلى الخارج، ونزل الدّرج حتى وصل إلى غرفة الكتالوج، حيث جلس الدكتور فيكهيرْلين المساعد العلمي في المعهد، بجانب ملف البطاقات، كان يرتب البطاقات ويصنِّفها، وقد كُتب عليها أسماء الكتب الجديدة في المكتبة، رفع عينيه إلى أعلى وأطبق جفنيه ثم قال:

- ماذا تريد؟

قال له فابْيَان:

- يجب أنْ تأتي معي حالًا إلى مكتب المشرف العلميّ.

لم يتحرك الرجل من مكانه، وواصل ترتيب البطاقات، أمسكه فابْيَان من ياقة قميصه وسحبه معه إلى خارج الغرفة، صاح الرجل في انزعاج ودهشة:

- كيف تجرؤ على فعل ذلك؟!

لم يجبه فابْيَان، ووجّه إليه اللكمات، فأزاح فيكْهِيرْلِين ذراع فابْيَان محاولًا الدفاع عن نفسه، وتعثّر في مشيه، ولم يقاوم طويلًا، وصعد الدّرج مع فابْيَان، وهناك أمام مكتب المشرف العلميّ أراد أن يفلت من فابْيَان، ولكن فابْيَان فتح الباب سريعًا فأسرع نحوه والدا شْتِيفان والمشرف العلميَ، وقد سالت الدماء من أنف المساعد. قال فابْيَان:

- يجب أن أوجّه بعض الأسئلة إلى هذا الرجل في وجودكم. يا د. فيكْهِيرْلِين.. ألم تخبر صديقي شْتِيفان أمس أنَّ رسالة

الأستاذية الخاصة به قد رُفضت؟ ألم تذكر له أنّ المستشار العلمي رأى أنَ هذا العمل ليس إلا إزعاجًا للأساتذة الجامعيين؟ ألم تؤكد له أنَّ المستشار اكتفى بالرفض بصفة شخصية بدلًا من الفضيحة على الملأ؟

تأوهت السيّدة لَابُوْدَه وسقطت مغشيًا عليها على الأرض، لم يعرها أحد اهتمامًا، لأن فيكْهِيرْلِين أراد الهرب من الباب، ومنعه ثلاثة الرجال الذين وقفوا ينتظرون إجابته، وقد استند المشرف العلميّ إلى مسند الكرسيّ قائلًا:

- أحقًّا هذا يا فيكْهِيرْلِين؟

مدّ المساعد وجهه الشاحب العريض كأنه أراد أنْ يبتسم، وضع يده على مقبض الباب وقال:

- لقد كنت أمزح معه.

عندها صرخ فابْيَان:

- أيها الوغد! أيها الوغد!

وأطلق من حنجرته صوتًا مبحوحًا مكظومًا أشبه ما يكون بصرخة حيوان، ثم انقَضَّ على المساعد، وانهال عليه ضربًا بكلتا يديه بدون توقف، وبدون أدنى تفكير كان يسدد لكماته بشكل عشوائي، استمر في فعله كأنما هو مطرقة آلية تضرب باستمرار. زأر فابْيَان وسدد هذه المرة لكماته في منتصف وجهه. ومع ذلك فما زال فيكْهِيرْلِين يبتسم في بلاهة كأنه سعيد بما فعله!

استسلم الرجل للضربات المتلاحقة، مع أن يده كانت على مقبض الباب، وكان في وسعه الهرب، ظل الرجل يتلقى الضربات حتى سقط على الأرض جاثيًا على ركبتيه، واستند إلى الباب، وأحكم قبضته على مقبضه حتى يستطيع النهوض، ثم فتح الباب وأزاح جسده إلى الرَّدهة، فتبعه فابْيَان خطوةً بخطوة على درج السُّلَّم، وكان يضرب بيدٍ تعقب أختها حتى أدماه!

في الدور الأرضي تجمّع عدد من الطلاب الذين استرقوا السمع لما يحدث في الطابق العلوي، وقفوا صامتين يراقبون ما يحدث بلا تدخل، كأنهم يرون أنّ ما يحدث للمساعد هو عين العدالة. صاح فابْيَان:

- أيها الكلب!

ثم سدد إليه فابْيَان الضربة هذه المرة تحت ذقنه، فوقع على الأرض مغشيًا عليه، وأراد فابْيَان أنْ يهوي عليه بجسده، فتدخّل أحد الطلبة، وأبعد فابْيَان عنه، فصاح فابْيَان:

- دعني أقتله!

أغلق أحدهم فم فابْيَان لكي لا تُسمع تهديداته، وجلس خادم المعهد بجانب فيكهِيرْلِين الذي حاول الوقوف، لكنه سقط مرةً أخرى متأوهًا من الوجع، فسحبه الطلبة إلى غرفة الكتالوج.

في الطابق العلوي وقف المشرف العلميّ ووالد شْتِيفان متلاصقين على درَج السُّلَّم، وسُمع صوت نحيب والدته من جديد وقد استردت وعيها وهي تنوح:

- كان الأمر مجرد مزحة إذًا؟ مزحة أودت بحياة ابني؟

وضحكت بصوت عال، وبطريقة هيستيرية. قال المشرف العلميّ بنبرة صوت قوية كأنه وجد أخيرًا مخرجًا من هذا الموقف:

- لقد قررت فصل الدكتور فيكْهِيرْلِين من العمل.

ترك الطلاب فابْيَان يتحرك بدون أن يحتجزه أحد منهم، أطرق رأسه مودِّعًا هذا المكان، ثم غادر المعهد في هدوء.

الفصل الحادي والعشرون

محامية تتحول إلى نجمة شباك

معرفة قديمة

الأم تبيع صابونًا رخوًا[1]

هكذا.. لم يكن الأمر سوى مُزحة!

أطلق السيّد فيكْهِيرْلِين دعابة غبيةً، مات على أثرها لَابُوْدَه.

لم يكن انتحارًا في واقع الأمر؛ موظّفٌ في معهد الدراسات الجرمانية للعصور الوسطى صديق فابْيَان.

صبَّ في أذني القتيل كلمات مسمومة مثل من يضع مادة الزرنيخ السّامة في فنجان الشاي على سبيل الدُّعابة. صوَّب دُعابته البلهاء نحو صديقه لَابُوْدَه فقتله بدمٍ بارد.

---

(1) نوع من الصابون يحتوي على قليل من حبيبات الرمل الناعم، يستعمل في تنظيف اليدين من الشحوم. (المحرر)

ما زال وجه فيكْهِيرْلِين الشاحب المبتسم الجبان يتراءى أمام عينَيْ فابْيَان فيما يجوب شارع فريدريش، وقد وجد نفسه وقد تساءل فجأةً:

«لماذا انهلتُ عليه ضربًا بهذه الطريقة كأني أردتُ قتله هو الآخر؟ لماذا كان غضبي منه أكبر من حزني على النهاية المُفجعة لصديقي؟ أليس حريًا بي أن أكون متعاطفًا مع هذا النوع من البشر الأشرار بدلًا من أنْ أكرهه وأن أثأر لصديقي منه؟ تكفيه أوجاع ضميره، وهل يكون في وسعه بعد فعلته هذه أن ينام هادئًا قرير العين؟»

بدأ فابْيَان يُحلل ما فعله فيكْهِيرْلِين، وخطوةً بخطوة كان يناقش دوافعه التي جعلته يفعل ما فعله مع شْتِيفان، فهو بالطبع لم يقصد قتله عمدًا، هو فقط كان حاقدًا عليه، وقد أراد النيل منه لتفوقه، وأراد إحراجه، فالمنافس الأحمق فيكْهِيرْلِين اقتصَّ لنفسه من الأكاديمي الموهوب في البحث العلمي شْتِيفان، وهكذا انتقم لضعفه وعدم تميُّزه. كانت أكذوبته أشبه ما تكون بقنبلة رماها على لَابُوْدَه، وفرّ هاربًا بعيدًا عنه ليتابع انفجارها من بعيد شامتًا!

«أُقيل فيكْهِيرْلِين من عمله، وضُرب ضربًا مُبرحًا، ولكن ألم يكن من الأفضل لو أنه لم يفقد وظيفته؟ وألم يكن من الأفضل ألا أضربه؟».

فابْيَان شخص تعس، استولى الحزن على روحه بالأمس بسبب انتحار صديقه، واليوم تمتلئ نفسه وروحه بالقلق.

والحقيقة التي اتَّضحت لنا الآن. في صالح مَن هي؟

لعلَّها في صالح والدَيْ لَابُوْدَه اللذين عرفا أخيرًا أنَّ ابنهما مات ضحية سوء الأخلاق!

ولعلهما قبل أن يعلما حقيقة موته لم يكن في وسعهما تصديق ما يعانيه هذا المجتمع من الكذب. الآن انتصرت العدالة والانتحار هو الذي صار النكتة المأساوية.

فكَّر فابْيَان في مشهد مراسم دفن لَابُوْدَه، فأخذته رجفة، وجد نفسه بين الحشود التي أتت لتودِّعه، ورأى والدَيْ لَابُوْدَه وسط تلك الحشود، حتى المشرف العلميّ كان موجودًا، أجهشت والدة لَابُوْدَه في البكاء، وانتحبت بصوتٍ عالٍ. مزّقت المنديل الأسود المتدلِّي من قبعتها على وجهها وسقطت فوقه تولول وتنوح. كان فابْيَان مستغرقًا في تفكيره، وقد دُفع فابْيَان إلى الأمام فتسمَّر مكانه حتى اصطدم بشخص ما في الزحام، ونَهَره صوت غاضب يقول: انتبه!

تابع فابْيَان أفكاره المتلاحقة، ألم يكن من الواجب عليه أن يغضَّ طرفه عن دُعابة فيكْهِيرْلِين بدلًا من سعيه لكشف الحقيقة؟ ألم يكن من الأفضل أنْ يحتفظ بالحقيقة لنفسه فقط كي يحمي والدَيْ شْتِيفان من هذه الصدمة؟ لماذا كان لَابُوْدَه دقيقًا ومنظمًا جدًّا حتى في آخر خطاب له؟

واصل فابْيَان السير، انعطف في شارع لايبتسجر في منتصف الظهيرة. هذا موعد استراحة الغداء، لهذا اكتظَّت الشوارع بموظفي المكاتب والبائعين الذين توافدوا بكثرة على محطات الحافلات.

ما الذي يمكن توقعٍ حدوثه لو لم يفعل فيكْهِيرْلين فعلته؟ لو علم لَابُوْدَه أنَ عمله فعلا يُعد مُنجزًا هامًّا في تخصصه، ولو أنه قُدِّر حق التقدير من المشرف العلميّ.. فما الذي سيتغير مما حدث؟ لو لم يكن قد مات وأسعده هذا النجاح في عمله، هل كان سيخفف عنه ذلك من وطأة صدمته وإخفاقه في علاقته مع لِيدَا؟ لماذا عكف إذًا خمسة أعوام على كتابة رسالة الأستاذية؟ لقد أراد أنْ يبرهن لنفسه أنه قادرٌ على مثل هذا الإنجاز، لقد توقعٍ نجاحه هذا ووضعه في الحُسبان، وقد صَحَّت توقعاته، لكنه صدَّق كذبة فيكْهِيرْلِين، وآمن بما قاله الرجل من سخف بدلًا من أن يؤمن بقناعاته وقدراته الشخصية.

لم يستطع فابْيَان متابعة مراسم وداع لَابُوْدَه ودفنه، انسحب من المكان، بل إن الواجب يُحتِّم عليه الانسحاب من هذه المدينة كلها، والرحيل بعيدًا عنها، حملق في إحدى السيارات التي مرّت أمامه.. «أكانت هذه كُوْرنِيلْيَا؟ أجل إنها جالسة هناك بجوار الرجل البدين، لا لم تكن هي. لماذا أنا مشغول بها؟ لقد قررتُ الرحيل، ولن يوقف قراري شيء، لن يوقفه حتى عشرة جياد أشداء!».

مشى فابْيَان نحو محطة القطار، لم يذهب إلى الأرملة السيّدة هُوهِنْفِيلْد، ترك لها في غرفته كل ما يملك هناك، لم يعد يريد زيارة زَاخارِيْس مرةً أخرى، ذلك الرجل المتكبر الكاذب، مشى نحو محطة القطار. فابْيَان يرحل. سيغادر القطار المحطة بعد قرابة

ساعة، اشترى فابْيَان تذكرة السفر، واشترى الجرائد، وجلس ينتظر في ساحة الانتظار وهو يتصفحها، وهكذا طالع الأخبار:

«أُبرمت عدة اتفاقيات عالمية رفيعة المستوى في أحد المؤتمرات الاقتصادية»، أليست كل هذه المؤتمرات وما شابهها تَمَلُّقًا؟ ألا يدرك المرء شيئًا فشيئًا ما يعرفه الآخرون؟ ربما كان لَابُوْدَه مُحقًّا؟ لعلَّه حقًّا لم يكن من الضروري انتظار السمو والرقي الأخلاقي للإنسانية الآخذة في السقوط والترديّ! ربمّا كان هدف الأخلاقيين الذي كان فابْيَان منهم هو الوصول إلى هدفهم من خلال اتخاذ إجراءات اقتصادية! هل كان التقويم الأخلاقيّ لهذا السبب فقط غير قابل للصرف، لأنه بكل بساطة عديم النفع؟ هل كانت فكرة النظام العالمي مجرد لائحة داخلية؟

لقد مات لَابُوْدَه، هو أيضًا ما كان سيبهره مثل هذا الخبر، وما كان سيحضر مثل هذه الاجتماعات ويضعها في قائمة مواعيده، ما زال فابْيَان يجلس في صالة الانتظار ويفكر في ردود فعل لَابُوْدَه لو لم يكن قد مات، تملّك فابْيَان شعور بعدم الاكتراث. هل أراد لَابُوْدَه تحسين هذه الأوضاع بنفسه؟ أم أراد تحسين البشر أنفسهم وإعادة تقويمهم؟ من المؤكد أنه تمنى أن يحصل كلُّ فرد كلَّ يوم على عشر دجاجات مطهيات في القِدر، ودورة مياه، تمنى أن يحصل كل فرد على سبع سيارات يبدِّل كل يوم سيارةً بعدد أيام الأسبوع، لكن ماذا كنا سنجني جراء هذه الأمنيات إذا لم يكن من ورائها هدفٌ يجب الوصول إليه؟ هل أقنعه أحد بأن الإنسان سيصير أفضل إذا ما كانت

هذه أحواله؟ لو صحَّ هذا.. سيكون إذًا مالكو حقول البترول ومناجم الفحم ملائكة حقيقيين.

ألم يقل ذات مرة للَابُوْدَه: **«حتى في هذه اليوتوبيا التي تَتمنى إقامتها على الأرض، سيبغي الناس بعضهم على بعض»؟**

هل الجنة الموعودة التي يكون فيها متوسط الدخل الشهري عشرين ألف مارك لكل بربري لا يعرف الحضارة، هي الفصل الختامي للإنسانية؟

وفيما هو جالس يدافع عن رأيه وموقفه من الأخلاق ويقارنه بعلماء الاقتصاد، خامره من جديد ذلك الشك الذي ينخر منذ زمن بعيد في نفسه ومشاعره كالدُّود، «ألم يكن هؤلاء البشر العاديون المحترمون مطمعًا للبشرية؟ أليست تلك الجنة الموعودة على الأرض -سواء كانت قابلة للتحقيق أم لا- هي جهنم في حقيقتها؟ أليس من الأولى أن نعدَّ كل هذا عبثًا؟».

لعلَّ الاقتصاد النفعي المخطط على أساس المصالح الذاتية السلسة هو الوضع المثالي الوحيد الذي يمكن تحقيقه، بل بالأحرى الذي يمكن احتماله؟ هل كان لمدينته الفاضلة معنًى تنظيميٌّ فقط؟ وهل كان في إمكانه تمنيها كواقع يمكن تحقيقه؟ هل كان يتحدث إلى البشرية كلها كأنه يتحدث إلى حبيبته قائلًا: «أريد أن أحضر لكِ النجوم من السماء!»؟ هذا الوعد يُعد أمرًا محمودًا، ولكن عواقب تنفيذ هذا الوعد مما لا تُحمد عقباه!

ما الذي يمكن للحبيبة سيئة الحظ أن تفعل بالنجوم إذا أحضرها لها من السماء؟! لقد وقف لَابُوْدَه على أرض الحقائق، أراد أن يخطو خطوة إلى الأمام، ولكنه تعثَّر. أما هو -أي فابْيَان- فقد تأرجح وترنَّح لأنه لم يثبِّت قدميه برسوخ في الأرض، واكتفى بأن يواصل العيش. لماذا بقي فابْيَان إذًا على قيد الحياة إن لم يكن يعرف ما هدفه من الحياة؟ ولماذا مات الصديق الذي عرف هدفه من الحياة؟ لقد مات مَن يستحق الحياة، وعاش مَن لا يستحقها.

رأى فابْيَان صورة كُوْرنِيلْيَا على صفحة الفنون والآداب في إحدى الصحف الصفراء، وقد كُتب أسفل الصورة بالخط العريض: «المحامية تتحوَّل إلى نجمة سينمائية.. الآنسة المحامية د. كُوْرنِيلْيَا باتينبيرج اِكتُشفت من قِبَل إدفين ماركات صانع النجوم المشهور، وسيبدأ على الفور في الأيام المقبلة تصوير فيلم «أقنعة السيِّدة ز»، وهو أول فيلم من بطولتها».

همس فابْيَان وقد أومأ إلى الصورة: أتمنى لك حظًّا سعيدًا!

ثم رآها مرةً أخرى في جريدة ثانية، كانت ترتدي معطف فروٍ ثمينًا، تقود بنفسها سيارةً سبق لها أن رأها، وإلى جانبها يجلس رجل بدين، ضخم الجثة. ربما كان هو المكتشِف ماركات نفسه.

أكَّد الكلام المكتوب أسفل الخبر هذا التوقَّع. بدت هيئة الرجل مثل شيطان مَريدٍ لا يحمل حتى شهادة إتمام الدراسة الثانوية. كتب المحرّر الصحفي: «إدفين ماركات، الرجل صاحب العصا السحرية في صحبة اكتشافه الجديد كُوْرنِيلْيَا باتنبرج، المحامية السابقة، التي

تمثِّل نموذجًا جديدًا في عالم الفن ومثلًا يُحتَذَى للمرأة الألمانية الذكية».

حدَّق فابْيَان إلى صورتها كأنه يتأمّل قَبـرًا، وكرر مقولته السابقة: أتمنى لكِ حظًّا سعيدًا!

اقتُلع فابْيَان من جذوره التي جعلته يتشبث بهذه المدينة، اقتلعه مِقصٌّ خفي كأنه شبحٌ، فَقَد وظيفته، ومات صديقه، وكُوْرنِيلْيَا الآن في معيَّة رجل غريب، لماذا يظل إذًا هنا؟

قَصَّ فابْيَان صور كُوْرنِيلْيَا بعناية من الجرائد، واحتفظ بها في مُفَكِّرَته، ثم تخلص من الجرائد. لا شيء يغريه ليبقى هنا، تحدو به نفسه إلى هناك حيث نشأ.. إلى بيته، بيت والده، إلى أمه، إلى نفسه. هل سيرجع إلى هنا مرةً أخرى؟ لم يكن قد زار برلين منذ فترة طويلة مع أنه كان يحب الجلوس في محطة قطارات برلين القديمة. فهل تراه سيعود؟

عندما تجمع عدد قليل من الناس حول طاولته، نهض واقفًا وعَبَر الحاجز وركب القطار الذي كان ينتظر إشارة المغادرة. «الآن، هيا ارحل من هنا!». يدور عقرب الدقائق في الساعة المعلّقة في محطة القطار، وتدفعه هي الأخرى إلى الرحيل من هنا.

جلس بجانب النافذة، ونظر إلى الخارج. تأرجحت الحقول والمروج الخضراء على جانبي الطريق مثل قرص دوَّار، ومرَّت أمام ناظريه أعمدة الإرسال البرقي.

أحيانًا كان أطفال الفلاحين يقفون حفاة الأقدام وسط الطبيعة، ويلوِّحون إلى الناس في القطارات. في أحد المراعي رأى حصانًا يأكل في النَّجيل، يقفز مُهر ويلهو بطول السياج حول المرعى ويحرِّك رأسه يَمنةً ويَسرةً. ثم دخل القطار في غابة مظلمة تملؤها أشجار التنوب. نَمَت على جذور الأشجار فطريات رمادية اللون، وقفت الأشجار هنا كأنها أُمرت بألَّا تغادر الغابة.

مَلَّتْ عيناه متابعة المناظر التي تراءت له من نافذة القطار، فأشاح بناظريه بعيدًا عن الطبيعة، وتطلَّع إلى الكابينة التي يجلس فيها. كان الركاب الآخرون الجالسون لا يبالون بما حولهم، وكل واحد منهم مشغول بحاله، ولكن خمِّن مَن الذي كان يتطلَّع إليه؟ إنها السيّدة إيرينه مول! كانت في عربة القطار نفسها، تدخن سيجارةً في الكابينة المواجهة له، وتطالع وجهه مبتسمةً؛ تجاهَلَ وجودها، فأشارت إليه باسمةً، فخرج لها من الكابينة.

قالت له:

- يا لها من طريقة مُشينة تلك التي نلتقي بها! كأن كل واحد منا يلاحق صاحبه! إلى أين تسافر يا فابْيَان؟

- إلى مسقط رأسي.

- ألن تتهذَّب وتسألني أنا أيضًا عن وجهتي؟

- إلى أين تسافرين؟

همسَتْ له:

- أنا هاربة إلى بودابست. لقد وشى بي أحد الشبان الذين ينامون عندي، وعلمت اليوم صباحًا بما سيلحق بمؤسستي من أحد المُخبرين الذين أدفع لهم ضعف راتبهم من جيبي الخاص.. هل تأتي معي؟

- بالطبع لا.

- معي مئة ألف مارك، ولو وافقتَ على القدوم معي فلن يكون علينا السفر إلى بودابست، يمكننا السفر إلى براج أو باريس، سنقيم في فندق كلاريدج، أو نسافر إلى فونتينبلو ونستأجر هناك فيلا صغيرة.

- بل سأذهب إلى بيتي.

توسلت إليه:

- تعال معي! لديَّ أيضًا مجوهرات كثيرة. عندما تنفد أموالنا سنبتزُّ كبار السن الذين رأيتهم يضاجعون البنات. في جعبتي تفاصيل مثيرة للاهتمام، فثقوب الباب لها منافعها. أم تُفَضِّل السفر إلى إيطاليا؟ ما رأيك في بيلاجيو[1]؟

- لا.. قلت لكِ إني مسافر إلى أمي.

---

(1) **بيلاجيو**: بلدة جميلة على ضفاف بحيرة كومو في إقليم لومبارديا الإيطالي، وغالبا ما يشار إليها باسم «لؤلؤة البحيرة». (المحرر)

- أيها الحمار الغبي! هل يجب أنْ أجثو على ركبتي أمامك وأُعلن لك حُبي؟ لماذا تصدني عنك؟ هل أنا بالنسبة إليك امرأة منفتحة بلا حدود؟ هل كان من الأفضل لك أنْ تقع في غرامك امرأةٌ غـرَّة ساذجة بلا خبرة في الحياة؟ أنت تُعجبني ولا أستطيع نسيانك، نحن نتقابل دائمًا بدون موعد، إنها ليست مصادفةً أبدًا، وإنما هو القَدَر الذي يضعنا في طريق واحد.

أمسكت يده ومسحتْ عليها:

- أتوسل إليكَ.. تعال معي!

- لا.. لا أريد.. أتمنى لكِ رحلة سعيدة.

ثم همَّ بالدخول إلى الكابينة، فأوقفته، وقالت له:

- خسارة! هذا الذي أفعله الآن يؤسفني للغاية. على كل حال ربما نلتقي مرةً أخرى.

فتحت حقيبة يدها وقالت:

- هل أنتَ في حاجة إلى نقود؟

أرادت أنْ تدسَّ له بعض الأوراق المالية في يده، أحكم إغلاق قبضة يده، هزَّ رأسيه رافضًا، ودخل إلى الكابينة.

ظلَّت واقفةً لبرهة أمام الكابينة تتطلَّع إليه، فأشاح بنظره من جديد نحو النافذة.

مرَّ القطار بإحدى القُرى. كانت الساعة قرابة السادسة مساءً عندما وصل، خرج من محطة القطار وتأمَّل كنيسة درايكونيج،

وبدا له أن الكنيسة ترمقه بنظرة تمسحه من أعلاه لأسفله قائلةً: «لماذا لا ينتظرك أحد اليوم ليوصلك إلى البيت؟ ولماذا أتيتَ بدون حقائب؟».

مشى بطول شارع دامفيج، وعبر القنطرة القديمة، ترجرج قطار البضائع فوقها مُنذرًا بوقوع القوس الحجري في أي وقت. البيت الذي أقام فيه المعلِّم شانسه سابقًا طُلِي من جديد. أمّا باقي البيوت فقد ظلت كما هي على حالها الذي يعرفه فابْيَان منذ طفولته من دون أي تغيير في واجهاتها الرمادية، وافتُتح دكانٌ جديدٌ، وكذلك دكانٌ آخر في البيت الذي أقامت فيه القابِلة شرودِر، وهذا محل جزارة تزينه أحواض الورد المعلقة على النوافذ.

اقترب شيئًا فشيئًا من البيت الذي وُلد فيه، كان يحفظ الشارع عن ظهر قلب، وواجهات البيوت، والأفنية، والأرض، وكذلك الأقبية، وكان يعرف كل شيء في هذا الشارع، لكن الناس الذين يدخلون البيوت ويخرجون منها، والمارَّة في الشارع.. كلهم كانوا غرباء.

تسمَّر في مكانه وقرأ لافتةً كُتب عليها «دكان لبيع الصابون السائل»، ثم لافتةً عُلقت على النافذة: «تخفيضات على أجود أنواع الصابون - صابون اللافندر المصنوع يدويًّا بعشرين بْفِينْجًا بدلًا من خمسة وعشرين - صابون طبي ثمن القطعة خمسة وعشرون بْفِينْجًا بدلًا من ثمانية وعشرين»، ثم مضى نحو الباب.

كانت أمه تقف وراء الطاولة في الدكان، وبجانبها امرأتان أُخريان، انحنت الأم إلى الأمام، ووضعت على الطاولة صندوقًا به مسحوق غسيل، ثم قطعت قطعة صابون من لوح كبير صُبَّ عليه الصابون، ثم أخذت قطعةً من ورق التغليف، وبملعقة خشبية غرفت من الصابون السائل الذي كان موضوعًا في وعاءٍ كبير، وزنت الصابون السائل، ثم غلَّفته، استنشق فابْيَان رائحة الصابون التي تداعت بقوة قبل أن يلجَ إلى داخل الدكان.

أدار مقبض الباب فرنت الأجراس المُعلَّقة عليه، نظرت المرأة العجوز إلى الباب وفَزعت، فهرول إليها فابْيَان ثم قال بصوتٍ يرتعد:

- أمي.. لقد أطلق لَابُوْدَه الرصاص على نفسه..

أجهش في البكاء وسالت دموعه، فتح بابًا يؤدي إلى الحجرة الخلفية ثم أغلقه، وجلس على الكرسي بجانب النافذة، وأخذ يتطلَّع إلى الفناء أمام البيت، وضع رأسه على حافة النافذة وشرع في البكاء والنحيب!

الفصل الثاني والعشرين

زيارة إلى ثكنة الأطفال

لعب البولينج في الحديقة

الماضي قاب قوسين أو أدنى

سأل والد فابيان في صباح اليوم التالي:

- ما باله؟

أجابت الأم:

- طُرد من وظيفته، وأطلق صديقُه لَابُوْدَه على نفسه الرصاص. أنت تعرفه لَابُوْدَه، الشاب الذي تعرّف عليه في مدينة هايدلبيرج.

- لم أعلم على الإطلاق أنَّ لديه صديقًا.

قالت الأم:

- أنت لا تعلم أي شيء!

وهنا رنَّ الجرس في الدكان. وعندما عادت السيّدة والدة فابْيَان إلى الحجرة مرة أخرى شرع الأب على الفور في قراءة الجريدة. واصلت الأم كلامها:

- هذا إلى جانب إخفاقه في علاقته بالفتاة التي أحبَّها، لكنه لا يودُّ الحديث عنها كثيرًا. لقد درسَتْ تلك الفتاة القانون، وهي تعمل الآن ممثلةً في أحد الأفلام.

قال الأب:

- يا لخسارة المال الذي أُنفِقَ على دراستها للقانون!

تابعت الأم حديثها:

- إنها فتاة جميلة، لكنها تعيش الآن مع رجلٍ بدين يعمل مخرجًا للأفلام.

سأل الأب:

- هل سيمكث ابنك هنا طويلًا؟

هزَّت الأم كتفيها متجاهلةً سؤاله، ثم صبت القهوة وهي تقول:

- لقد أعطاني ألف مارك تركها له لَابُوْدَه، سوف أدَّخرها له؛ لقد ألمَّت به مصائب كثيرة في الآونة الأخيرة، ومرّ بانكسارات شتى، ليست فقط بسبب موت لَابُوْدَه، أو هَجْر حبيبته الممثلة له. فهو لم يعد مؤمنًا بالرَّب، ومن المؤكد أن السكينة والراحة تنقصُه لهذا السبب.

قال الأب:

- عندما كنت شابًّا في نفس سنِه كان قد مضى على زواجي عشرة أعوام!

مشى فابْيَان في شارع هيرينشتراسه، ومرَّ بكنيسة جارنيزون والثكنات، كان المكان مربع الشكل، وكان مليئًا بالحصى. متى وقف هنا آخر مرة؟ كان جنديًّا بين آلافٍ غيره، يرتدي سروالًا طويلًا، وخوذته على رأسه كان مُحصَّنًا بالذخيرة، ومتأهبًا لسماع الخطبة العسكريّة المُخَضَّبة بلون ميدان القتال الرمادي، يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، ويقف على أُهْبَة الاستعداد لسماع ما سيقوله الربّ للجيوش!

ظلَّ واقفًا أمام بوابة الثكنة التي كانت آنذاك مُخصصةً لسلاح المشاة، وأسند جسده إلى الأعمدة الحديدية. دارت برأسه الذكريات.. الوقوف في الصف لسماع الأوامر الرسمية، التدَرُّب على المدفع، الخدمة الليلية، محاضرة عن قروض الحرب، كشف الرواتب.

يا إلهي! ما ذلك الذي كان يحدث على أرض هذا الفناء القاحل؟! كان الجنود القُدامى يحتشدون قبل أنْ يخرجوا إلى ساحة القتال للمرة الثالثة ثم الرابعة، ثم يتراهنون فيما بينهم على تحديد من سيرجع أولًا، وكانت جائزة الرِّهان مجرد قطعة خبز، وبعد مُضي أسبوع كامل يعاودون الظهور في ملابسهم العسكريّة الخشنة الملوثة، وهم مصابون بداء (السيلان) الذي انتشر أولًا في بروكسل!

غادر فابْيَان السياج الشبكيَّ المضروب حول المعسكر، ومشى نحو ثكنات الحراسة وسلاح المشاة، هنا الحديقة والمدرسة التي جلس فيهما أعوامًا طويلة قبل أنْ يتعرَّف إلى حياته العسكرية، وطريقة الدوران السريع نحو اليسار، والتليسكوب، وحاملات الطائرات.

كان يمشي بطول هذا الشارع المؤدي إلى المدينة في المساء كي يعود إلى أمه ويقطع كل هذه المسافة في دقائق قليلة، كانت كل هذه المباني -سواء كنيسة أو مدرسة أو مستشفى- آنذاك ثكناتٍ عسكرية.

هذا المبنى الكبير ذو البرج الصغير المائل المدبب ما يزال موجودًا إلى اليوم، كأنه ما زال عامرًا بهموم الأطفال ومخاوفهم، وما تزال نوافذ مكتب الإدارة مُزيَّنةً بالستائر البيضاء، على النقيض من نوافذ باقي الغُرف السوداء الخاصة بحجرات الدراسة وأماكن إقامة الطلاب، تلك التي كانت خاليةً من أيِّ زينة أو ستائر، وكانت فيها أمتعتهم وأسِرَّتهم.

اعتقد فابْيَان في الماضي أنَّ جذور هذا المبنى العملاق ضاربة عميقًا جدًّا في الأرض. دخل البناية وصعد درَج السُّلَّم، تناهى إلى سمعه أصواتٌ تردَّدت في الردهة الخالية من البشر بين الحجرات، بدأت هذه الأصوات تَتَّضح له، فمن الدور الأول انبعثت أصوات كورال موسيقيٍّ وبيانو.

تجاهل فابْيَان السُّلَّم الرئيسي العريض وصعد الدَّرج الجانبي الضيق فجاءه تلميذان صغيران قبالته، صاح أحدهما:

- هاينريش، يجب أنْ تأتي إلى «طائر اللقلق»، هيا.. لتحضر الكراسات.

قال هاينريش وهو يمشي بطيئًا عبر الباب الزجاجيّ:

- سيتوقع هو ذلك.

ضحك فابْيَان وقال لنفسه:

««طائر اللقلق»، لا يزال الطلاب يطلقون على المدرسين نفس الألقاب القديمة التي كنا نطلقها، فقط تغير التلاميذ، دفعات تلو الأخرى تتعلم وتتخرج في هذه المدرسة».

في أيامه كان الحارس هو المسؤول عن قرع الجرس، وكان التلاميذ يتوافدون من كل حدب وصوب، من غرف المعيشة، ومن غرف الغسيل، ومن غرفة بها الخزانات، ومن فصول الدراسة، ومن قاعات الطعام.

جهّز التلاميذ الطاولة، وأحضروا علب الزُبد من الثلاجة، وأباريق القهوة اللامعة، وبعد تناول الطعام يأتي وقت الاستراحة، وقت الجلوس في الحديقة، وقت كرة القدم، وقت غرفة المعيشة، عمل الواجبات المدرسيّة، حجرة الدراسة ثم قاعة الطعام مجدّدًا، حيث يُجهِز صغار التلاميذ الطاولة لوجبة العشاء. يُسمح للتلاميذ الأكبر سنًا في المدرسة الابتدائية بالبقاء لمدة أطول والتدخين في الحديقة.

وقف فابْيَان في الطابق الثالث وفتح باب مسرح المدرسة. تذكَّر الأيام الخوالي، صَلاحُ الصباح، صلاة المساء، العزف على الأَرغُن، ذكرى عيد ميلاد القيصر، ذكرى معركة تاننبرج[1]، الأعلام المرفوعة أعلى البرج، عيد الفصح للتلاميذ المغادرين للانضمام إلى الخدمة العسكرية بالجيش، ودورات التدريب العسكري لكبار التلاميذ، ومرة أخرى نغمات الأرغن، والخطب الوعظية المفعمة بنغمة التقوى الرنانة.

تشبَّع المكان حقًّا بروح الاتحاد والحق والحرية. هل الوضع مثل ما كان عليه سابقًا؛ يمرُّ المدرس ويقف مشدود القامة؟ كان قانون الدراسة يسمح للتلاميذ بالخروج أيام الأربعاء والسبت مدة ثلاث ساعات، والمراقب الذي كان يتفحص ما يجلبه التلاميذ من الجرائد والمجلات، ثم يحولها بمقصِّه إلى قصاصات من ورق الحمَّام، أتراه ما زال موجودًا؟

ألم يكن كل هذا جميلًا؟ لم يكن الكذب الذي يشيع في كل مكان ويحيط بهم من كل مكان موجودًا آنذاك، وماذا عن تلك القوة الشريرة الخفية التي جعلت جيلًا بأكمله موظفين خاضعين، ومواطنين ضيقي الأفق؟ لقد كان الحال -غالبًا- فيما مضى جيدًا رغم كل شيء.

---

(1) معركة تاننبرج (Tannenberg): معركة فاصلة بين القوات الألمانية والقوات الروسية في الحرب العالمية الاولى. (المحرر)

غادر مسرح المدرسة، وصعد الدَّرج الحلزوني المظلم المؤدي إلى قاعات النوم والغسيل. في المقدمة اصطفت الأسِرَّة الحديدية، عُلِّقت على الجدران قمصان النوم بطريقة منظمة عسكرية، من الواجب أنْ يعمَّ النظام في كل شيء. صعد تلاميذ المدرسة الابتدائية الدَّرج وذهبوا للنوم. صمت الصغار، ومُنع الكلام. عمَّ الهدوء والسكون. هكذا يجب أنْ يكون الحال في هذا الوقت من كل ليلة. اقترب من النافذة. لمعت أضواء المدينة تحت في الوادي بشوارعها وأبراجها. كم مرةٍ تسلل فيها إلى هنا في الليل بمفرده فيما نام الآخرون! كان يفتش في المدينة من عَلٍ باحثًا عن البيت الذي ترقد فيه أمه المريضة؟ كم مرةٍ أسند رأسه إلى النافذة وكبح رغبته في البكاء؟ لم يضره شيء من ذلك آنذاك، لا السجن، ولا البكاء المكبوح، لقد كان كل شيء صحيحًا.

نزل الدَّرَج وتوجَّه إلى الحديقة، كانوا يلعبون هناك خلف عربة اليد بالمجرفة والمقشَّات والعصيّ المدببة، جمعوا أوراق الشجر على الأرض وكوَّموها أكوامًا متفرقة. الحديقة كبيرة وتنحدر إلى جدول ماء صغير.

مشى فابْيَانٍ على الطريق الضيق الذي يعرفه منذ زمان بعيد، ثم جلس على دِكَّة يتطلَّع إلى قمم الأشجار، استراح ثم واصل السير، وقاوَم بكل قوة فكرة أن ما يتداعى إلى خياله من القاعات والحجرات وأحواض الزرع ليست سوى ذكريات مضت، أليست واقعًا فعليًّا

يعيشه؟ لقد ترك طفولته هنا، وها هو اليوم يحاول استردادها من جديد بلا جدوى!

أتراه استردَّ طفولته بالفعل؟ أتراها هبطت عليه من بين أفرع الأشجار والأبراج؟ ومن ثم فرضت عليه سطوتها؟ تغلغل الاكتئاب في نفسه بزيادة، ذهب إلى مكان لعب البولينج، حيث كانت الكرات مهيأة للَّعب. تلفَّت حوله، كان وحيدًا، فأخذ كرةً من الصندوق، ركض بها إلى الأمام، ثم رماها فتدحرجت في مجراها. كان المجرى غير مستوٍ فقفزت الكرة عدة قفزات محدثةً أصوات قرقعة في المكان.

سمع صوتًا غاضبًا يقول:

- مَن هنا؟ ليس مسموحًا للغرباء باللعب هنا.

كان مديرَ المدرسة. لم يتغيَّر منذ عَرَفه، زاد الشيب في لحيته التي تشبه لِحَى التماثيل الآشورية، قال فابْيَان وقد أخذ قبعته وهمَّ بالمغادرة من المكان:

- أعتذر...

صاح المدير:

- لحظة من فضلك!

أدار فابْيَان جسده، فتابع المدير حديثه وهو يمد يده لمصافحته:

- ألم تكن تلميذًا سابقًا هنا؟

- بلى، كنتُ فيما مضى، أنا ياكوب فابْيَان.

- أهلًا بك، هل افتقدتَ ذكريات مدرستك القديمة؟

تصافح الرجلان، واسترسل المدير يقول:

- لا شك إنك مررت بأوقات عصيبة لم تعرف فيها الرحمة، هذا طبيعي؛ الأخيار يجب أن يعانوا دومًا.

سأله فابْيَان:

- ومَنْ الأخيار؟ هل من الممكن أنْ تُعطيني عنوانهم؟

- لا زلت حكيمًا كسابق عهدي بك، لقد كنتَ من أفضل التلاميذ، كما أنك كنتَ أيضًا واحدًا من أوقحهم. ماذا حققت إذًا في حياتك؟

قال فابْيَان:

- توشك الدولة أن توفر لي مبلغًا صغيرًا ليكون راتب التقاعد.

أردف المدير في عجب:

- هل أنت عاطل عن العمل؟ توقعت أن تكون وصلت إلى أرفع الدرجات!

ضحك فابْيَان:

- الأخيار يجب أن يعانوا.

قال المدير:

- لو أنك كنت أنجزت امتحان الدولة للتأهيل للالتحاق بالوظائف آنذاك، ما كنت لتقف الآن هنا عاطلًا!

عندها انفعل فابْيَان:

- كنت سأقف عاطلًا في كل الأحوال، وحتى لو كنت اجتزتُ هذا الامتحان وشغلتُ وظيفة. يمكنني أنْ أفشي لك سرًّا، وهو أنَّ جلَّ البشرية -ما عدا التربويين والقساوسة- يشعرون أنهم مثقلون ومرهقون. فالبوصلة لا تعمل على النحو الصحيح، ولكن هنا في هذه البناية لا يلحظ أحد هذا التشتت وعدم التوجُّه، أنتم تمرون هنا دائمًا على نفس المرحلة، من الصف الخامس، وحتى مرحلة إتمام التعليم الدراسي. لماذا ستحتاجون إلى البوصلة إذًا؟

أخرج المدير يديه من تحت معطفه، وقال:

- أشعُر بالفزع لأحوالكَ. ألا توجد أيُّ وظيفة لك؟ امضِ في طريقك واستكمل بناء شخصيتك أيها الشاب! لماذا درستَ التاريخ إذًا؟ ولماذا قرأنا أعمال الكلاسيكيين؟ اعمل على تعزيز إكمال شخصيتك!

تطلَّع فابْيَان إلى هذا الرجل النرجسيّ الذي تبدو عليه سمات التغذية الصحيحة والبنية القوية فضحك، ثم قال:

- هنيئًا لك أنت شخصيتك المكتملة!

ثم تركه ومضى. والتقى وهو في طريقه في الشارع إيفا كِنْدلر مصادفةً، لقد غدت امرأةً بدينةً، كانت تمشي بصحبة طفلتين. تعجَّب كيف أنه تعرَّفها بهذه السهولة. نادته وقد احمرَّت وجنتاها:

- ياكوب! أنت لم تتغير على الإطلاق، سَلِّما على عمكما، قُولَا له صباحَ الخير.

مدَّت الطفلتان أيديهما إليه، كانتا تشبهان أمهما كثيرًا. قال لها:

- لم نلتقِ تقريبًا منذ ما يقرب من عشرة أعوام، كيف حالكِ؟ متى تزوجتِ؟

- زوجي يعمل كبير الأطباء في مستشفى كارولاهاوس، هنا لا يمكنه تحقيق طفرات مهنية أكبر، ولا يكفيك أن تمتلك عيادة خاصة، لكنه سيسافر مع الأستاذ فانديسبيك إلى اليابان. لو كانت الأحوال هناك جيدةً من الممكن أن أسافر إليه بعد ذلك مع الطفلتين.

أومأ برأسه، وأخذ يتأمَّل الطفلتين. تابعت إيفا:

- كانت الحياة فيما مضى أجمل، هل علمتَ كيف سافر والداي؟ كان عمري سبعة عشر عامًا، كم يمر الوقت سريعًا!

أطلقت تنهيدةً وسوَّت ياقة قميص ابنتها الصغرى، ثم تابعت الحديث:

- لا يكاد الإنسان يشرع في بناء حياته الخاصة حتى يجد نفسه مسؤولا عن أطفال، هذا العام لن نذهب إلى البحر.

قال فابْيَان:

- أوه، هذه كارثة!

- كنا نتطلع إلى الذهاب مع الطفلتين ولو مرةً واحدةً إلى هناك. مع السلامة ياكوب.

- مع السلامة.

- صافِحا عمَّكما ياكوب.

مدت الطفلتان أيديهما، وانحنتا، ثم سارتَا سريعًا بجانب الأم. ظلَّ فابْيَان متسمِّرًا لبرهة في مكانه.

ومع انعطاف الأم مع طفلتيها في أحد الشوارع الجانبية انعطفت الأيام الخوالي أيضًا، في هذه اللحظة صار الماضي غريبًا عنه، غَدَا ماضيًا لا يمكن له أن يعرفه أو أن يستكين إليه من جديد.

لقد قال له الماضي كلمةً هيهاتَ ينساها، لأنها أصابت -كما يبدو- كبد الحقيقة، إذ قالت له: «أنت لم تتغير على الإطلاق».

سألته والدته بعد عودته، وكانا قد وقفا معًا بعد تناول طعام الغداء في الدكان يملآن صندوقًا بعبوات مسحوق التبييض، سألته قائلةً:

- كيف كانت جولتك اليوم؟

- كنت اليوم في الثكنات العسكرية، كما ذهبت إلى المدرسة، والتقيتُ مصادفةً إيفا، رُزِقَتْ طفلتين، ويعمل زوجها طبيبًا.

أحصَت الأم عدد العبوات التي جهَّزتها على الرف، ثم تابعت:

- إيفا؟ لقد كانت فتاة بارعة الجمال. هل ما تزال جميلة؟ هل ما تزال تذكر الفتى ياكوب؟ بسببها بقيتَ أنت طيلة يومين خارج البيت.

- كان والداها على سفر، وكان عليَّ أن أدرِّس لها. كانت أول مرة بالنسبة إليها، وقد أديتُ مهمتي بكل إتقان وأمانة.

- لقد تأخرتَ كثيرًا يا فابْيَان، شغلتَ بالي عليك، لقد جاءتك عدة رسائل، وقد جلستُ أمامها لمدة نصف ساعة بدون أن أجرؤ على فتحها.

تابعت الأم بعد أن ناولته الأظرف، فرتبها بعضها فوق بعض:

- أليس من الأفضل لك أن تبحث عن وظيفة هنا؟ أتريد حقًّا الرجوع إلى برلين؟ ألم يعجبك البقاء معنا هنا؟ يمكنك أن تقيم في غرفة المعيشة وتؤسسها لك. النساء هنا ألطف، ولسن طائشات. ربما تجد المرأة التي تحبها وتتزوجها هنا.

- لا أعرف ماذا سأفعل، رُبما أظل معكم هنا. أريد أن أبحث عن عمل وأشغل نفسي، أريد أن يكون لي هدفٌ في حياتي. وإن لم أجد ذلك الهدف فسأصنعه بنفسي، لن تستمر الحياة بهذه الطريقة أبدًا.

قالت له أمه:

- لم نكن في شبابنا نفكر بنفس طريقتكم هذه، كان الهدف الرئيسي دائمًا هو كسب المال والزواج، ثم إنجاب الأطفال.

أردف فابْيَان:

- ربما يكون في وسعي أنا أيضًا اعتياد مثل هذه الأهداف لاحقًا.

حملت الأم العبوات وقالت له بحدة:

- الإنسان مخلوق يألف العادة دائمًا!

الفصل الثالث والعشرون

بيرة «بيلسنلر»[1]

بيدرماير[2] على الطراز التركي

فابْيَان يُعالج مجانًا

(1) بيلسنر أو بِلْز (pilsener أو pils) هو نوع من الجعة. تأخذ اسمها من مدينة بلزن التشيكية، حيث أُنتجت لأول مرة في عام 1842م من قِبل صانع الجعة البافاري جوزيف جرول. (المترجمة)

(2) البيدرماير (بالألمانية: Biedermeier): مصطلح يُستخدم للدلالة على الأساليب الفنية التي ازدهرت في مجالات الأدب والموسيقا والفنون البصرية والتصميم الداخلي في ألمانيا وأوروبا الوسطى، إذ نمت من خلال الطبقة المتوسطة في الفترة التاريخية بين عام 1815م - وهو عام مؤتمر فيينا في نهاية الحروب النابليونية- وعام 1848م، وهو عام الثورات الأوروبية. وهو في العمارة طراز معماري، يتزامن مع طراز الريجنسي في المملكة المتحدة. والطراز الاتحادي (الفيدرالي) في الولايات المتحدة. بالإضافة إلى الطراز الإمبراطوري الفرنسي. (المترجمة)

ذهب فابْيَان في المساء إلى المدينة القديمة، ومن فوق الجسر رأى ذلك المبنى المشهور عالميًا، لقد كان يعرفه من البداية، كان اسمه: «القصر» سابقًا، «الأوبرا الملكية» سابقًا، «كنيسة البلاط الملكي» سابقًا، كل شيء هنا كان عظيمًا، وما حدث في الماضي لا يمت إلى الواقع الآن بأيِّ صلة!

تسلل القمر ببطء من فوق جدران القلعة، وحلَّقَ فوق القصر، ثم ارتفع من قمة القلعة إلى الكنيسة، كأنه ينزلق فوق سلك. أمَّا الشُّرفة التي امتدت حتى ضفَّة النَّهْرِ فقد كُسيت بالأشجار العتيقة، وتناثرت حولها المتاحف الفخمة.

عمَّ السكون المدينة ومعالمها الثقافية، وبدا المشهد له بأكمله كما لو كان مراسم جنازة باهظة التكاليف. قال فينْشكَات لفابْيَان:

- يوم الجمعة القادم سيكون لقاء الفصول الدراسية في راتسكيللر، هل ستكون موجودًا معنا؟

أجابه فابْيَان.

- آمل ذلك، لو سنحت الظروف سوف أكون معكم.

ودَّ أن يرجع إلى البيت سريعًا، ولكن صديقه وجَّه إليه دعوة، فزوجته غادرت البيت للاستشفاء منذ أربعة عشر يومًا؛ ذهبا معًا إلى حانة جاسماير، واحتسيا معًا (بيرة البيلسنر)، وبعد الكأس الثالثة بدأ فينْشكَات في الحديث عن السياسة:

- هذا الحال لا يجب أن يستمر، أنا مُنتمٍ إلى جماعة (شتالهيلم)[1]، لكني لا أحمل شعارهم، لا يمكنني اتخاذ أي قرار على الصعيد العام، ولكن هذا لا يغير في الأمر شيئًا؛ نحن في كفاح دائم ضد اليأس.

قال فابْيَان:

- لن تستطيعوا الكفاح أبدًا، فبمجرد أن تبدؤوا وتشحذوا هممكم ستشعرون باليأس.

صاح فينْشكَات وقد ضرب بقبضة يده على الطاولة:

- لعلّك مُحقٌّ في هذا، وسيتدهور الحال إلى أسوأ.

اعترض فابْيَان قائلًا.

- لا أعلم ما إذا كان الشعب كله يعاني هو أيضًا أم لا، من أين لكم هذه الجرأة على اتهام ستين مليونًا من الشعب بالانحطاط والتقهقر؟! فقط لأنكم مسكونون بإحساس زائف بالفخر والعزة حتى صرتم مثل الديوك الرومية!

(1) إبَّان عشرينيات القرن العشرين بدا أن جمهورية فايمار بلغت درجة من الاستقرار، فقد تحسَّن الوضع الاقتصادي إلى حد ما، وبالكاد نجحت ائتلافات الوسط في فرض حكومة مستقرة. وخمد العنف السياسي تقريبًا، لكن الجمهورية بقيت هشة، ففي تيار اليسار لم يتقبل الحزب الشيوعي قطُّ هذه الجمهورية البرجوازية، أما في تيار اليمين فظلَّ حزب الشعب الوطني الألماني مواليًا للمَلَكية. وترسَّخت جماعة المحاربين القدامى شبه العسكرية «شتالهيلم» (أي الخوذة الفولاذية) بقوة في المجتمع البروتستانتي البرجوازي القروي. وراكمت العداء لأنصار الديموقراطية الاجتماعية وللشيوعية ولتيار اليمين القائم. (المترجمة)

قال فينْشكَات بلهجة قاطعة قبل أن يفرغ كأسه في جوفه:

- هكذا كانت الأحوال دائمًا إذا ما قرأت تاريخ العالم، وسيظل الوضع على هذا النحو من أول تاريخ العالم إلى آخره.

صاح فابْيَان:

- من المخجل حقًّا أن يعيد التاريخ نفسه، ومن المخجل أيضًا أن نعلِّم أطفالنا ذلك، وأنت.. ألا تسأل نفسك عن السبب الذي يجعلك تُمارس هذه الأفعال عينها في الوقت الحاضر بنفس الطريقة التي حدثت بها سابقًا؟ لو أن لهذه التبعية عاقبة صارمة لما صِرنا إلى هذا الوضع المُزري!

قال له فينْشكَات:

- أنت لست وطنيًّا قوميًّا.

أردف فابْيَان:

- وأنت مغفل، وهذا أمر محزن جدًّا.

ثم احتسى كلاهما كأسًا أخرى من الجعة، وغيَّرا مجرى الحديث في هذا الموضوع تحاشيًا للاصطدام، ثم قال فينْشكَات:

- لديَّ فكرة عظيمة، ما رأيك أن نذهب إلى أحد المواخير معًا؟

- أما يزال مثل هذه الدُّور موجودًا؟ أعتقد أنها حُظِرت قانونًا.

- لقد حظرها القانون بالطبع، على أن بعضها ما زال مفتوحًا، سوف تستمتع بالوقت هناك.

قال فابْيَان:

- أنا زاهد تمامًا في هذا الأمر.

- ولم لا؟ سوف نشرب معًا زجاجة شمبانيا مع الفتيات، عدا ذلك فأنت حر في ما تريد، لتكن لطيفًا إذًا ولتأتِ معي.

انطلَقا معًا، وقد كان البيت في زقاق ضيق صغير، عندما مرَّ فانْيَان بهذا الزقاق تذكَّر أنَّ ضُبَّاط الوحدات العسكرية كانوا يمارسون طقوس العربدة هنا في البيت ذاته قبل عشرين عامًا[1]، لم يطرأ تغيير على البيت، لو كان الأمر على هذا النحو فلعلنا نطالع نفس الفتيات التي كانت هنا منذ ذلك الزمان البعيد. قرع فينْشكَات جرس البيت؛ سُمع وقع خطوات فتاة تدنو من الباب، نَظَرتْ من العين السحرية للباب، فُتح الباب. تلفَّت فينْشكَات حوله قبل أنْ يدلف إلى الداخل، كان الشارع خاليًا من المارَّة. تسلل كلاهما إلى الداخل.

مرَّا على إحداهن فهمهمت بالتحية، ثم صعِدَا درَج السُّلَّم الخشبي الضيق، أتتهما القوّادة ثم قالت:

- أهلًا جوستاف، ها أنت ذا للمرة الثانية.. تسعدنا رؤيتك.

صاح فينْشكَات:

- نريد شمبانيا مغشوشة، هل ما زالت (لي لي) هنا؟

- لا، لكن (لوتِه) موجودة، مؤخرتها عريضة بالقدر الكافي الذي تهواه. تفضَّلا بالجلوس.

(1) المقصود إبَان الحرب العالمية الأولى. (المحرر)

قادتهما إلى غرفة سداسية الشكل على طراز «بيديرماير» التركي، وكان ضوء المصباح الأحمر متوهجًا والجدرانُ مكسوَّةً بالخشب المرُصَّع بالزخارف، تعلوها صور النساء العاريات. جلس الرجلان، ثم قال فابْيَان:

- يبدو أنهن يعانين حالة ركود.

- ومَنْ يملك مالًا اليوم؟ أضف إلى ذلك أن الزمن قد عفا على هذه المهنة.

دخلت ثلاث فتيات إلى الغرفة، وبادرن بتحية الزبون الدائم، جلس فابْيَان في ركن الغرفة، ومضى يراقب المشهد. أحضرت القوّادة دلوًا به زجاجة، وصبت منها الشمبانيا ثم قالت:

- في صحتكما.

وبدؤوا جميعهم في الشرب. ثم قال فينْسْكَات:

- لوتِه! هيا اخلعن ملابسكن!

كانت لوته امرأةً غضَّةً ممتلئة الجسد، لها عينان تُشِعَّان مرحًا، وما كادت لوتة تتلقى أوامره حتى خرجت هي والفتاتان اللتان كانتا معها من هذه الغرفة، وبعد قرابة دقيقة واحدة رجع ثلاثتهن عاريات، وجلسن بين الضيوف.

هبَ فينْسْكَات واقفًا من مكانه ثم ضرب لوتِه بيده العريضة على مؤخرتها فضحكت، ثم قبّلته وجذبته معها إلى خارج الغرفة وهي

تتمتم بإحدى التعويذات، أما فابْيَان فقد جلس مع القوّادة والفتاتين في الغرفة، ومضى يشرب ويتسامر معهنَّ، قال فابْيَان:

- لا أرى هنا زبائن كثيرة، هل تعانين ركودًا؟

أجابته الشقراء وهي تداعب نهديها:

- حديثًا في مهرجان الأغنية كان المكان يغصُّ بالزبائن، في تلك الليلة نمت مع ثمانية عشر رجلًا في يومٍ واحد. عدا ذلك.. فالملل هنا قاتل!

اقتربت الفتاة السمراء من فابْيَان، ومضت تقول له:

- أجل خلافًا لذلك نكون كالراهبات في الدير!

سألته القوّادة:

- هل تريد زجاجة أخرى؟

أجابها فابْيَان:

- لا.. لم يعد معي سوى بضعة ماركات فقط.

قالت الشقراء:

- انسَ الأمر! جوستاف معه المال الكافي، فضلًا على أنه لديه رصيد في حسابه عندنا.

ذهبت القوّادة لإحضار الزجاجة الثانية، وبعد انصرافها سألته الشقراء:

- هل تأتي معي إلى أعلى؟

- لعلكِ لاحظت أني لا أملك القدر الكافي من النقود.

كان فابْيَان سعيدًا، لأنه لم يكن كاذبًا في قوله، فعاودت الفتاة عرضها:

- يمكنك إحضار النقود في الأيام المقبلة.

أصرَّ فابْيَان على رفضه، وبعد وقت قصير عاد فينْشكَات إلى الحجرة، وجلس بجوار الشقراء، فقالت وهي تحاول رد الإهانة التي سببها لها فابْيَان:

- الآن أنت لا تحتاج إلى الجلوس بجواري.

ثم جاءت لوتِه من جديد إلى الحجرة وهي تمسح بيديها على مؤخرتها قائلةً:

- يا لك من خنزير! كل مرة تضربني هذا الضرب، سأظلُّ على الأقل لمدة ثلاثة أيام عاجزةً عن الجلوس!

قال لها فينْشكَات:

- إذًا هاكِ عشرة الماركات هذه تعويضًا مني.

ودسَّ لها المال في حذائها، ثم ضربها من جديد على مؤخرتها عند انحنائها لالتقاط النقود، فغضبت، ثم غادرت المكان. طوَّق فينْشكَات خَصر الفتاة السمراء ودعاها إلى الجلوس، ثم احتضن الشقراء وقال لها:

- حسنًا.. هيا بنا!

تفحَّصته بعينيها ثم قالت:

- لكن أنا لستُ للضرب، أنا للفراش!

أومأ موافقًا، فوقفت وهمَّ ليتبعها، وقال للجمع وهو يهم بمغادرة المكان:

- مَن يقلق يشرب مشروب الليكو.

ثم تبع الشقراء مسرعًا. أحضرت القوّادة الزجاجة الثانية، فتحتها وشرعت تصبُّ، ثم دخلت إليهم لوتِه غاضبةً وهي تسب فينْشكَات، وتظهر للقوادة أثر الضرب على مؤخرتها، فيما شدت الفتاة السمراء فابْيَان من المعطف وقالت له:

- تعالَ معي إلى حجرتي.

نظر إليها، فوجد عينيها واسعتين شبقتين، وكانتا تتملَّقانه بشدة، قالت له في هدوء هامس:

- أريد أن أُطلِعك على شيء.

ذهبا معًا إلى غرفتها، وكان أثاث حجرة هذه الفتاة العارية على الطراز التركي مثل الصالون الذي كانا فيه، كما كان السرير مكسُوًّا بقماش الدانتيل الموَشَّى بورد كثير. بدت الصور المعلقة على الجدران ساذجة لدرجة جعلتها مضحكةً جدًّا له. ثمة مدفأة كهربائية لتدفئة الحجرة. كانت النافذة مفتوحة وأمامها اصطفت ثلاثة أُصُص من الورد. أغلقت الفتاة النافذة، ثم اقتربت من فابْيَان ومسحت وجهه في حنوٍ ودَعَةٍ. سألها فابْيَان:

- ما الذي تريدين إطلاعي عليه؟

لم يكن لديها شيء، ولم تتفوَّه بكلمة واحدة، فقط تطلَّعت إليه. نقر على ظهرها برقة وهو يقول:

- قلت لكِ.. ليس معي مال لأدفع لكِ.

هزَّتْ رأسها موافقةً، ثم فتحت له الصدرية، وتمددت على السرير تتأمل قسمات وجهه وهي منتظرة، فهزَّ كتفيه، ثم خلع ملابسه، وهوى بجسده عليها. طوقته بذراعيها وهي تتنهد وعيناها متعلقتان به، كان مضطربًا كأنه ينام مع فتاة عذراء يحاول إقناعها بأن الأمر هين. ظلت صامتةً، وبعد هُنيهة فتحت فمها وتأوهت، فعلت ذلك بتحفظٍ، ثم أحضرت بعد ذلك ماءً، وقطَّرت في الماء قطراتٍ سكبتها من زجاجتين بهما مواد كيمائية، وجهَّزت منشفة حملتها على يدها.

جلس فينْشكَات بين الشقراء ولوتِه، لوَّح إلى فابْيَان مشيرًا بيده، لأنه كان متعبًا وعاجزًا عن الكلام، شرِبَا الزجاجة حتى فرغت، ثم انصرفا من المكان. ضمَّ فابْيَان فتاته السمراء القصيرة إليه، وأعطاها في يدها عملتين معدنيتين فئة ماركين، وعندما خرج إلى الشارع وتحسَّس جيبه وجدهما قد رجعتا مكانهما، فسأل صديقه:

- هل هذا ممكن؟ لقد أعطيت الفتاة القصيرة بضعة ماركات فأعادت المال إلى جيبي من دون أنْ أشعر!

تثائب فينْشكَات بصوتٍ عالٍ ثم قال:

- آه حين يقع القلب في الحب! لقد أُغرِمتْ بكَ. على أيِّ حال يا ياكوب.. وعندما تأتي إلى اجتماع قَدامى الخريجين لا

تقصُص شيئًا مما حدث اليوم، ولا تنسَ الموعد، يوم الجمعة في راتسكيللر.

ثم مضى وحده، وأراد فابْيَان أن يواصل السير لبُرهة. كادت الشوارع تخلو من المارة، والترامات تعود خاليةً إلى محطاتها الأخيرة، ظلَّ واقفًا على الجسر لبرهة ينظر إلى أسفل نحو الماء، انعكست أضواء المصابيح على صفحة الماء في الليل، فبدَت له كأقمار صغيرة متراصَّة. رأى النهر عريضًا، وكان منسوب الماء مرتفعًا على غير العادة، ربما أمطرت السماء كثيرًا في الجبال هذا العام، تلألأت الأضواء على التلال المحيطة بالمدينة.

وقف فابْيَان وحده تحت سماء أخرى بعيدة عن سماء برلين، إنه هنا حيث لا ترتفع درجة حرارة ألمانيا، هنا يقف وحده حيث درجة الحرارة المتدنية. أنت واقف هنا يا فابْيَان ولَابْوْدَه راقد هناك بالقرب من فيلًا أبويه، أنت واقف هنا وكُوْرنِيلْيَا تنام مع ماركات في سَرير ذي أَرْبَعةِ أَعْمِدةٍ. إنها هناك بعيدة عنك، بعد أن غَدَا كل واحد منكما بمفرده.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الرابع والعشرون

السيّد كُنُوزْ يعاني مرضَ «عين السمكة»

جريدة «تاجِسبوست» تحتاج إلى أكْفَاء

تعلموا السباحة!

في اليوم التالي ذهب فابْيَان إلى المخبز، ومن هناك اتصل بمكتب فينْشكَات، لكن الأخير لم يجد متسعًا من الوقت للتحدُّث إلى فابْيَان، إذ كان يجب عليه الذهاب إلى المحكمة. سأله فابْيَان إذا كان يعرف مكانًا يطلب موظفًا يعمل في قسم الإدارة. فقال له فينْشكَات:

- اذهب إلى هُوْلتْسأَبْفِل، فهو يعمل في جريدة «تاجِسبوست - Tagespost».

- وماذا يفعل هناك بالتحديد؟

- أولًا هو المحرّر الرياضي، كما أنه يكتب في مجال النقد الموسيقيِّ، ربما يجد لك أيّ وظيفة تناسبك، وسوف أحدثه عنك يوم الجمعة، مع السلامة.

رجع فابْيَان إلى بيته، وقال لأمه إنه يودُّ الذهاب إلى المدينة القديمة لمقابلة هُوْلتْسأَبْفِل الذي يعمل محررًا في جريدة تاجِسبوست، عسى أن يكون في إمكانه مساعدته. كانت الأم تقف في الدكان منتظرة زبائنها، علَّقَت:

- أفلح إن صَدَق يا ولدي. ليكن الربُّ في عونك.

في الترام اصطدم فابْيَان برجل فارع الطول كالشجرة، رَمَقَ بعضهما بعضًا بنظرة مستاءةً، ثم قال الرجل وقد بسط يده ليصافح فابْيَان:

- أظنُّ يعرف بعضنا بعضًا!

تذكَّره فابْيَان بالفعل، إنه كُنْوزْ الملازم أول السابق في الخدمة العسكرية الاحتياطية، ذلك الذي وقع على عاتقه تدريب السَرِيَّة التي خدم فيها فابْيَان مدة عام، كان يسيء إلى العساكر البالغين من العمر سبعة عشر عامًا ويسلخ ظهورَه معاملتهم كما لو كان يتقاضى مكافآت على صنيعه من الشيطان.

قال فابْيَان بتأثر:

- اسحب يدك هذه سريعًا من أمامي وإلا بصقتُ عليها.

انتبه السيّد كُنْوزْ -الذي كان يشتغل وكيل شحن- لجدِّية تهديد فابْيَان، فسحب يدَه وهو يطلق ضحكة خجلَى لوجود الناس حوله. ومع أن السيد كُنْوزْ كان يعرف ما فعله سأل فابْيَان:

- وماذا فعلتُ لك كي تعاملني بهذه الطريقة؟

قال فابْيَان:

- لولا طولك الفارع لصفعت وجهَك، لكنني -مع الأسف- عاجز عن الوصول إلى وجنتيك الثمينتين، ولذا سأردُّ عليك بطريقتي.

ركَلَ فابْيَان بقوة قدمَيْ الرجل، وكان مِمن يعانون نتوءاتٍ لحميَّةً زائدةً يسمونها «عين السمكة»، فبدا الألم جليًّا على وجه السيِّد كْنُورْ، عندها زَمَّ شفتيه وشحب وجهه، وأغرق الواقفون حولهما في الضحك.

نزل فابْيَان من المترو على الفور قبل وصوله إلى المحطة التي يقصدها وأكمل طريقه سيرًا على الأقدام.

ثم أخيرًا التقى فابْيَان السيِّدَ هُوْلتْسأَبْفِل، زميل الدراسة السابق، وقد بدا يافعًا فوق العادة، كان يشرب الجعة من الزجاجة مباشرةً. قال هُوْلتْسأَبْفِل:

- اجلس يا ياكوب، يجب أن أنقِّح العرض القادم للسباق، وأن أكتب تقريرًا عن حفلات البيانو. لم أرك منذ فترة طويلة. أين كنتَ؟ برلين؟ لماذا؟ أحب أن أسافر مرةً أخرى إلى برلين، لكني مشغول دائمًا، وأحتسي الجعة ولا أستطيع السفر.

واصل تنقيح العرض مع احتساء الجعة فيما يتابع حديثه الثرثار:

- بُثور في رأسي، وبثور في مؤخرتي، الصغار دائمًا يكبرون والفتيات دائمًا أصغر سنًّا، آمَلُ ألا أصاب بالالتهاب الرئوي.

وفيما كان يتمتم هكذا مع نفسه، واصل حديثه بهدوء:

- هل تعلم.. لقد انفصل كوبل عن زوجته؟ لقد خانته مع رجلين، لقد كان عالِمَ رياضيات ممتازًا. باع برايتشايدنر الصيدلية واشترى مزرعةً صغيرة يزرع فيها عنب الثعلب والبطاطس، ننفق أموالنا على ما يحلو لنا، حسنًا لا بأس لو أجَّلنا خبر الحفلات الموسيقية قليلًا.

قُرِع جرس المكتب ودخل أحد السُّعاة فأعطاه مُسَوَّدَةَ بروفات الطبعة الأولى، ثم واصل الحديث مع فابْيَان، وأخبره فابْيَان بأنه يبحث عن وظيفة، سواء عنده نوع تلك الوظيفة، المهم أنْ يجد دخلًا ثابتًا يعيش به في هذه المدينة، أجابه هُوْلتْسأَبْفِل:

- ولكنك لا تفهم شيئًا في الموسيقا، ولا في الملاكمة!

ثم قال:

- ربما نحتاج إليك في صفحة «الأدب والفنون»، ربما في باب النقد المسرحيّ، أو ما شابه ذلك.

أمسك بسماعة التليفون وهاتف المدير، ثم قال:

- اذهب إليه الآن، قدِّم له نفسك بطريقة جيدة، حدِّثه عن تخصصك. هو إنسان مزهوّ بنفسه، لكنه رجل حاذق.

شكره فابْيَان، وذكَّره بموعد لقاء خريجي الفصول الدراسية، ثم انصرف وطلب مقابلة المدير هانكه. سأله المدير:

- هل كان السيّد هُوْلتْسأَبْفِل زميلك في المدرسة؟ هل درست تاريخ الأدب؟ في الوقت الحالي ليس لديَّ وظيفة مناسبة لهذا التخصص. لكن هذا لا يعني شيئًا، فلو اجتهدتَ سأحتاج إليك دائمًا، أريد دومًا الاستعانة بالكفاءات. هل تريد أنْ تجرِّب أربعة عشر يومًا على مسؤوليتك الخاصة؟ سوف أعَرِّفك إلى مدير قسم الفنون والأدب، لكنه لو رفض مقالاتك سيكون ذلك من سوء حظك، وفي كل الأحوال أهلًا بك مقدِّمَ خدماتٍ خارجيًا.

ثم همَّ ليضغط على زر الجرس، فبادر فابْيَان قائلًا:

- لحظةً من فضلك يا سيادة المدير، أشكرك على منحي هذه الفرصة، ولكني أُفضِّل أن أعمل في قسم الدعاية والإعلان، ربما يمكنكم تأسيس قسم خاص بتقديم المشورة للزبائن واقتراح نصوص جذابة للعملاء، وربما تنظيم حملات إعلانية كاملة. يمكن أن يتأثر عدد توزيع الصحيفة تأثرًا إيجابيًّا من خلال الإعلانات الذكية المنظَّمة. يمكنك إجراء مسابقات جديرة بالاهتمام بالتعاون مع كبار المعلنين. يمكنك تنظيم أمسيات ملاكمة ومهرجانات شعبية مماثلة للمشتركين.

أصغى المدير باهتمام إلى كلامه ثم قال له:

- إن كبار المساهمين عندنا لا يمكن التعامل معهم بالطرائق المُتَّبعة في برلين هذه.

- ولكن من المؤكد أن اقتراحاتي هذه ستزيد من توزيع أعداد أكبر للجريدة.

قاطعه المدير موضحًا:

- طبعًا نرحب بزيادة توزيع الجريدة، ولكن ليس عبر هذه المراوغات. على أيِّ حال سأتحدث إلى رئيس قسم الدعاية والإعلانات، ربما يمكننا اتخاذ بعض الإجراءات البسيطة التي في إمكاننا المواظبة عليها، وإلا فسوف نستغني عنها سريعًا. تعال غدًا مرة أخرى الساعة الحادية عشرة. سأرى ما سيكون في وسعي أن أفعله لك، أحضِر معك بعض الكُتيبات الدعائية التي صممتَها في السابق، وكذلك شهاداتك، إذا كان عندك.

وقف فابْيَان، وشكر المدير على ما أبداه من اهتمام.

- في حال وُوْفِقَ على تعيينك، أرجو ألَّا تتوقع مبلغًا كبيرًا؛ مائتا مارك في يومنا هذا يُعد دخلًا جيدًا.

سأله فابْيَان بكل فضول:

- مائتا مارك للموظف؟

أجابه المدير:

- بل للمساهمين.

جلس فابْيَان في مقهى ليمبرج يشرب كونياك، وهو يُعمل التفكير في ما أقدَمَ على فعله. كانت فكرة مجنونة لا ريب. لو كان القائمون على الجريدة أسخياء ومنحوه الوظيفة فسوف يقَدِم عونًا كبيرًا لانتشار جريدة ذات توجُهات يمينية محافظة.

هل كان يحاول إقناع نفسه بأن الدعاية في حد ذاتها تروقُه، بغض النظر عن الغرض الذي تخدمه؟ أم هل أراد أن يرضي ضميره يومًا وراء يوم بالحصول على وظيفة بسبب مئتي مارك شهريًّا؟

هل كان ينتمي حقًّا إلى زمرة الصحفي مُونتْسَر ومَن هُم على شاكلته وهو لا يدري؟

ستفرح له أمه كثيرًا لو حصل على هذه الوظيفة، فكم تمنَّتْ الأم أن يصير فابْيَان عضوًا صالحًا في المجتمع Gesellschaft. أن يصير عضوًا نافعًا في هذه الشركة Gesellschaft (ذات المسؤولية المحدودة)[1].

لكنه لم يُفلح. فلم يكن كسب المال قطُّ مربط الفرس في حياته. قرَّر ألَّا يخبر والدته بأنَّ الأمور لم تسر على ما يُرام مع جريدة Tagespost، رفض أن يطأطئ رأسه ويزحف على بطنه لكي يرتقي. بحق السماء! لن يرفع الراية البيضاء!

قرَّر إخبار المدير برفض عرض الوظيفة، وبمجرد أن استقرَّ عَزمه على ذلك القرار شَعَر بالارتياح والرضا، ففي مقدوره الاحتفاظ بمبلغ ألف المارك التي تركها لَابُوْدَه له، ثم يسافر إلى جبال الخام[2]،

---

(1) يلعب المؤلف على تورية ساخرة، فكلمة Gesellschaft في اللغة الألمانية تحمل معاني عدة منها «مجتمع» وهي المفردة الأولى، و«شركة تجارية» وهي المفردة الثانية التي استخدمها في إشارة ساخرة من البطل فابيان. (المحرر)

(2) جبال الخام، بالألمانية «Erzgebirge»: هي سلسلة جبلية في أوروبا الوسطى تقع بين ألمانيا والتشيك. (المترجمة)

ولسوف يمكث هناك في أي مزرعة، سيكفيه المال الذي في حوذته للبقاء هناك قرابة ستة أشهر، وربما فترة أطول، كما أن في وسع قلبه العليل أن يستمتع ببعض النزهات بين جنبات الطبيعة؛ إنه يعرف المنطقة هناك جيدًا منذ عهد الرحلات المدرسية، يعرف الغابات والمراعي المنتشرة على الجبال والبحيرات والقرى الفقيرة. معظم الناس يسافرون إلى الجنوب، لكن الإقامة في «جبال الخام» أرخص. ربما يجد نفسه هناك ويعود إليها. ربما لو ذهب إلى هناك لصار شيئًا أقرب إلى الإنسان بالمعنى الحقيقي للكلمة.

ربما تكفيه هناك فقط خمسمئة مارك، في مقدوره أن يترك نصف المبلغ الباقي لأمه.

«فلننطلق إذًا، إلى أحضان الطبيعة.. أسرِع الخطى.. أسرِع الخطى...».

وحتى يعود فابْيَان إلينا سيكون العالم قد خطا خطوةً إلى الأمام، وربما يمشي القهقَرَى خطوتين إلى الوراء. إلام يتجه العالم برُمَّته؟ لا بأس.. سيكون أيُّ اتجاه يتجه إليه أفضل مما هو عليه حاليًّا. وكان كل موقف آخر سوى ذلك واعدًا بالنسبة إليه سواء كان الذهاب إلى النضال أم العمل.

لم يعد في وسع فابْيَان الوقوف مكتوف الأيدي مثل طفلٍ قدماه مغروستان في الوحل. لم يستطع المساعدة ولا مدَّ يد العون إلى غيره، لأنه لا يعرف مَن سيساعد ولا مع مَن سيتحالف. أراد أن يلوذ

بالسكون، وأن يصغي إلى صوت الجبال، منتظرًا أن يسمع إشارة البدء التي ستُصوَّب إليه وإلى مَن يشبهونه.

خرج من المقهى، لكن ألا يعتبر هذا الذي ينوي فعله هربًا؟ ألم يجد من قبلُ المكان المناسب لهربه؟ ماذا أثناه عن قصده هذا منذ عدة أعوام مضت؟ لماذا انتظر كل هذا الوقت؟ ربما انتظر إدراك حقيقة أنه وُلد ليكون مُتفرجًا لا ليكون - كما كان يعتقد حتى اليوم- عضوًا فاعلًا في هذا المسرح العالمي!

ظلَّ يتسكَّع في الشوارع، ويتطلَّع في واجهات المحلات، إلى الفساتين، إلى القبعات، إلى الخواتم... كان يطالع مِن دون أن يرى شيئًا، لكنه استعاد وعيه في محل بيع المشدَّات، فجال في خاطره أنَّ الدنيا أحد أكثر الاهتمامات الشَّائقة التي يشغل بها الإنسان نفسه رغم أي شيء.

الأبنية التي بُنيت على طراز البارُوكْ ما زالت تصطفُّ متجاورةً في شارع شلوسشتراسه، بالتأكيد مات البناؤون الذين شيّدوها، ومات المستأجرون الأوائل الذين سكنوها عندما كانت حديثة البناء وقتذاك.

مشى فابْيَان نحو الجسر حتى وصل إليه، وفجأةً رأى طفلًا يصارع الأمواج. عندها أَغَذَّ الخطى، ثم بدأ في الركض. ترنَّح الصبي وأطلق صرخة حادة، ثم انزلقت ركبتاه ومدَّ ذراعيه في الهواء ليسقط من فوق الحاجز في النهر.

التفتَ عدد قليل من المارة الذين سمعوا الصراخ. تدلَّى فابْيَان بنصف جسده فوق السور العريض، رأى رأس الطفل ويداه تضربان الماء. خلع سترته وقفز لإنقاذ الطفل. توقف ترامان، ونزل الركاب من عربات الترامين لمشاهدة ما يحدث. فيما ضرب التأثُّر والهياج بعض الواقفين على ضفة النهر وهم يركضون هنا وهناك. استطاع الصبي السباحة إلى ضفة النهر وهو يواصل البكاء.

أما فابْيَان فقد غرِق، لأنه -مع كل الأسف- لا يجيد السباحة.

تمت

مكتبة
t.me/soramnqraa

فابيان الأخلاقي

«مثل بطل روايته فابيان، لم يكن كيستنر ساخطًا، بل كان مثاليًا، حزينًا.. رواية مفتاحيّة لجمهورية فايمار في سنواتها الأخيرة»

The Times Literary Supplement

وسط عالم انقلبت معاييره رأسًا على عقِب، وانعدمت قوّة الأخلاق، وتناحرت الطوائف السياسية المتطرفة، ظل فابْيَان المثقّف القلِق، متمسكًا بالأخلاق في خِضم تلك الفوضى؛ راصدًا تغيُّرات الحياة في برلين؛ حيث يفقد العُمال وظائفهم أمام التقنيات الجديدة، بينما ينشغل رجال الأعمال بجني الأرباح، وتتصاعد مظاهر النفاق البشري.

بروح ساخرة نقديّة لا تعرف رِفقًا ولا هوادة، يتناول كيستنر اضمحلال جمهورية فايمار، على الصعيدَين السياسي والاجتماعي. حظيت الرواية بإشادات واسعة وأثارت جدلاً كبيرًا في الوقت نفسه بسبب انتقادها الصريح، ما أدى إلى حظرها لاحقًا بواسطة النازية، إلا إنها استمرّت في حجز مكانتها كعملٍ كلاسيكي خالد في الأدب الألماني.

جُسّدت الرواية على شاشة السينما عام 1980 من إخراج وولف غريمل، بعنوان Fabian، وفيلم آخر عام 2021 بعنوان Fabian oder Der Gang vor die Hunde من إخراج دومينيك غراف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

منشورات حياة